التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

حفظه الله ورعاه

الجزء الثاني

اعتنى به وأشرف عليه

أبو أنس علي بن حسين أبو لوز

دار الوطن للنشر

الرياض - شارع المعذر - ص.ب. ٣٣١٠

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس : ٤٧٦٤٦٥٩



التعليقات الزكية

على

العقيدة الواسطية

الجزء الثاني



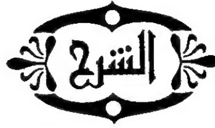
الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

القسم الثاني
الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة

[فصلٌ: في سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ:

فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وما وَصَفَ الرَّسُولُ بهِ رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الأحاديثِ الصِّحَاحِ الَّتي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمانُ بِها كَذلك] .



منزلة السنة من القرآن

- قوله: (فصل: في سنة رسول الله ﷺ: فالسنة تفسير القرآن...):

نعرف أن العقيدة مأخوذة عن الوحيين: الكتاب والسنة، هذا هو الأصل في معتقد المسلمين، كما أن الأحكام متلقاة عن الوحيين: الكتاب والسنة.

والسنة هي: الوحي الثاني، وقيل: إنها وحي باللفظ. وقيل: وحي بالمعنى.

وقد وصفها المؤلف هنا بأنها تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه.

. . . .

والمراد بالسنة: أحاديث الرسول ﷺ القولية والفعلية، وكونها تفسر القرآن ظاهرًا، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي أنزل عليه القرآن، فإذا جاء تفسير القرآن عنه وجب الرجوع إليه، وقُدم ذلك على كل تفسير، سواء كان تفسيرًا لغويًا، أو تفسيرًا بالرأي أو بغير ذلك؛ وذلك لأنه صدر من منبعه، فمادام أن القرآن متلقىً عن الرسول، فكذلك تفسيره يتلقى عنه.

وأيضًا فإن الله تكفل ببيانه له، فلابد أنه ما ذكر من التفسير إلا ما ألهمه أو ما عُلِّمه. فالله تعالى أخبر بأنه سيبينه له في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[طـه: ١١٤] يعني لا تستعجل به.

وفي قوله: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة: ١٦- ١٩] المراد أن الله تكفل بأنه سيبينه، وبيانه إما من حيث وضعه ولفظه، فالرسول عليه السلام يعرف معانيه لكونه بالكلام الفصيح الذي يفهمه، وإما بالتعليم بأن يبين له جبريل الذي نَزَل بالقرآن معانيه، فإذا جاء البيان عن النبي ﷺ، فإنه يُقدَّم على كل بيان، وقد أمره الله بذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤]؛ يعني تبين لهم أحكام القرآن الذي نزل إليهم، وهذا تكليف، فدل على أن الله كلفه أن يبين ما نزل إليهم، فإذا جاء البيان عنه قدم على كل بيان.

. . . .

فمثلاً أمرنا بالصلاة ومع ذلك لم يذكر في القرآن أوصافها كاملة، فلم يذكر في القرآن عدد الصلوات صريحًا، ولا عدد ركعات كل صلاة، ولا عدد سجدات كل ركعة، وإنما ذكر الله الركوع والسجود والقيام مجرد ذكر كما في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦]، فذكر القيام والركوع والسجود، ولكن لم يبين أكثر من ذلك.

فمن أين عرفنا أن في كل ركعة سجدتين؟ ومن أين عرفنا أن القيام هو محل القراءة؟ ومن أين عرفنا أن كل ركعة لابد أن تقرأ فيها الفاتحة؟ ومن أين عرفنا أن الركوع هو الإنحناء المعروف، وأنه يسبّح فيه بقوله «سبحان ربي العظيم»؟ وأن السجود المعروف يكون على الأعضاء السبعة، وأنه يقول فيه: «سبحان ربي الأعلى»؟ ومن أين عرفنا أن الصلاة تحتاج إلى تكبيرة الإحرام، وإلى تكبيرات تنقل، وإلى تشهد وسلام في آخرها؟ كل ذلك عُرف من السنة، فكلُّ ذلك هو البيان الذي قال الله فيه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولهذا لما علم النبي ﷺ أمته كيفية الصلاة قال لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣١) في الأذان، باب: «الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة». عن مالك رضي الله عنه.

. . . .

وكذلك الحج؛ فإن الله تبارك وتعالى ذكر أعمال الحج مجملة؛ فذكر الطواف ولم يبين عدد الأشواط ، ولم يبين الإحرام ولا محظورات الإحرام، ولم يبين في القرآن زمن الوقوف بعرفات، وأنه في اليوم التاسع، وأنه إلى الليل، وأنه يبدأ من أول النهار أو بعد الظهر، وأنه يجمع بعرفة بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم، وفي مزدلفة بين المغرب والعشاء جمع تأخير، لم يذكر الله ذلك بالتفصيل وعرف من السنة .

ذكر الله عرفة بقوله : ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة: ١٩٨] يعني مزدلفة، ولم يذكر الوقت الذي يستمر فيه وبيّن ذلك في السنة، بينه النبي ﷺ بفعله وقال: «**خذوا عني مناسككم**»(١) فعرف بذلك أن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه، وتدل عليه، وتوضح مجمله، وتمثله وهكذا .

ثم قد يكون في السنة زيادات، أي أحكام زائدة جاءت في السنة الصحيحة فعُمل بها، وليس العمل بها زيادة على الوحي، بل إنها من جملة الوحي، فمثلاً: حرم الله في النكاح الجمع بين الأختين، وجاء في السنة النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها، أو بينها وبين خالتها، وعلل ذلك بقوله:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢٩٧) في الحج، باب: «استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر. . .» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

«إنكنَّ إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»[١] فتُلقي ذلك بالقبول.

وهكذا الأحكام الكثيرة التي جاءت في السنة، تتلقى بالقبول ويعمل بها، ويُعتقد أنها من الشرع ومن الدين، ومن ذلك الأحاديث الصحيحة الثابتة القوية التي وردت في صفات الله عز وجل، فإن أهل السنة والجماعة يقبلونها ويثبتون بها صفات الله عز وجل وإن كانت أحاديث آحاد، مخالفين بذلك المتكلمين من المعتزلة وغيرهم الذين قالوا: أحاديث الآحاد إذا وردت بها صفات الله عز وجل فإنها لا تقبل في العقيدة.

وعللوا ذلك بقولهم: إن هذه الأحاديث الآحاد ظنية، والظن لا يدخل في العقيدة. نقول: ليس كذلك وإن كانت آحاداً فليست ظنية بل هي يقينية، فالصحيح أن الأخبار الآحادية تفيد اليقين، ولا تفيد الظن كما تقوله المعتزلة. فالمعتزلة الذين ردوا أحاديث الصفات، ردوها بهذه الشبهة، وأنها ما تفيد إلا الظن، وأما أهل السنة والأئمة والسلف الصالح فهم يقبلونها ويقولون: كما تقبلون يا معتزلة أحاديث الأحكام، فكذلك يلزمكم أن تقبلوا أحاديث العقيدة، سيما وقد ثبتت ثبوتًا لا شك فيه ولا توقف ولا تردد وقد صدقها أهل السنة وتلقوها بالقبول.



---

(١) أخرجه ابن حبان بهذه الزيادة (٩/ ٤٢٦) رقم (٤١١٦ - إحسان) وفي إسناده أبو حريز مولى الزهري ضعيف الحديث إلا أنه توبع فحسن حديثه.

١ ـ إثبات صفة النزول الإلهي إلى سماء الدنيا :

[فَمِنْ ذلك : مثلُ قَوْلِهِ ﷺ : «يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السَّماءِ الدُّنيا كُلَّ ليلةٍ حينَ يبقى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، فيقولُ : مَن يَدْعوني فأَسْتَجيبَ لهُ؟ مَن يسأَلُني فأُعْطِيَهُ، مَن يستَغْفِرُني فأَغْفِرَ لهُ؟ ». متَّفَقٌ عليه[١]] .



▪ قوله : (**فمن ذلك : مثل قوله ﷺ : «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا...**) :

هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة وهو مخرج في الصحيحين، وهو من جملة الأحاديث التي ردها المعتزلة ولم يقبلوها، وقد ثبت ثبوتًا لا مفر منه، وقد نقله الذين نقلوا الشريعة، ولهذا يقول أبو الخطاب في منظومته في العقيدة :

قالوا النزول فقلت ناقله لنا

قوم هم نقلوا شريعة أحمد

الذين نقلوه هم الذين نقلوا الشريعة .

فنقول للمعتزلة وغيرهم : فإما أن تقبلوا الشريعة كلها، وإما أن تردوها كلها، أما كونكم تقبلون ما يوافق معتقداتكم وتردون الباقي، فهذا تفريق بين ما جمع الله بينه؛ تفريق بين متماثلين، فمن قَبِلَ البعض دون البعض أشبه

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥) في التهجد، باب : «الدعاء والصلاة من آخر الليل» ورقم (٧٤٩٤) في التوحيد. ومسلم برقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين، باب : «الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل». عن أبي هريرة رضي الله عنه .

اليهود فيما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٥٠] .

لاشك أن هذا تفريق بين متماثلين، لكونهم يقبلون أحاديث هذا الصحابي في حالة ويردونها في حالة، أما أهل السنة والجماعة فإنهم يؤمنون بهذا الحديث، وأن الله تعالى ينزل نزولاً يليق به، كما يؤمنون بالمجيء الذي ذكره الله، في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وفي قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ويقولون: إن نزوله ومجيئه وإتيانه كما يليق به، ولا يتكلفون وراء ذلك، ولا يتقعرون؛ لأن المعتزلة والجهمية ونحوهم أخذوا يتساءلون ويقولون: إذا نزل، فهل يخلو منه العرش أم لا، هل تكون السموات فوقه أم لا؟، نقول: لا حاجة لنا في التكلف ولا نسأل شيئًا وراء ذلك، بل نؤمن بما أخبر، والله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته، وكذلك في أفعاله، والنزول من الأفعال، فنؤمن بذلك.

والرسول عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الحديث ليرغب الأمة في الصلاة آخر الليل، وكان عليه الصلاة والسلام يداوم على الصلاة في الثلث الأخير من الليل؛ لأنه كان ينام مبكرًا بعد العشاء مباشرة، ثم يقوم الثلث الأخير كله أو النصف الأخير كله للتهجد بالليل، وكذلك جملة مستكثرة من صحابته.

. . . .

وهكذا المسلمون في أغلب الأوقات يقومون آخر الليل، يتحرون ذلك الوقت الشريف الذي فيه هذا التودد من ربهم، فيتعرضون لنفحاته، فالله تعالى يتودد إليهم يقول: «**من يدعوني فأستجيب له**» فيتقربون إليه بكثرة الدعاء في ذلك الوقت، «**من يستغفرني فأغفر له**» فيبادرون بكثرة الاستغفار وكذلك بكثرة التوبة، وكذلك بالإنابة إليه.

فإنهم فهموا من الحديث أنه تعالى يحثهم على هذه الأعمال فصاروا يتحينون ذلك الوقت الذي هو آخر الليل، لأجل الصلاة والاستغفار والدعاء والتوبة وصدقها وما أشبه ذلك، هذا هو الذي فهموه، ولم يكونوا يوجهون أنظارهم ولايتقعرون في البحث عن كيفية نزوله، كما تبحث في ذلك المعتزلة ونحوهم.

ويستدلون بذلك أيضًا على أن ربهم هو العلي الأعلى بقوله: «**ينزل**»، والنزول لا يكون إلا من أعلى، ولكن لا يكيفون العُلو بكيفية إلا أنه تعالى هو العلي بجميع أنواع العُلو.

فالحاصل أن في هذا الحديث دليل على إثبات صفة العلو، ودليل على إثبات صفة النزول الذي يعتقده المسلمون، وأنه تعالى ليس كمثله شيء لا في علوه ولا ارتفاعه، حيث إن ذلك لا ينافي قربه واطلاعه ومعيته لخلقه، وكذلك نزوله، لا ينافي علوه على عرشه واستواءه عليه وما أشبه ذلك من صفاته.

. . . .

هكذا يعتقد المسلمون، وكلما اعتقد المسلم الواعي هذه الصفات دله ذلك وحمله على أن يعظم ربه، فتقع آثارها في قلبه، فيكون من تأثيرها أن يعبده حق عبادته، وألا يعبده في وقت من الأوقات دون وقت، بل تكون عبادته دائمة في كل وقت فإن عمل المؤمن دائمٌ ليس فيه انقطاع.



٢ ـ إثباتُ صفةِ الفرحِ:

[**وقولُه ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرحاً بِتَوْبَةِ عَبدِهِ المؤمنِ التائبِ مِنْ أحدِكُمْ بَراحِلَتِهِ». متفق عليه**][1].



▪ قوله: (**وقوله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن...»**):

هذا الحديث فيه أمران: الأول: إثبات صفة الفرح لله.

والثاني: فضل التوبة وأن الله تعالى يقبلها.

قال ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم، كان على راحلته في أرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى إذا أيس منها، نام تحت شجرة، فلما رفع رأسه فإذا ناقته عند رأسه، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[2].

مثَّل الرسول ﷺ في هذا شدة الفرح، فلا شك أن هذا الرجل سيفرح

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٨) في الدعوات، باب: «التوبة». ومسلم برقم (٢٧٤٤) في التوبة، باب: «في الحض على التوبة والفرح بها». عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وله ألفاظ متقاربة رواها جمع من الصحابة كأبي هريرة وأنس والبراء والنعمان بن بشير وعبد الله ابن مسعود.

(٢) هذا أحد ألفاظ مسلم في الصحيح برقم (٢٧٤٧) في التوبة، باب: «في الحض على التوبة والفرح بها» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

فرحًا شديدًا؛ وذلك لأنه قد أيس من الحياة، قد انقطع رجاؤه، حيث انفلتت راحلته التي يبلغ عليها في سفره، ويقطع عليها المسافات الطويلة، والتي تحمل متاعه؛ طعامه وشرابه، وتحمله هو بنفسه إلى أن يصل إلى البلد التي ليس بالغًا له إلا بشقِّ الأنفس.

انفلتت منه هذه الراحلة، فطلبها حتى أعياه البحث وجهدت نفسه، فلما يئس من وجودها اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت، فإنه في صحراء قاحلة، في فلاة قفر لا زرع فيها ولا ماء، وليس هو على طريق ولا يمر به أحد، فحالته حالة ضعف، فلا شك أنه والحالة هذه قد أيس من حياته، فبعدما أغمض عينيه قليلاً، فتح عينيه ورفع رأسه، وإذا ناقته عند رأسه على تلك الشجرة، ففرح فرحًا شديدًا، فرح من عاش بعد الموت، فرح من حيٍّ بعدما يئس من الحياة، فهذا فرح شديد.

والله تعالى يفرح بتوبة عبده كذلك، مع أنه تعالى غني عن العباد، لكن متى تاب العبد توبة صادقة، فإنه سبحانه وتعالى يفرح لأنه يحب الخير للعبد، يحب لعباده أن يكونوا من أهل السعادة، يحب لهم أن يكونوا من أهل جنته وأهل قربه، فيحب أن يكونوا مؤمنين، وأن يكونوا تائبين، وأن يقبلوا إليه وينيبوا، ويتركوا المخالفات والمعاصي ونحوها.

ولاشك أن هذا أمر عظيم، مع أن المصلحة تعود للعبد نفسه وإلا فالله تعالى لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، فهو الذي خلق الخلق

. . . .

وهو الذي تعبدهم، وأمرهم ونهاهم وكلفهم، فمنهم من أطاع ومنه من عصى، ومنهم من قبل ومنهم من ردَّ، ومنهم من يعيش مدة طويلة على شر ثم يتوب ويقبل إلى ربه، فيبدل الله له الأعمال السيئة بالأعمال الحسنة، فهذا هو الذي يتوب، فهذا هو الذي يمنُّ الله عليه ويقبل توبته، ويفرح بتوبته.

فقد أخبر الله تعالى بأنه يقبلها في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [الشورى: ٢٥] وأخبر بأنه يقبل التوبة من كلِّ الذنوب؛ يقبلها من القتل ومن الشرك ومن الزنا كما في قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا هو الشرك، ﴿ **وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا هو قتل المسلم بغير الحق، ﴿ **وَلا يَزْنُونَ** ﴾[الفرقان: ٦٨] والزنا من أكبر الذنوب، ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

أخبر تعالى أن من تاب فإن الله يبدل سيئاتهم حسنات كما قال تعالى: ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ فالحاصل أن هذا الحديث دليل على فضل التوبة، هذا من حيث العموم.

أما المؤلف رحمه الله فاستدل به على إثبات صفة الفرح، فصفة الفرح ثابتة لله

. . . .

تعالى وهي من الصفات الفعلية.

والفرح في الإنسان هو سرور بمحبوب يظهر أثره في القلب بسبب شيء مناسب للإنسان ملائم لما تميل إليه نفسه، يفرح إذا حصل عليه، فيفرح إذا كسب مالاً حلالاً، ويفرح إذا شفي من مرض، ويفرح إذا رُزق بولد صالح، ويفرح إذا عوفي من بلية، ويفرح إذا سلم من أذًى أو نحو ذلك.

وهكذا أيضًا يفرح إذا تخلص من عقوبة أو نحوها، فيفرح إذا تخلص من سجن أو من ظلم ظالم، يكون هذا الفرح سروراً يغمر قلبه، ويستبشر بذلك وجهُه، ويسر ويبتهج. ولكن فرح الله تعالى ليس مثل هذا الفرح، بل هو صفة تليق به، نؤمن بها ولا نكيفها، نقول: إن الله تعالى يفرح، وإن الإنسان يفرح، وليس هذا كهذا، ليس فرح الله كفرح المخلوق، بل صفات الله تليق به، وصفات المخلوق تليق به.

فهذا الحديث دليل على إثبات صفة الفرح لله تعالى، وأنكرت ذلك المبتدعة؛ فالخوارج، والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، أنكروا مثل هذه الصفات الفعلية، وجعلوها صفات يلزم منها التشبيه ونحوه.

نقول لهم: أنتم قد أثبتم بعض الصفات أو أثبتم بعض الأسماء، فهل تقولون: إن تلك الصفات التي أثبتموها كصفاتنا؟ فإذا قالوا: لا، بل نثبتها على ما يليق بالله، قلنا: كذلك أثبتوا هذه الصفات على ما يليق بالله، فإذا قالوا: هذه الصفات نتأولها، فنتأول الفرح بمعنى إرادة الخير. قلنا: إذا

. . . .

تأولتموه بالإرادة، فأنتم تثبتون لله الإرادة. فنقول لكم: هذه الإرادة التي تثبتون كإرادتنا؟. فإن قلتم: لا، بل إرادة تليق به. قلنا: الأولى أن تقولوا: فرح يليق به ولا تؤولوه بالإرادة.



٣ ـ إثباتُ صفةِ الضحك :

[وقولُه ﷺ : «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ؛ كلاهما يدخل الجنةِ» . متفق عليه][1] .



▪ قوله : (وقوله ﷺ : «يضحك الله إلى رجلين أحدهما الآخر . . .») :

هذا الحديث فيه إثبات صفة الضحك، يقول ﷺ : «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة**»، ولا شك أن الضحك غالبًا يكون له سببٌ يثير العجب ونحوه، ففي هذا الحديث إثبات الضحك لله سبحانه كما يليق بجلاله .

وفي الحديث أيضًا أمر يثير العجب، اثنان أحدهما قتل الآخر ومع ذلك كلاهما دخل الجنة، أولهما كان مسلمًا، والآخر كان كافرًا، فتقابلا في الجهاد، فقتل الكافر المسلم ؛ استُشهد المسلم فدخل الجنة ؛ لأنه من الشهداء، ثم تاب الله على ذلك الكافر الذي قتل ذلك المسلم، ولما تاب الله عليه دخل الإسلام وقاتل في سبيل الله حتى استشهد فدخل الجنة، واجتمع مع الأول الذي قد قتله، فقال : أنا الذي قتلتك، أسلمتُ فقُتلت في سبيل الله، فكلاهما

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٢٦) في الجهاد والسير، باب : «الكافر يقتل المسلم» . ومسلم برقم (١٨٩٠) في الإمارة، باب : «بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة» عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

يدخل الجنة.

فهذا مشهد عجيب، كيف كان أحدهما قاتلاً والآخر مقتولاً، ومع ذلك دخلا جميعًا الجنة؟ هذا لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فهذا القاتل لما تاب من كفره واستباحته قتال المسلمين تاب الله عليه وقبل منه، ومَنَّ عليه فقاتل حتى قتل شهيداً في سبيل الله، وكان ذلك سببًا في دخوله الجنة مع المقتول الأول.

ففي هذا الحديث إثبات الضحك. والضحك منه ما يسمى بالقهقهة، ومنه ما يسمى بالتبسم، وسببه شيء يعجب منه السامع، إذا سمع شيئًا أعجبه أدى إلى أن يضحك، وكثرته في الإنسان قد تميتُ القلب، وقد تورث قسوته.

ولهذا ورد في بعض الأحاديث: «**إياكم وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[1] وقد عاب الله من يكثرون الضحك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ**﴾ [النجم: ٦٠]. وذكر الضحك عن الكفرة في ردّهم للآيات كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾[المؤمنون: ١٠٩ - ١١٠].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١٠) برقم (٨٠٧٦)، والترمذي في أول الزهد، وابن ماجه (٤٢١٧) وغيرهم بسند حسن عن أبي هريرة [قاله الشيخ ابن جبرين].

. . . .

فهذا ونحوه دليل على أن الضحك والاستغراق فيه من صفات الكفار، وأن المؤمن عليه ألا يكثر من الضحك، بل يكون قلبه خائفًا وجلاً، ويمنعه خوفه من الاستغراق في الضحك وذُكر أن كثيرًا من السلف ما كانوا يضحكون مخافة أن يكون ضحكهم حسابًا عليهم، وذكر أن ملكًا نزل فرآه النبي ﷺ حزينًا، فسأل جبريل، فقال له: «**مالي لم أر ميكائيل ضاحكًا؟**» فقال جبريل: «**ما ضحك منذ خلق الله النار**»[1] .

فالحاصل أن الضحك خلقة في الإنسان وجبلة سببها رؤية شيء يعجبه. ومن الناس من يضحك بلا سبب، أو يتكلف الضحك، يريد بذلك سرور نفسه، فإن كنت عند ذلك تريد أن تسرَّ صاحبك وتربط على قلبه وتقربه إليك، فقد يكون هذا مباحًا أو مفيدًا، فأما أن تضحك دائمًا وتكثر من الضحك، أو تأتي بالأسباب التي تضحك فإن ذلك مما يميت القلب.

هذا من حيث العموم، أما من حيث الخصوص، فالحديث دال على إثبات الضحك لله عز وجل، والله تعالى قد ورد وصفه بذلك في هذا الحديث، وفي الحديث الذي بعده حيث يقول: «**فيظلُّ يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٢٤) وفي الزهد برقم (٣٥٩). عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وضعفه الألباني، وهو في ضعيف الجامع الصغير رقم (٥٠٩١).

(٢) يأتي تخريجه ص ٢٣.

. . . .

وكذلك أيضًا في حديث أبي رزين العقيلي، الحديث الطويل الذي رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة وغيره، فإن فيه أن النبي ﷺ ذكر أن ربنا يضحك فقال أبو رزين: «ولا نعدم من رب يضحك خيرًا»[1] فأقره النبي ﷺ.

فنقول: إن فيه إثبات الضحك على ما يليق بالله كسائر صفاته نؤمن بها ولا نكيفها، وننزهه تعالى عن سمات المخلوقين، وعن مشابهتهم بشيء من خصائصهم أو نقول: ضحكًا يليق بجلاله، كما أن أسماءه وصفاته تليق بجلاله، هذه عقيدة المسلمين في مثل هذه الصفة وغيرها من الصفات.



---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨١) في المقدمة، وأحمد وابنه في المسند (٤/ ١١، ١٢) وفي السنة رقم (٤٥٢)، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٥٤)، وحسنه الألباني والآجري في الشريعة (٢٧٩، ٢٨٠) والدارقطني في الصفات (٣٠). والديلمي (٣٨٩٠) والطيالسي (١٠٩٢). عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه. سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٨١٠)، وله طريق أخرى أخرجها عبد الله بن أحمد في السنة رقم (١١٢٠) وفي زوائد المسند (٤/ ١٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢١١، ٢١٤).

٤ ـ إثبات صفة العَجَب :

[وقــــولُه : «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرب غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِليكُمْ أَزِلينَ قَنِطِينَ، فيظلُّ يَضحكُ يعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(١) .



قوله : (وقوله : «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره . . .») :

في هذا الحديث إثبات صفة العجب، وهو من الصفات الفعلية التي وردت بها الأدلة، كهذا الحديث، وحديث عجب ربك من الشاب ليست له صبوة(٢) . واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] الآية، وبقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وفيها قراءتان سبعيتان بفتح التاء وضمها، ولاشك أن قراءة الضم ثابتة مقروء بها، وفيها الدلالة على إثبات صفة العجب لله تعالى، كما يشاء وكما يليق به، وليس كعجب المخلوق.

---

(١) أورده بهذا اللفظ ابن كثير في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأورده بنحوه الإمام عبد الله بن أحمد في السنة برقم (١١٢٠) وضمن حديث طويل عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه. وقد سبق تخريج الجملة الأولى من الحديث وهي قوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره». ولكن ذكره جميعهم بلفظ: «ضحك ربنا»
عاصم ١/ ٢٠٧، ٢٨٥، ٢٨٦
صفة ٢٩٢
منثور ٦/ ٢٩٠

. . . .

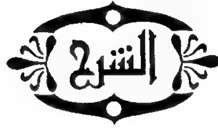
ولا يجوز إنكار الصفات التي وردت في الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة، اعتماداً على قواعد أهل الكلام، من أن ذلك يستلزم حلول الحوادث بالله تعالى، أو أنه يلزم منه تجدد شيء لم يكن متصفاً به، ونحو ذلك من التقديرات التي يفترضونها، وتكون عندهم أدلة عقلية مسلمة، يردون لأجلها النصوص الصحيحة، أو يحملونها على محامل بعيدة، ويتأولونها بصفات أخرى لا تناسبها.

فصفة العجب في المخلوق هي حدوث أمر عجيب غريب، يدهش الناظر إليه، ويعجب له، والله تعالى يعجب كما يشاء، ومنه عجبه من قنوط العباد من رحمته مع قرب غيره، أي تغييره أحوالهم من حسن إلى أحسن، أو من سيء إلى حسن، فعليهم أن يحسنوا ظنهم بربهم حتى يرحمهم فهو أرحم الراحمين.



٥ - إثبتُ صفةِ الرِّجْل والقدم:

[وقولُه ﷺ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيها وهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ؟ حتَّى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فِيها رِجْلَهُ [وفي روايةٍ: عليها قَدَمَهُ] فَيَنْزَوِي بَعْضُها إِلى بَعْضٍ، فَتَقولُ: قَطْ قَطْ». متفق عليه][1].



■ قوله: (وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟...»):

هذا الحديث ذكره المؤلف لاشتماله على صفة القدم، وقد ورد في القرآن ذكر الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]. وورد ذلك أيضًا في حديث الجمع يوم القيامة والله يجيء عباده كما يشاء ويقول: «أنا ربكم، فيقولون: لست ربنا فيكشف عن ساقه أو عن ساق، فإذا رآه المؤمنون خروا سجداً»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣٨٤) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ [الصافات: ١٨٠]. ومسلم برقم (٢٨٤٨) في الجنة، باب: «النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء». عن أنس رضي الله عنه.

(٢) ضمن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل الذي أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾. ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية».

. . . .

(والقدم) ـ في رواية ـ (والرجل) صفة ذات، نؤمن بها كما يشاء الله ونثبتها، وقد أنكرها المبتدعة، وأهل الكلام، واستعظموا إثباتها على أهل السنة. وقالوا: إن في إثباتها إثبات حدوث، وإثبات تجسيم، وإثبات تحديد، وتركيب، وتشبيه، وما أشبه ذلك من مقالاتهم المبتدعة.

ويجاب عن ذلك كله: بأنا متبعون لا مبتدعون، وبأنا نقف حيث وقفت الأدلة، ولا نتكلف التأويل، أما المبتدعة من معتزلة وأشعرية ونحوهم فسلكوا في ذلك مسالك عجيبة، في تأويل هذا الحديث.

فقال بعضهم: «يضع فيها قدمه»، يعني ما قدمه لها من الخلق، معناه: حتى يضع فيها من حَكم في القدم بأنه من أهلها، ونفوا أن يكون القدم صفة من صفات الله، وقالوا: إضافته إلى الله إضافة خلق، يضع فيها قدمه يعني خلقه القديمين، أو خلقه الذين قدم وقرر وقدر أنهم من أهلها.

وهذا تأويل بعيد، وتحريف للكلم عن ظاهره، ثم جاءتهم رواية «**رجْلَه**»، فسلكوا فيها أيضًا ذلك المسلك العجيب وقالوا: الرجْلُ: الجماعة من الناس، واستدلوا بقول العرب: جاءتنا رِجْل من جراد، يعني جماعة. فيقولون: الرجل الخَلقْ، رجْلَه: يعني خلقه أو الجماعة التي خلقهم من الناس، وجعلوا الإضافة أيضًا إضافة خلق.

وقال بعضهم: إن المراد برجله هنا: كوكب يقال له: رجل وبعضهم قال: إنه ملك من حملة العرش.

. . . .

وكل هذه تأويلات وتمحُّلات، ونحن نقول: إن الله أثبت على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام صفة الرجل وصفة القدم كما يشاء، وأثبت في هذا الحديث أنه يضعه في جهنم لتنزوي وفي هذا أيضًا دليل على سعة النار، وأنها بعيدة القعر، واسعة.

فإننا نشاهد كثرة الخلق الموجودين الآن، وكذلك من كانوا موجودين من قبل، والذين يتحقق أنهم من أهل النار، لكونهم بلغهم الإسلام فامتنعوا من اعتناقه، وأصروا على الكفر والطغيان، وماتوا أو يموتون على ذلك، فيتحقق أنهم من أهل النار وهم مئات الألوف وألوف الألوف، وورد أيضًا أن أهل النار يعظمون في النار، فإن أحدهم يعظم خلقه حتى تأخذ النار منه نصيبها، حتى قالوا: إن ضرسه مثل الجبل، وإن بدنه مثل كذا وكذا، ومع ذلك فإن جهنم لا تمتلئ بل تقول دائمًا: هل من مزيد؟، فدل على سعتها وعظمها.

فالله تعالى ذكر أنه يلقي فيها المستحقين للعذاب كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق: ٣٠]، وأخبر أنه يملؤها بحديث احتجاج الجنة والنار وهو حديث صحيح: «**احتجت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. وقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل منكما عليّ**

ملؤها»[١] .

يقول في تمام الحديث : «**فأما الجنة فلا يزال فيها فضل** - يعني أماكن فارغة - **فينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم إياها بلا عمل، وأما النار فيبقى فيها فضل** - فتأبى حكمته أن يدخل فيها قومًا بلا ذنب - **فيضع فيها رجله أو قدمه فينزوي بعضها إلى بعض»**[٢] .

فقد أفاد هذا الحديث أن الله تعالى عندما يضع فيها قدمه، أو يضع عليها رجله، أنه ينزوي بعضها إلى بعض، فما كان فيها من فضل، ينزوي ولا يبقى فيها متسع، وأنها يظهر لها قطقطة، والقطقطة هي آثار الامتلاء. ففي بعض ألفاظ الحديث: قَطْ قَطْ. بالإسكان، ورواها بعضهم بالتحريك قَط قَط. ونون بعضهم قطٍ قطٍ، وضم بعضهم : قطُ قطُ. والمعنى تصويتها عندما تَمتلئ، فعادة الشيء إذا امتلأ يظهر له قطقطة، وأصوات قوية تسمع من آثار الامتلاء.

الحاصل أنه ذكر أن الله يضع فيها رجله أو قدمه كما يشاء فدل على إثبات الصفة وأنها صفة ثابتة كما يشاء الله .



---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٩) في التوحيد، باب: «ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾». ومسلم برقم (٢٨٤٦) في الجنة ونعيمها، باب: «النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذه الزيادة في صحيح مسلم بهذا المعنى برقم (٢٨٤٦) و(٢٨٤٧) و(٢٨٤٨).

٦ ـ إثباتُ صفةِ النداء والصَّوت:

[وقـولُه: «يَقُولُ تَعَالى يَا آدَمُ! فَيَقـولُ: لَبَّـيْك وسَعْدَيْـكَ. فَيُنادي بصَوْتٍ: إنَّ اللهَ يأْمُـرُكَ أَنْ تُخْـرِجَ مِن ذُرِّيَّتِـك بَعْثًـا إِلى النَّارِ». مـتـفق عليـه[١]. وقوله: «مـا منكُمْ مِن أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ولَيْس بينَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»[٢]].



▪ قـوله: (وقوله: «يقـول الله تعالى: يا آدم! فيـقول: لبَّيك وسعديك. فينادي بصوت: ...»):

في هذا الحـديث إثبات صفـة النداء والصوت وفيـه بيان كثـرة من يدخل النار، ففي يوم القيامة ينادي الله تعالى آدم فيسمعه فيلبي دعوته، فيناديه الله تعالى بصوت مسموع، ويأمره بأن يخرج بعثًا من ذريته إلى النار، فيقول: من كم يارب؟ فيقول: من كل ألف تسعـمائة وتسعة وتسعون فهـذا نصيب النار وواحد للجنة.

والشاهد من الحديث أن فيه إثبات صفة الكلام.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٤١) في التفسير، باب: «﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ ﴾». ومسلم برقم (٢٢٢) في الإيمان، باب: «قـوله: «يقـول الله لآدم أخـرج بعث النار...» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩) في الرقاق، باب: «من نوقش الحساب عذّب». ومسلم برقم (١٠١٦) [٦٧] في الزكاة، باب: «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

. . . .

أولاً: قوله: «**يقول الله**»، والقول هو الكلام.

ثانيًا: قوله: «**يا آدم**» «يا» حرف نداء، يا آدم: كلام فصيح مفهوم، يسمعه آدم، فيدل ذلك على أن كلام الله تعالى مسموع يلبيه آدم بقوله: لبيك وسعديك ومعنى لبيك: الإجابة ولزوم الطاعة، أي أنا ملازم لإجابتك وطاعتك مرة بعد مرة، وملازم لما يسبب الإسعاد منك.

ثالثًا: قوله: «**فينادي بصوت**» هذا هو الشاهد.

رابعًا: ذكر الكلام الذي تكلم الله تعالى به وأسمعه آدم وهو قوله: «**يآدم، إن الله يأمرك بأن تخرج من أمتك بعثًا إلى النار، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**»، كل هذا يتكلم به الرب سبحانه وتعالى ويسمعه آدم، أفلا يدل ذلك على أن الله تعالى متكلم، ويتكلم إذا شاء، وأن كلام الله مسموع، أفلا يدل على أن كلام الله تعالى بصوت كما يشاء؟.

أفلا يدل على إثبات النداء؟ والنداء لابد أن يكون بصوت، أفلا يدل على إثبات صفة الكلام؟ حيث ذكره بهذه الكلمات، أفلا يدل على إثبات القول؟ والقول لابد أنه كلام.

والمبتدعة من المعتزلة ونحوهم أنكروا صفة الكلام، وقالوا: إن الله لا يتكلم ولن يتكلم؛ لأن الكلام من صفات المحدثات والمركبات، ولما جاء دور القرآن وقفوا حيارى، فلم يجدوا إلا أن يقولوا: القرآن مخلوق كسائر المخلوقات، فأنكروا هذه الدلالات، وأنكروا الآيات التي فيها التصريح بأن الله

. . . .

يقول، وأنه يتكلم، وأنه ينادي، أو تمحّلوا في تأويلها بما لا يقبله العقل.

جاءت الأشاعرة وهم أيضًا من أهل الكلام، وقد قاربوهم في نفي كثير من الصفات، كصفة العلو ونحوها فأثبتوا صفة الكلام ولكن ظلوا حيارى، لا إلى أهل السُنة ولا إلى المعتزلة؛ فقالوا: إن كلام الله نفسي لا بحرف ولا صوت، فزعموا أن الكلام هو ما يقوم بذات الله لا أنه هذا المعنى البارز والحروف والأصوات.

قوله: «**يا آدم**»: يعني خص آدم لأنه أبو البشر، والإنس كلهم من ذريته هم بنو آدم، كأنه أخبر بأن من ذريته من هو من أهل الجنة ومن هو من أهل النار، وأن الأكثرية من أهل النار، وليس معناه أنه هو الذي يدخل هؤلاء الجنة باختياره وهؤلاء النار باختياره، بل المراد إخباره بقدر من يدخل الجنة ومن يدخل النار، لهذا قال: «**من كم يارب؟**»، يعني من كم يدخل الجنة؟، فأخبره بقدر من يدخلها من الألف، وأن الذي يدخلها من الألف واحد فقط، وهذا يدل على أن هذه الجنة لا ينالها إلا القلة القليلة، وأن الأكثرية للنار، والعياذ بالله، لذلك يقول ابن القيم في نونيته:

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... من ألف إلا واحد لا اثنان

وقد حزن الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا هذا الحديث وقالوا: أينا ذلك الواحد؟ فأخبرهم النبي ﷺ بكثرة الأمم والشعوب غيرهم وقال: «**ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود**، أو بالعكس، **كالشعرة**

. . . .

السوداء في جلد الثور الأبيض»(١) .

فأمة الإجابة ـ وهذا حقيقة ومشاهد ـ وهم الذين حققوا الإسلام في أنفسهم قد لا يمثلون واحدًا بالألف، ويمكن أن يكونوا واحدًا بالألف بالنظر إلى زماننا هذا، وهناك أزمنة يطغى فيها الكفر على الإيمان، وهناك أمم انقرضت كلها على العصيان، كأمم الأنبياء السابقين، حيث أخبر النبي عليه السلام بأنه لما كشف له رأى النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد(٢) .

وقص الله علينا بعض أخبار الأنبياء، وأن الذين آمنوا بهم قليل﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود: ٤٠] فهذا يدل على أن الأكثرية هم أهل العذاب والعياذ بالله. ولعل السبب في ذلك أن الإيمان في نظرهم يحرمهم من شهواتهم المألوفة، هذا في نظرهم وتصورهم، وإلا فلو حققوا لعلموا أن تلك الشهوات ولو كانت مستلذة طبعًا، فإنها ضارة في النهاية طبعًا وشرعًا.

وبكل حال فإن الدلالة واضحة من الحديث وهي إثبات صفة النداء والصوت هذا هو القصد من إيراده.

---

(١) جزء من الحديث السابق أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٠) في الرقاق، باب: «قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** ﴾. ومسلم برقم (٢٢٢) في الإيمان، باب: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار. . .».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٧٠٥) كتاب الطب، باب من اكتوى أوكوى. ومسلم برقم (٢٢٠) كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

. . . .

▪ قوله: (وقوله: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»):

وتمامه: «**فينظر أيمن فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**». الشاهد منه ذكر التكليم، وأن الرب تعالى يكلم عباده كفاحًا منه إلى الواحد بلا واسطة مترجم، والترجمان هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة، يترجمه: يعني يعبر به؛ يحفظ لغتين أو أكثر، فيكلم هذا بلغته ويأخذ كلامه، ثم يعبر به إلى الآخر باللغة التي يفهمها كما هو معروف.

الحاصل أن الحديث فيه إثبات صفة الكلام، يعني ليس منكم أي شخص إلا ولابد أن يكلمه ربه، والربُّ تعالى قادر على أن يكلم عباده في لحظة واحدة، كما يسمع دعاءهم في لحظة واحدة ويميز هذا عن هذا، فإنه تعالى يسمع كلام خلقه، ولا تشتبه عليه اللغات، ولا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتفنن المسئولات، فهو قادر على أن يكلم ألوف الألوف في لحظة واحدة يكلم كلاً منهم بما يفهمه ويحاضره ويسأله ويناقشه كما يشاء، ولا يشغله شأن عن شأن.

فقوله: «**سيكلمه**» فيه إثبات صفة الكلام، والكلام هو ما يعبر به ويفهمه السامع أو المخاطب الذي يفهم تلك اللغة وقوله: «**ليس بينه وبينه ترجمان**» يفيد أنه كلام واضح يفهمه، وأن الترجمان والمترجم هو الذي ينقل الكلام من

. . . .

لغة إلى لغة، فيدل على أنه لا يحتاج إلى مترجم، بل يفهم خلقه كلامه.

فاتضح لنا من هذا الحديث والذي قبله إثبات صفة الكلام لله تعالى، والرد على الطائفتين؛ على المعتزلة الذين قالوا: كلام الله مخلوق أو قالوا: لا يوصف الله بالكلام، وعلى الأشاعرة الذين قالوا: إن كلام الله معنى واحد، وأنه ما يقوم بنفسه، وأن الأصوات وكذلك الحروف والعبارات إنما هي معانٍ لكلامه وتعبيرات، وأن كلام الله معنى واحد، إن عُبر بالعربية فهو قرآن، وإنْ عُبر بالعبرية فهو توراة، وإن عبر بالسريانية فهو إنجيل هكذا يقولون.

وهذا كله تخبط، وذلك لأنه يوجد التفاوت بين معاني القرآن وبين معاني الكتب الأخرى، كالتوراة والإنجيل والزبور ونحوها، ولكون الجميع يطلق عليه أنه كلام الله، ولكون الله تعالى صرح بأنه متكلم، وبأن كلامه ليس محصوراً ـ على حد تعبيرهم ـ في لغة أو جهة معينة، فعلى كلٍ فالأدلة أكثر من أن تحصى في إثبات صفة الكلام كما يعتقده المسلمون.

فيثبت المسلم على هذه العقيدة وينصح بعدم قراءة شبهاتهم مخافة أن تتمكن شبهة من قلبه لا يستطيع ردَّها؛ بل يقتصر على الكتب التي تثبت أو تستدل بالأدلة ولا تتكلف في صرف ولا رد شيء من تلك الأدلة.



٧ ـ إثباتُ صفةِ العلو والفوقية:

[وقولُه في رُقْيَةِ المريضِ: «رَبَّنا اللهَ الَّذي في السَّماءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ في السَّماءِ والأرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ في السَّماءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرْضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنَا وخَطَايَانا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلى هذا الوَجعِ؛ [فَيَبْرَأَ]»[1] [حديث حسن]، رواه أبو داود [وغيره]. وقَوْلُهُ: «أَلا تَأْمَنُوني وأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2]. [حديثٌ صحيحٌ]. وقَوْلُهُ: «والعَرْشُ فَوْقَ الماءُ، والله فَوْقَ العَرْشِ، وهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْه»[3]. [حديث حسنْ، رواهُ أبو داودَ وغَيْرُهُ]. وقَوْلُهُ لِلجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟». قالَتْ: في السَّمَاءِ. قال: «مَنْ أنا؟». قالَتْ: أَنْتَ رَسولُ اللهِ. قالَ: أَعْتِقْهَا فإِنَّها مُؤْمِنَةٌ»[4]. رواه مسلم].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٩٢) في الطب. وأحمد في المسند (٦/ ٢٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٣٥١) في المغازي، باب: «بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، ومسلم برقم (١٠٦٤) في الزكاة، باب: «باب ذكر الخوارج وصفاتهم» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد برقم (١٤٩) و(١٥٠) و (٥٩٤) واللفظ له.، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٥١)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢٧٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٦). والدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٦، ٢٧. وفي الرد على المريسي ص ٧٣، ٩٠، ١٠٥. والطبراني في الكبير (٨٩٨٧). عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل الأسدي عن عبد الله بن مسعود. وصححه الذهبي في العلو كما في مختصره ص ١٠٣، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» ص ١٠٠.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٥٣٧) في المساجد، باب: «تحريم الكلام في الصلاة» عن معاوية ابن الحكم رضي الله عنه.

. . . .



يعتقد المسلمون ويصدقون بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، ومن جملة ذلك إخباره أنه تعالى في السماء قال تعالى: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا** ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] فذكر تعالى أنه في السماء، والسماء اسم لكل ما علا وارتفع، فيعتقد المسلمون أن الله هو العلي الأعلى، وأنه عالٍ على خلقه، وأن له جميع أنواع العلو؛ علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر.

ويحملون قوله: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ** ﴾ على أحد محملين؛ الأول: أن تكون في بمعنى على: «في السماء» يعني «علي السماء».

الثاني: أن تكون السماء بمعنى الارتفاع والسمو، فقوله: في السماء أي في العلو وفي الفوقية، فهو العالي فوق خلقه تعالى.

فدليل هذا من القرآن هاتان الآيتان. ودليله من السنة هذه الأحاديث:

▪ الحديث الأول: قوله ﷺ في رقية المريض: «**ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع**». حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

. . . .

وفي أول الحديث يقول عليه السلام: «**إذا مرض أحدكم أو قريب أحدكم أو أخوه فليقل: ربنا الله الذي في السماء**.. إلى آخره».

وفي هذا الحديث أمور:

أولاً: وصف النبي ﷺ ربه بالربوبية «**ربنا**» يعني خالقنا ومالكنا.

ثانيًا: وصفه بأنه في السماء يعني في العُلو.

ثالثًا: وصفه بالتقديس «**تقدس اسمك**» أي تنزه وتقدس عن كل نقص وعيب.

رابعًا: قوله: «**أمرك في السماء والأرض**» يعني أمرك نافذ في السماء على من في السموات وعلى من في الأرض.

خامسًا: قوله: «**كمارحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض**» لأن الله خلق رحمته وجعلها في السماء مائة جزء، وأنزل منها جزءاً يتراحم به العباد والبهائم فطلب أن يجعل من رحمته في الأرض ما يخفف به على عباده ولذلك قال: «**فاجعل رحمتك في الأرض**».

سادسًا: قوله: «**اغفر لنا حوبنا وخطايانا**» يعني ما أصابنا من مرض أو نحوه، فإنه بذنوبنا، و «**حوبنا**» أي ذنوبنا وخطايانا.

سابعًا: قوله: «**أنت رب الطيبين**» الربوبية من الله عامة لكل أحد، ولكن هاهنا ربوبية خاصة للطيبين وهم الأتقياء.

. . . .

ثامنًا: قوله: «**أنزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع**» يعني على هذا المرض أو هذا الوباء ونحوه.

والشاهد قوله: «**ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك**». ففيه دليل واضح على أن الله تعالى في السماء.

▪ **الحديث الثاني**: قوله: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**» لما قسم عليه الصلاة والسلام مرة مالاً، وأعطاه بعض الأكابر ليقسموه على قومهم، جاءه إنسان وقال له: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فاعترض عليه وانتقده، فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**» فالله تعالى الذي في السماء ائتمنني وجعلني أمينًا، أفلا تأمنوني أنتم وقد أمنني الله تعالى، فالشاهد أنه أخبر بأنه أمين من في السماء، وأنه يأتيه خبر السماء يعني الخبر من الله تعالى، يأتيه في الصباح والمساء بواسطة الرسول الملكي.

▪ **أما الحديث الثالث**: فهو قول النبي ﷺ: «**والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش**» وفي رواية: «**والعرش فوق الماء، والله فوق العرش**».

لما ذكر ارتفاع السموات، وغلظ كل سماء، وأن بيننا وبين السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وأن غلظ السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وأن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة سنة، وأن ارتفاع السماء الثانية عن الدنيا وكثف كل سماء هكذا ـ قال بعد ذلك: وفوق السماء السابعة بحر، ما بين أعلاه إلى

. . . .

أسفله كما بين السماء والأرض، ثم ذكر أن فوق ذلك حملة العرش، وأن العرش فوق ظهورهم قد حملوه، والله تعالى كما يشاء، وكما يليق به فوق العرش، فوق ذلك كله.

ومع ذلك يعلم ما أنتم عليه، لا يخفى عليه شيء في الأرض، فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، فيجب أن نستحضر أنه تعالى هو العلي بجميع أنواع العلو، ومع ذلك له الإطلاع على خلقه، وله المراقبة عليهم، بحيث إنه لا تخفى عليه منهم خافية، ولهذا قال: «**وهو يعلم ما أنتم عليه**»، يعني لا تحسبوا أن بينكم وبين الله هذه المسافات، وأنه يخفى عليه شيء من أموركم، بل إنه قريب مجيب مطلع علي أعمال العباد وعلى أحوالهم، وهو تعالى فوقهم بجميع أنواع الفوقية.

ونأخذ من مجمل هذه الأدلة: أن وصف الله تعالى بصفات العلو من باب التعظيم، فهو تعالى يُعظَّم بوصفه بالعلو، وبوصفه بأنه في السماء، أي في العلو، وبوصفه بالفوقية بجيمع أنواعها، وبوصفه بالارتفاع ونحو ذلك؛ فكل هذا تعظيم، وإذا كان الله هو المستحق للتعظيم، فإن هذا من أعظم أنواع التعظيم.

ثم نأخذ أيضًا أنه تعالى إذا كان هو المستحق لأنواع التعظيم، فإن علينا أن نعظمه، ومن تعظيمه تعالى عبادته حق العبادة، وتخصيصه بذلك دون أن يُشرك معه غيره، ودون أن يصرف شيءٌ من حقه لغيره، فإن ذلك تنديد وشرك ونقص في التعظيم.

. . . .

ونأخذ من ذلك أنه إذا كانت هذه عظمته، وجب أن يُخاف عذابه، فإنه هو العظيم القدير، الذي هذه عظمته فيما أخبر به عن نفسه أو أخبر به نبيه، فمن عصاه أو عتا عن أمره، انتقم منه وعاقبه بما يشاء من أليم العقاب، فيوجب ذلك الخوف من عقابه، والرجاء لثوابه، فإن كل من عرف كمال صفات ربه وعرف عظمته وجلاله وكبرياءه، أوجب له:

أولاً: العبادة؛ بأن يعبده ويخصه بجميع أنواع العبادة.

ثانيًا: الرجاء؛ فيعلق آماله بربه ويرجو منه الثواب وحسن الجزاء.

ثالثًا: الخوف؛ وهو أن يخاف بطشه وعقوبته.

ومن جمع هذه الثلاثة حصلت له الاستقامة؛ من جمع العبادة التي تحمله عليها محبة المعبود وتعظيمه، وكذلك أضاف إليها الخوف من عقابه الذي عرف أسبابه، وعرف أنه المخوفُ وحده، وكذلك الرجاء والذي هو الأمل في ثواب الله ومعرفته أنه أهل لأن يرجى وتعلق عليه الآمال، وأهل لأن يرحم وأن يمنح ويعطى، فإذا كان كذلك فإنه يعبده، فمن أحبه تعالى عَبَدَه، ومن رجاه أطاعه ودعاه، وكذلك من خافه توقى عقوبته بالابتعاد عن أسباب سخطه وعقابه، فهذا ونحوه من الأدلة على أنه سبحانه وتعالى يرضى عن عبده، وأنه طلب من عباده أنه يعبدوه، حيث وصف نفسه بصفات العظمة.

ومن صفات العظمة إخباره بأنه فوقهم، وبأنه العلي الأعلى عليهم بجميع أنواع العلو.

. . . .

■ **الحـديث الرابع**: في قصة الجارية، وهو أن رجلاً كان عليه عتق رقبة مؤمنة، فجاء بجارية لم يتحقق من إيمانها فسألها واختبرها النبي ﷺ فقال لها: «**أين الله**» فأشارت بيدها وقالت: في السماء، يعني فوقنا وفوق العباد، فقال: «**من أنا**» قالت: أنت رسول الله، فقال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**». فدل على أن من تمام الإيمان الشهادة لله تعالى بأنه في السماء وفوق العباد وبأن له الفوقية التامة، والشهادة لمحمد ﷺ بأنه مرسل من ربه، وبأنه رسول الله، فإذا كان العبد كذلك فإنه مؤمن يجوز عتقه للكفارة.

ويدل ذلك على أن عقيدة أهل الإيمان تنص على الفوقية، وعلى وصف الله تعالى بأنه فوق عباده، فمن خالف في ذلك نقص إيمانه، من أنكر فوقية الله على عباده نقص إيمانه، أو اختل إيمانه، حيث خالف مقتضى هذا الحديث.

فبالجملة: المسلمون والمؤمنون يعتقدون بمدلول هذه النصوص، ولا يتكلفون ما يخالف ذلك، وأما من زاغ وانتكست فطرته، فإنه يذهب في تأويلها مذاهب بعيدة لا يدل عليها عقل ولا نقل.



٨ ـ إثباتُ صفةِ المعية :

[وقولُه : «أَفضلُ الإيمان أَنْ تعلَم أَنَّ اللهَ معَكَ حيثما كُنْتَ»(١) . حديثٌ حسنٌ. وقَوْلُهُ: «إذا قَامَ أَحَدُكُمْ إلى الصَّلاةِ، فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولا عَنْ يَمِينِه، فإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولكِنْ عَنْ يَسَارِه، أَو تحْتَ قَدَمِه»(٢) متَّفقٌ عليهِ.

وقَوْلُهُ ﷺ : «اللهُمَّ رَبَّ السَّموات السَّبْعِ والأرضِ وربَّ العَرْشِ العَظيمِ، رَبَّنَا وربَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوى، مُنْزِلَ التَّوْراةِ والإنْجيلِ والقُرْآنَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ومِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِها، أَنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأَغْنِني مِنَ الفَقْرِ»(٣) [رواه مسلم].

. . . .

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع البحرين برقم (٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٥): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال: تفرد به عثمان بن كثير ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح. وهو في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٥) في الصلاة، باب: «حك البزاق باليد من المسجد». ومسلم برقم (٥٥١) في المساجد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٦). ومسلم برقم (٥٤٧). عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٨). ومسلم برقم (٥٤٨) و (٥٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٩) ومسلم برقم (٥٤٨) - ٥٢. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧١٣) في الذكر والدعاء، باب: «ما يقول عند النوم وأخذ المضجع» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحابَةُ أَصْواتَهُمْ بالذِّكْرِ: «أَيُّها النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائِبًا، إِنَّما تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصيرًا قَريبًا، إنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]. مُتَّفَقٌ عليهِ].

الشرح

▪ الحديث الأول: قوله ﷺ: «**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**» المعنى: أن تستحضر أن الله يراك، وأنه مراقب لك، ومطلع على أعمالك، ويسمع كلامك، ويرى مكانك؛ لأن الله تعالى مع عباده بعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١].

فإذا استحضر العبد أن الله معه حيثما كان، فإنه يراقب الله بحيث إنه لا يتجرأ على معصيته، ولا يتجرأ على ترك طاعته، وتحاسبه نفسه: كيف أعصيه وكيف أخالفه وهو يراني ويرى مكاني، ولا يخفى عليه شيء من شأني؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦١٠) في القدر، باب: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ومسلم برقم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء، باب: «استحباب خفض الصوت بالذكر». عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

وكيف أخالف أمره، وكيف أرتكب نهيه، وأنا في قبضته وتحت تصرفه وتقديره؟ كيف أخالف أمره وكيف أرتكب نهيه، وهو المطلع على الضمائر، ويعلم السرائر، ولا يخفى عليه من عباده خافية؟ وهذا معنى كونه أفضل الإيمان؛ يعني أفضل خصال الإيمان؛ لأن العبد إذا آمن بمعية الله وآمن بقرب ربه، وآمن باطلاعه على عباده استفاد من هذا الإيمان استفادة كبيرة، وهي انزجاره عن المحرمات، وابتعاده عن المكروهات، ومحافظته على الطاعات.

إذا آمن بذلك وانضاف إلى إيمانه بذلك أيضًا: إيمانه بقدرة الله عليه، وأنه تحت سيطرته، وأنه لا يقدر على التخلص من عذابه، وانضاف إلى ذلك أيضًا إيمانه بأنه مملوك، إذا آمنت بأنك مملوك لله الذي هو ربك ومليكك، وأنك من جملة مخلوقاته الذين هو المتصرف فيهم، وانضاف إلى ذلك أيضًا: إيمانك بأنه الذي يعاقب من عصاه، وينتقم ممن خالف أمره، وأنه شديد البطش ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ [البروج: ١٢]، ﴿**إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢].

فإذا آمن بذلك كله، فإنه يستفيد بالمحافظة على العبادات وأدائها، والبعد عن المحرمات، فلا جرم صار هذا هو أفضل خصال الإيمان.

▪ الحديث الثاني: قوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصقن قبل وجهه، ولا عن يمينه**...الحديث». يعني أن تؤمن بأن الله أمامك ومعك، لا يخفى عليه منك خافية، هذا معنى نهيه أن يبصق أمامه أو أن يبصق عن يمينه؛ لأن عليه أن يمثل ربه أمامه، وأن يستحضر أن ربه معه، فلا يبصق قبل

. . . .

وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه اليسرى، وذلك تنزيه لما أمامه وتنزيه لما عن يمينه الذي هو ملك الحسنات.

وعلى كل، فإن العبد متى استحضر أن الله معه استفاد فائدة عظيمة.

▪ الحديث الثالث: قوله ﷺ: «**اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العـرش العظيم**... الحديث». على العبد أن يكثر الذكر بهذا الدعاء الذي تضمنه هذا الحديث، فإنه اشتمل على تعظيم وتقديس لله تعالى.

إذا قلت: اللهم ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم، ربُّنا ورب كل شيء -كما في رواية- فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر.

تكثر أولاً الدعاء بما في هذا الحديث، وتتأمل ثانيًا مدلولاته وتتعرف معانيه.

فإن الربوبية معناها كمال الملك، فإذا كان الله هو رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء ومعنى الرب: المالك المتصرف الذي بيده وتحت تصرفه أزمّة كل شيء- فالرب يذل له الخلق، فنكون أذلاء لطاعته، لا نخرج عن قبضته ولا نعصيه، هذا موجب كونه ربّاً ورب العرش العظيم ورب جميع المخلوقات، موجب إيماننا واعترافنا بربوبيته.

كذلك أيضًا إيماننا بأنه فالق الحب والنوى، الحب والنوى معروف، يعني هو الذي فلق الحبة كحبة البر ونحوه وجعل فيها هذا الفَلْق الذي في وسطها،

. . . .

فلو اجتمع الخلق كلهم ما خلقوا حبة برّ تزرع وتنبت إذا سقيت، ويكون فيها هذا الفلق الذي في وسطها، وكذلك النوى الذي هو نوى التمر، فالحبة التي تكون في وسط التمرة، الخلق كلهم أيضًا لا يقدرون على أن يخلقوا مثل هذه النواة التي فيها هذا الفلق التي إذا جعلت في التراب وسقيت، نبتت نخلة، كما هو معروف، فلا يقدرون أن يفلقوا ما فيها، ولا أن يخلقوها على هذه الهيئة، فالله هو فالق الحب والنوى.

ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كتبه التي أنزلها على أنبيائه وضمنها شرائعه، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، وهو الظاهر العالي فوق كل شيء، وهو الباطن القريب دون كل شيء، الذي لا يحول ولا يخفى عليه شيء، إذا آمن العبد بذلك كله، فإن الله تعالى يستجيب دعوته، ولأجل ذلك ختم هذا الدعاء بقوله: «**اقض عنا الدين وأغننا من الفقر**» فعلى كلٍ هذا من جملة الأحاديث التي تضمنت أشياء من صفات الله يؤمن العبد بها علّى ماهيتها ولا يكيفها.

▪ الحديث الرابع: قوله ﷺ: «**أيها الناس! أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا**... الحديث». وهذا من الأحاديث التي فيها شيء من الصفات، وهي صفة القرب لله تعالى، وصفة القرب قد دل عليها القرآن كقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ**﴾ [الأعراف: ٧] وقوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦] وقوله تعالى:

. . . .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ومن أسمائه تعالى: القريب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠].

فالقريب: من أسمائه، وكونه قريبًا: من صفاته، فهو قريبٌ من عباده، وإذا استحضر العبد أن الله تعالى قريبٌ فإنه يراقبه، فإنه يخافه ويطيعه، إذا علم أن الله يراه وأن الله يقدر عليه، وأنه لا يستطيع الخروج عن ملكه، ولا يستطيع التخلص من عذابه، حملته هذه المعرفة على أن يطيعه في كل ما أمره به، وأن يبتعد عن كل ما حرمه عليه، هذه نتيجة هذه المعرفة.

فمن أجل ذلك وردت الأدلة في الإخبار بأن الله تعالى قريب، والإخبار بأنه ليس بغائب، وبأنه مُطَّلع على العباد، يراهم ويسمع سرهم ونجواهم، فإذا استحضر العبد ذلك كله أطاعه حق الطاعة.

فإذا استحضر أن الله قريب من عباده وهو أقرب إلى أحدهم من حبل الوريد، واستحضر أن الله يراه، كما في قوله: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] ولو في الظُلَم، ولو في الأماكن البعيدة الخفية، واستحضر أن الله يسمع السر وأخفى من السر، واستحضر أن الله ليس بغائب كما في قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧] فإن هذا الاستحضار يفيده في عدم الإقدام على المعصية، يفيده في المراقبة، يفيده في الطواعية، وهذا هو السر في كونه تعالي أخبر العباد بهذا.

. . . .

يجب أن نؤمن بأن هذا القرب حقيقي ولكن لا نكيفه، فنقول: الله تعالى قريب كما يشاء، بحيث إنه ليس ببعيد، وبحيث إنه لا يستعصي عليه شيء، وبأنه يرى ويطلع على العباد، وبأنه ينتقم ويعاقب العصاة، وبأنه يثيب المطيعين ويجازيهم.

وذلك كله من معرفتنا بقربه وبعدم غيبته وبعده عن عباده، ولا نمثل هذا القرب بأنه كقرب أحدنا من صاحبه أو نحو ذلك، بل نقول: هو قرب كما يشاء الله، لا ندري ما حقيقته، إلا أنه أخبر بما يدل على هذا القرب حتى من حبل الوريد، أي من العروق التي في العنق ونحوها.

في هذا الحديث أن الصحابة كانوا مرة سائرين وكانوا إذا علَوا مكانًا مرتفعًا رفعوا أصواتهم بالتكبير، وإذا هبطوا واديًا أو منخفضًا رفعوا أصواتهم بالتسبيح، فأمرهم النبي ﷺ ألا يرفعوا أصواتهم؛ أن يكبروا بدون رفع الصوت وأن يسبحوا بدون رفع الصوت، وقال لهم: «**اربعوا على أنفسكم**» ارفقوا بأنفسكم، لا تكلفوا أنفسكم رفع الصوت ولا تشقوا على أنفسكم، «**فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا**» لا تدعون من هو موصوف بالصمم الذي هو عدم السمع، ولا بالغيبة التي هي البعد وعدم الحضور، بل الذي تدعونه سميع قريب، سميع ليس بأصم، قريب ليس بغائب.

إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، لا شيء في نظر أحدهم أقرب من عنق راحلته، يعني رقبتها، فإذا استحضر العبد أن ربه قريبٌ

. . . .

منه أقرب من هذا، بل أقرب من عنقه هو كما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]فإنه لا حاجة إلى أن يرفع الصوت ويشق على نفسه، لعلمه بأن ربه يسمعه إن جهر وإن أسر، هذا هو المراد بهذا الحديث.



٩ ـ إثباتُ رؤيةِ المؤمنين ربَّهم يومَ القيامَةِ:

[قولُهُ: «إنّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضامُونَ في رُؤيَتِهِ، فإنِ اسْتَطَعْتُمْ ألا تُغْلَبُوا عَلى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِها؛ فافْعَلُوا»[1] . مُتَّفَقٌ عليهِ].



▪ قوله: (قوله: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر...» الحديث**):

هذا الحديث يتعلق بإثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة يقول ﷺ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»** وفي بعض الروايات أنه أقسم على هذه الرؤية، وفي هذا دليل على إثبات هذه الرؤية وأحقيتها.

ومعنى **«كما ترون القمر ليلة البدر»**: يعني رؤية حقيقية كرؤيتكم لهذا القمر، وليس معناه أن الله مشبَّه بالقمر أو بشيء من مخلوقاته، شبَّه هنا الرؤية بالرؤية، ولم يشبه المرئي بالمرئي بل المراد تحقيق الرؤية وثبوتها، الله تعالى

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة، باب: «فضل صلاة العصر». ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها». عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

أخبر بأن العباد يرونه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وأخبر بأن الكفار لا يرونه، في قوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وفُسر النظر برؤية الله لقوله: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] أي إلى ربهم، فإذن الحديث أثبت الرؤية ثبوتًا صحيحًا، وهذا الحديث في الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وروي نحوه عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد وغيرهم من الصحابة، ففيه إثبات الرؤية.

ومن ذلك أيضًا: حديث عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: **«جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**[1].

فدل على أنه ليس بينهم وبين أن يروا ربهم إلا أن يرفع رداء الكبرياء عن وجهه فينظروا إليه.

وقد ورد ذلك أيضًا في الدعاء النبوي المأثور الذي قال فيه النبي ﷺ: **«وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٤) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾». ومسلم برقم (١٨٠) في الإيمان، باب: «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى». عن عبد الله بن قيس عن أبيه رضي الله عنهما.

. . . .

ولا فتنة مضلة»[١]. وذلك كله يدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة كما يشاءون.

وأما قوله: «**فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» هاتان الصلاتان هما صلاة العصر وصلاة الفجر، يقول: حافظوا على هاتين الصلاتين، فإن لهما أهمية، وقد روي أن من حافظ عليهما رأى ربه بكرة وعشية وأن أعلى أهل الجنة من ينظر إلى ربه بكرة وعشية، أي بكرة في وقت الفجر وعشيًا في وقت العصر.

فمن حافظ على هاتين الصلاتين هذه المحافظة اطردت محافظته على بقيتهما، وذلك لأنهما يقعان في وقت النوم، صلاة الفجر تقع غالبًا في وقت الراحة والنوم، وصلاة العصر أيضًا قد تقع في وقت الراحة بعد الأعمال والإرهاق.

فإذا حافظ عليهما فبطريق الأولى أن يحافظ على غيرهما، فدل على أن المحافظة على الصلوات من أسباب رؤية الله؛ وذلك لأن المحافظة على الصلاة، تحمل على بقية الشرائع؛ لأن الصلاة تستجلب غيرها من أنواع العبادة، وتحمل أيضًا على البعد عن المحرمات؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩١)، والنسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥) في السهو، وصححه الألباني في صحيح النسائي رقم (١٢٣٧).

. . . .

فمن حافظ على بعض الصلوات حافظ على بقيتها، فإن الصلوات متماسكة، لا يمكن أن يأتي بالبعض دون البعض لاعتقاده بأن الجميع فريضة من الله، وإذا أتى بهذه الصلوات استدعى ذلك أن يأتي ببقية الأركان؛ كالصوم، والزكاة، والحج، وما أشبهه. وإذا حافظ على هذه الأركان عرف أن ربه قد حرم عليه المحرمات فيتركها أيضًا لله تعالى.

فإذا أتى العبد بالواجبات وانزجر عن المحرمات كان من ثوابه دخوله الجنة، وكان من ثوابه أيضًا أن الله تعالى يتجلى له كما يتجلى لعباده في دار كرامته.



موقف أهل السنة والجماعة من الأحاديث التي فيها إثبات الصفات لله تعالى

[... إلى أَمْثال هذه الأحاديثِ الَّتي يُخْبِرُ فيها رَسولُ اللهِ ﷺ عنْ رَبِّهِ بِما يُخْبِرُ بهِ؛ فإنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السنَّةِ والجَماعةِ يُؤمِنونَ بذلك؛ كما يُؤمِنونَ بما أخْبَرَ اللهُ بِهِ في كِتابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومِنْ غيْرِ تَكْييفٍ ولا تَمْثيلٍ].



▪ قوله: **(إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يُخبر به...)**:

عرفنا أن مذهب أهل السنة والجماعة في باب العقيدة يتوقف على النقل، فالنقل مقدّم عل العقل، والنقل هو النصوص المنقولة التي نقلت نقلاً صحيحًا يقينيًا، وردت في كتاب الله تعالى أو في أحاديث رسول الله ﷺ ، فيقف أهل السنة والجماعة عندها ويقولون بموجبها، ويعتقدون مدلولها، ويقدمون القول بها على ما تقتضيه العقول لأن العقل مظنة للتغير والانقلاب.

فلا تأتي النصوص الصحيحة بشيء يخالف العقل الصريح السليم أصلاً، فأما الذين قدموا مقتضيات العقول على الأحاديث الصحيحة والنقول السليمة، فإنهم وقعوا في التناقض؛ وذلك لأن فرقة تثبت أمرًا وتقول: دل عليه

. . . .

العقل، ثم تأتي طائفة ثانية تنفيه وتقول: أنكره العقل، بل إن الواحد منهم يثبت الصفة زمانًا ـ عشرين عامًا مثلاً وهو يثبتها ـ ويقول: دل عليها العقل، ثم يتغير بعد ذلك وينكرها ويقول: العقل ينكرها، فهذا عقل شخص واحد أثبت أمرًا واحدًا ثم نفاه، فالعبرة إذن بالنقل لأنه هو الأصل والأساس ولا يأتي بما تحيله العقول السليمة.

بعد ذلك نقول: إن أهل السنة نُقلت لهم الأحاديث فقالوا بموجبها، وصانوها عن التحريف والتعطيل، والتكييف، والتأويل، صانوها عن كل ما يخالفها، فلم يحرفوا الكلم عن مواضعه ويغيروه، أو يغيروا معانيه، فإن أهل الكتاب ذمهم الله بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ومن تبعهم في تحريف الكلم عن مواضعه تغيير المعاني أو تغيير الألفاظ فإن فيه شبهًا منهم.

وكذلك لم يعطلوا معاني الصفات ولم يعطلوا الرب تعالى عن صفات الكمال، والتعطيل هو النفي؛ يعني مانفوها وعطلوا الله عن هذا الصفات التي هي صفات الكمال. ولم يكيفوا؛ أي لم يسألوا عن الكيفية، ولم يثبتوا لله تعالى كيفية ذات ولا كيفية صفات لقصور الأفهام عن الكيفيات، ولم يتأولوا شيئًا ويفسروا بتفاسير بعيدة لا تحتملها اللغة، ولم يمثلوا، ولم يشبهوا شيئًا من صفات الله بصفات المخلوقين كما يزعمه أعداؤهم الذين يرمونهم بالتشبيه.

❁ ❁ ❁

وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة

[بل هُمُ الوسطُ فِي فِرقِ الأُمَّةِ، كَما أنّ الأمَّةَ هِي الوسَطُ فِي الأُمَم].



▪ قـوله: (بل هم الوسط في فـرق الأمّة، كـمـا أن الأمـة هي الوسط في الأمم):

الوسط هو: الخيار؛ يعني هم الخيار في فرق هذه الأمة، والأمة هي الخيار في الأمم كلها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني خياراً، أي جعل الله هذه الأمة خيار الأمم وأفضلها.

لكن المراد بالأمة هنا أمة الإجابة، فأمة النبي ﷺ قسمان: أمة دعوة وأمة إجابة:

فالذين لم يتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولا أطاعوه هؤلاء من أمته؛ **أمة الدعوة**.

والذين صدقوه واتبعوه وأطاعوه واتبعوا أثره وامتثلوا ما جاء به هؤلاء **أمة الإجـابة**، وهم المرادون في الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني خياراً.

فإذا كانت هذه الأمة وسطًا في الأمم السابقة، فإن أمة الإجابة الذين

. . . .

يشهدون أن محمدًا رسول الله ويقرءون القران، ويصدقون بأنه من الله، هؤلاء أيضًا فرق، وكل منهم يدعي بأنه من أمة محمد ﷺ؛ فالجهمية يدعون أنهم من أمة محمد ويقولون: هو رسول الله، ويقولون: نحن نقبل شريعته ونحكم بها، ونصلي ونصوم ونعمل للآخرة ونصدق بالبعث، وكذلك المشبهة الذين يشبهون صفات الله بصفات خلقه، وكذلك المعتزلة، وكذلك الحرورية الذين هم الخوارج ، وكذلك الجبرية، وكذلك الوعيدية، وكذلك الرافضة، الكلُّ يدعون أنهم من أتباع محمد ﷺ .

ولكن أتباعه حقًا هم أهل السنة والجماعة، هم الذين عملوا بالعقيدة السليمة، فهم وسط في فرق هذه الأمة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن أمته ستفترق إلى ثنتين أو ثلاث وسبعين فرقة[1] ، كلها في النار إلا واحدة وهي أهل السنة والجماعة، وهم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، هؤلاء هم الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة فهم الوسط في فرق الأمة.



---

(١) حديث افتراق الأمة أخرجه أبو داود برقم (٤٥٩٦) في السنة. والترمذي برقم (٢٦٤٠) في الإيمان. وابن ماجه برقم (٣٩٩١) في الفتن. وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢). عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.
وهو في صحيح الجامع رقم (١٠٨٣).
وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٨٣٧٧): إسناده صحيح.

١ ـ وسطيةُ أهلِ السُّنَّةِ فِي بابِ الصفاتِ بين الجَهْميةِ والمشبهَةِ:

[فـهُم وسَطٌ في بَابِ صِفـاتِ اللهِ سُبـحـانَهُ وتَعَالَى بَينَ أَهْلِ التَّعْطيلِ الجَهْمِيَّةِ وأَهلِ التَّمثِيلِ المشَبِّهَةِ].



قـوله: (فـهم وسط في باب صـفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة):

أهل السنة وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل وهم الجهمية وبين أهل التمثيل وهم المشبهة؛ فأهل التمثيل غلوا وجعلوا صفات الله كصفات المخلوق. وأهل التعطيل غلوا أيضًا في النفي، فهؤلاء غلوا في الإثبات وهؤلاء غلوا في النفي، فأنكروا أن يكون لله تعالى صفات كمال أيًا كانت، وقالوا: كل صفة موجودة في أي مخلوق لا نثبتها لله خوفًا من التشبه، فوقعوا في التعطيل، ولذلك يقول فيهم ابن القيم:

لسنا نشبه ربنا بصفاتنا ... إن المشبِّهَ عابد الأوثان

كلا ولا نُخْليه من أوصافه ... إن المعطِّل عابدُ البهتانِ

ويقول بعض العلماء: الممثل يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، فتوسَّطَ أهل السنة وأثبتوا الصفات ونفوا عنها التمثيل، فلا تمثيل كالممثلة ولا تعطيل كالنفاة، فهم يقولون: لله صفات حقيقية ليست كصفات المخلوق، هذا هو

،

. . . .

توسطهم بين أهل التمثيل المشبهة، وأهل التعطيل النفاة كالجهمية ونحوهم، فإن الجهمية والمعتزلة وغيرهم بالغوا في النفي خوفًا وحذرًا من التشبيه، ويرددون قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ويرمون كل من أثبت صفة لله يوجد مثلها في المخلوق بأنه مشبه ممثل، ويقول قائلهم وهو الزمخشري:

قد سبهوه بخلقه فتخوفوا　　　شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وجعل قول أهل السنة أن له سمعًا بلا كيف وبصرًا بلا كيف وأنه يرى بلا كيف، فهو ينكر عليهم ويرميهم بالتشبيه.

أما الممثلة فهم قليلون في فرق الأمة، وهم الذين يغلون في إثبات الصفات، كقولهم: يد كأيدينا وبصر وسمع كأبصارنا وأسماعنا، وقد اتفق أهل السنة أن ذلك كفر؛ لأنه تنقص؛ لأن المخلوق ضعيف، ويأتي عليه الفناء وهو حادث بعد عدم، فأهل السنة توسطوا بين المعطلة والمشبهة، فأثبتوا الصفات كما يليق بالرب تعالى، ونزهوه عن مشابهة المخلوقات.



٢ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ أَفعالِ اللهِ بَينَ الجَبْريةِ والقَدريَةِ :

[وهُمْ وسَطٌ في بابِ أَفْعَالِ اللهِ بَينَ الجَبْريَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ] .



قوله : **(وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم)** :

وأهل السنة كذلك وسط في باب أفعال الله أي قدرته ، فلقد انقسم الناس في ذلك أقسامًا :

● **فطائفة قالوا** : إن الله تعالى لا يقدر على أفعال العباد ، فلا يقدر أن يهدي من يشاء ولا يضل من يشاء ، بل العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضل نفسه ، فهؤلاء نفوا قدرة الله ، وهؤلاء هم القدرية من المعتزلة ونحوهم .

● **وطائفة أخرى** قابلتهم ، فسلبوا العبد قدرته وقالوا : العبد مجبور ، وهم طوائف من الجهمية ونحوهم يقال لهم المجبرة ، يقولون : العبد مجبور على أفعاله ، ليس له أفعال ، بل هو بمنزلة الشجرة المتحركة بالريح ليس له اختيار .

● **وتوسط أهل السنة** وقالوا : إن الله هو الذي يخلق كل شيء ، ولكنه أعطى العباد قدرة واختياراً ، فللعبد قدرة ومشيئة ، والله خالقه وخالق قدرته ومشيئته . فبقدرته التي منحت يصلي ويصوم ، ويؤمن ويكفر . فتوسَّطَ أهل السنة في باب أفعال الله بين الجبرية وبين القدرية .

❋ ❋ ❋

٣ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ وعيد اللهِ بَينَ المرجئة والوعيدية :

[وفي بابِ وعيدِ اللهِ بينَ المُرْجِئةِ والوَعِيديَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ].

الشرح

قوله : (وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم) :

وكذلك في باب وعيد الله انقسم الناس إلى أقسام :

• **قسم قالوا** : العصاة الذين يموتون على المعصية في النار ولا يخرجون منها ، ولا تغفر ذنوبهم إذا ماتوا وهم مصرون عليها ، ولو كانت ذنوبهم دون الشرك ، فلن يغفر لهم بل هم مخلدون في النار ، وهذا قول الخوارج الحرورية ، وقول المعتزلة الذين يخلدون بالكبائر .

• **القسم الثاني** : المرجئة ، الذين يقولون : لا يضر مع التوحيد ذنب ، إذا كنت موحداً فأكثر من الذنوب ، ولا تضرك كبائرها وصغائرها ، ما دام أنك موحد فكثر من الذنوب وليس عليك منها ضرر ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

وكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريمِ

هؤلاء في طرفي نقيض ، هؤلاء يقولون : الذنب يخلد به في النار ، وهؤلاء يقولون : الذنوب ولو كثرت لا تضر .

• **وتوسط أهل السنة** وقالوا : الذنوب التي هي دون الشرك متوعد

. . . .

عليها، فتارة يغفرها الله إذا شاء، وتارة يُدخل أصحابها في النار ويعذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم منها إذا شاء، وهذا هو القول الوسط؛ وهو أنهم لا يُخلدون في النار كقول المعتزلة والحرورية، ولا يحكم لهم بالنجاة، فيقال: أكثروا منها ولا تضركم كقول المرجئة، بل يُخاف عليهم ويرجى لهم.



٤ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ أَسماءِ الإيمانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ والمعْتَزلَةِ، وبيَنَ المرْجئةِ والجهمية:

[وَفي بابِ أسماء الإيمانِ والدِّين بَينَ الحَرُورِيَّةِ والمعْتَزلَةِ، وبيَنَ المرْجئةِ والجَهْمِيَّةِ].

الشرح

▪ قوله: **(وفي باب أسماء الإيمان والدِّين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية)**:

كذلك في باب أسماء الإيمان والدين في أحكام الدنيا، متى نسمي الإنسان كافرًا؟ ومتى نسميه مؤمنًا؟ فانقسم الناس أيضًا إلى أقسام:

فالخوارج قالوا: كل من عمل ذنبًا ولو دون الشرك فهو كافر.

والمعتزلة قالوا: الذي عمل ذنبًا دون الشرك نخرجه من الإيمان ولكن لا يصل إلى درجة الكفر.

والمرجئة قالوا: هو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان الملائكة وكإيمان الصحابة.

فهؤلاء في طرف وهؤلاء في طرف؛ فالمعتزلة والخوارج أخرجوه من الإيمان، وهؤلاء جعلوه كامل الإيمان، وعاملوه معاملة أكمل المؤمنين وأحبوه كما يحبون أكمل المؤمنين، ووالوه وقربوه، فصاروا في طرفي نقيض؛ هؤلاء

. . . .

يقاتلونه ويكفرونه ويستحلون سلب ماله ودمه، وهؤلاء يغالون فيه.

وتوسط أهل السنة وقالوا: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، لا نخرجه من الإيمان، ولا نعطيه كمال الإيمان، ولا نحبه كمحبة المؤمنين الخلص، وهذا هو القول الوسط.



٥ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ الصحابَةِ بَينَ الرَّافِضَةِ والخَوَارِجِ :

[وفي بابِ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ والخَوَارِجِ] .



■ قوله : (وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج) :

كذلك صحابة النبي ﷺ ، انقسم الناس فيهم إلى ثلاثة أقسام؛ قسم غلوا، وقسم جفوا، وقسم توسطوا .

● فالخوارج كفروا كثيراً من الصحابة ؛ كأهل البيت ـ عليّ وأهله ـ كفروهم وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم .

● والروافض والشيعة غلوا، فجعلوهم آلهة، وعبدوهم من دون الله وأعطوهم حقوق الألوهية .

● وتوسط أهل السنة في أهل البيت فقالوا : لا نكفرهم كقولكم يا خوارج، ولا نعبدهم ونعظمهم ونعطيهم شيئًا من حق الله كقولكم يا شيعة، بل نحبهم ولا نغلو فيهم، وهذا هو القول الوسط .

هذه هي فرق الأمم وهذا هو معنى توسط الأمة .



إثبات صفة الاستواء على العرش وصفة علو الله على خلقه ومعيته لخلقه ووجوب الإيمان بذلك وأنه لا تنافي بينها

[فَصْلٌ: وقَدْ دَخَلَ فيما ذَكَرْنَاهُ مِن الإيمانِ باللهِ الإيْمانُ بِما أخْبَرَ اللهُ بهِ في كِتابِهِ، وتَواتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وأجْمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمَّةِ؛ مِنْ أنَّهُ سُبْحانَهُ فَوْقَ سَمواتِهِ؛ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ على خَلْقِهِ، وهُو سُبحانَهُ معهُمْ أيْنما كَانُوا، يَعْلَمُ ما هُم عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذلكَ في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ولَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنَّهُ مُخْتَلِطٌ بالخَلْقِ؛ فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وهُو خِلافُ مَا أَجْمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمَّةِ، وخِلافُ مَا فَطَرَ اللهُ عليهِ الخَلْقَ، بلِ القَمَرُ آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ مِن أصْغَرِ مَخْلوقاتِهِ، وهُو مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وهُوَ مَعَ المُسافِرِ وغَيْرِ المُسافِرِ أَيْنما كَانَ.

وهُو سُبْحانَهُ فوقَ عَرْشِهِ، رَقيبٌ على خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عليهِمْ، مُطَّلِعٌ عليهِمْ... إلى غَيْرِ ذلك مِنْ مَعاني رُبُوبِيَّتِهِ.

وكُلُّ هذا الكَلامِ الَّذي ذَكَرَهُ اللهُ ـ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وأَنَّهُ مَعَنا ـ حَقٌّ على حَقيقَتِهِ، لا يَحْتاجُ إِلى تَحْريفٍ، ولكنْ يُصانُ عنِ الظُّنُونِ الكاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظاهِرَ قولِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾؛ أَنَّ السَّمَاء تُظِلُّهُ أَو تُقِلُّهُ، وهذا باطلٌ بإِجْماعِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمان؛ فإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وهُوَ يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأرض أنْ تزُولا، ويُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ على الأرْضِ؛ إلاَّ بإِذْنِهِ، ومِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ والأَرْضُ بأَمْرِهِ].

الشرح

▪ **قوله: (فصل: وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله في كتابه وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سماواته، على عرشه...):**

ومما يتعلق بصفات الله وبالإيمان بالله، الإيمان بأنه تعالى هو العلي الأعلى بجميع أنواع العلو، وأنه سبحانه على عرشه فوق سمواته، وفوق عباده، وكما أخبر بذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ووصف نفسه بالعلو في قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[الأعلى: ١]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيؤمن أهل السنة بعلو الله تعالى، أنه عليٌّ قهرًا أي عال عليهم قاهرٌ لهم، وعليٌّ قدرًا: أي قدره أعلى من قدر المخلوقات، وعليٌّ بالذات: أي هو فوقهم بذاته.

. . . .

ثم يؤمنون - أيضًا مع إيمانهم بأنه فوقهم فوقية حقيقية - بقربه وأنه لا ينافي عُلوه وفوقيته قربه ومعيته، بل هو قريب من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فنؤمن بفوقيته، وعلوه، ونؤمن بمعيته وقربه، ونؤمن بأن هذا لا ينافي هذا.

وجمع الله بينهما في هذه الآية في سورة الحديد حيث يقول تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الحديد: ٤] هذا هو العلو، فالاستواء هو العلو.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤] هذا القرب، يعني هو معكم، مُطلع عليكم، عالم بكم، مراقب لكم، يراكم ويسمعكم، ولا تخفى عليه منكم خافية، فهذا هو القرب والمعية، جمع الله بينهما في هذه الآية.

▪ وقوله: (**وليس معنى قوله: ﴿ هُوَ مَعَكُمْ ﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق**):

أي أن قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ ليس معناه أن الله مختلط بالخلق تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والمعية كما تقدم قسمان:

الأولى: معية علم واطلاع وهيمنة ومراقبة، فهذه معية عامة.

. . . .

الثانية: معية حماية وحفظ وكلاءة، فهذه معية خاصة.

وقد ذكر الله الأولى في هذه الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وفي قوله: ﴿وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، هذه المعية العامة التي مقتضاها العلم والاطلاع.

وذكر الخاصة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ونحو ذلك.

فنؤمن بأن الله مع كونه عليًا فوق عباده، فإنه يراهم ويطلع عليهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، ولا نقول إنه مختلط بهم، وإنه في كل مكان بذاته، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ونحو ذلك، فإن هذا خلاف ما تقتضيه اللغة.

فالمعية لا تستلزم هذا وهو أيضًا خلاف ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، فالخلق فطروا على أن ربهم من فوقهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فكل مسلم إذا دعا الله فإن قلبه يتوجه إلى فوق، لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا، وذلك دليل على أن هذه فطرة لا يستطيعون مخالفتها.

. . . .

▪ وقوله: **(بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن مطلع عليهم...)**:

ضرب المصنف رحمه الله مثلاً بالقمر، لبيان علو الله على خلقه ومعيته لهم؛ فالقمر آية من آيات الله، وهو من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، تقول العرب: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، معلوم أن القمر مركب في فلكه، ولكن كونه معهم أي أنهم يرونه ويسيرون في ضوئه وفي نوره، فكأنه معهم، فالله تعالى مطلع على عباده، فهو معهم بعلمه وباطلاعه وبهيمنته وبرؤيته وإن كان فوقهم بذاته.

فهذه الآيات تجرى على ظواهرها، وتصان عن الظنون الكاذبة مثل ظن الظان أن قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ [الحديد: ٤] أنه مختلط بالخلق، أو ظن قوله تعالى: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك: ١٦] أن السماء تظله أو تقله فتكون كالظل عليه، أو تقله يعني تحمله فيكون معتمداً على شيء من مخلوقاته أو محتاجًا إليه، والله تعالى غني عن ذلك، هذا ظن خاطئ بل معنى قوله: ﴿**فِي السَّمَاءِ**﴾ أي فوق السماء، أو أنه في جهة العلو كما يشاء، فهو غني عن العرش وعما دون العرش وعن السموات كلها، وهو الذي يمسكها، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر: ٤١] لولا إمساك الله تعالى لهذه السماوات ولهذه

. . . .

الأرض ولهذه الأفلاك، لاضطربت وزالت، قال الله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥] فيمسكها أن تقع على الأرض إلا إذا شاء.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥] يعني من آياته كونها مستمسكة قائمة، كلٌّ في فلك يسبحون، ليس فيها اضطراب ولا اختلاف؛ ذلك من آيات الله الكونية، فكيف مع ذلك يكون محتاجًا إلى شيء من مخلوقاته، أو أن شيئًا منها يحمله أو يقله أويظله أو ما أشبه ذلك.

فإذن نحن نعلم أنه تعالى فوق سمواته، وأنه مع ذلك مطلع على خلقه، مهيمن عليهم، مراقب لهم، قريب منهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وذلك لأنهم خلقه، وجميع المخلوقات كلها حقيرة وصغيرة بالنسبة إلى عظمته، وهو يقبض السماوات كما يشاء، ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] يقول ابن عباس: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم[١].

فإذا كان هذا مقدار هذه المخلوقات، دل ذلك على عظمة الخالق فكيف

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[سورة الزمر، الآية: ٦٧]. رقم (٣٠٢١٢).

. . . .

يكون محتاجًا إلى هذه الأفلاك، أو أنها تحمله أو تقله أو تظله؟!.

فالحاصل أننا نؤمن بعلو الله، وبفوقيته، وبعظمته أينما كان، وباستغنائه عن العرش وعما دون العرش، والعبد إذا آمن بعظمة الله وقدرته وعلوه وفوقيته أورثه ذلك فائدة عظيمة وهي تعظيمه والخوف منه، فإنه متى عظم قدر ربه في قلبه خافه أشد الخوف، وراقبه واستحضر أنه يراه في كل وقت، فحمى نفسه عن أن يقدم على معصيته لأنه يراه، فيقول: كيف أقدم على معصيته وهو يراني؟ كيف أفعل ما نهاني عنه؟ كيف أترك ما أمرني به؟ هذا من ثمرات الإيمان بهذه الصفات.



إثبات قرب الله ومعيته

[فصلٌ: وقَدْ دَخَلَ في ذلكَ الإيمانُ بأَنَّهُ قَريبٌ من خلقه مُجيبٌ؛ كَمَا جمَعَ بينَ ذلكَ في قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية، وقوله ﷺ: «إِنَّ الَّذي تَدْعونَهُ أقرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِه»(١).

وَمَا ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِه ومعيَّتِه لا يُنافي ما ذُكِرَ من عُلوِّهِ وفوقيَّتِه؛ فإِنَّهُ سبحانَهُ ليسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ في جَميعِ نُعوتِه، وهُو عَليٌّ في دُنُوِّهِ، قريبٌ في عُلُوِّه].



▪ قوله: (فصل: وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه؛ كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ... ﴾):

يؤمن أهل السنة بأن ربهم سبحانه وتعالى فوق عباده، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦١٠) في القدر، باب: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ومسلم برقم (٢٧٠٤)-٤٦ في الذكر والدعاء، باب: «استحباب خفض الصوت بالذكر». عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

الـقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعـام: ١٨]، وأنه هو العلي الأعلى، قال تعالى: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿ **إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ** ﴾ [الليل: ٢٠]، وقال: ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [الشورى: ٤]، وقال: ﴿ **إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً** ﴾ [النساء: ٣٤]، فيؤمنون بأنه عليٌّ بكل أنواع العلو: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات كما يشاء.

ويؤمنون أيضًا بأنه تعالى قريب مجيب، قريب من عباده مجيب لهم، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق: ١٦]، فالرب تعالى قريب من عباده يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال بعضهم: المراد أنه قريب برحمته وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإذا آمن العبد بأن الله تعالى قريب من عباده، حمله هذا الإيمان على ألا يعصي، لأنه يستحضر أن ربه قريب منه، ويستحضر أن ربه يطلع عليه ويراه، ولا يخفى عليه منه خافية، فيرجع إلى نفسه قائلاً: كيف أعصي ربي ومالكي وهو يراني؟ كيف أعصيه وهو سميع قريب؟ وكيف أقدم على معصيته وهو القادر عليّ والمتصرف فيّ؟ كيف أخرج عن طاعته وأنا بمرأىً منه ومسمع، كلُّ ذلك عليه أن يستحضره.

. . . .

فالله تعالى قد ذكر معيته؛ المعية العامة والمعية الخاصة، فقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة: ٧] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

فهذه المعية العامة تقتضي العلم والاطلاع، وإذا أيقن العبد بهذه المعية العامة حمله ذلك على أن يطيع الله تعالى، وألا يخرج عن طواعيته وألا يعصيه طرفة عين، فهذه فائدة معرفة العبد بذلك.

ثم يعلم أيضًا أن هناك معية خاصة بالمؤمنين، وهي المفهومة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ونحو ذلك.

هذه المعية تقتضي النصر والتأييد، أي معكم أنصركم وأقويكم وأشد أعضادكم وأثبتكم، فهذه المعية مقتضاها غير مقتضى المعية العامة، فيؤمل أن تحصل له هذه المعية: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي يكون الله معه، ومن كان الله معه بنصره وتأييده فلن يغلب ولن يهزم.

ثم على العبد بعد ذلك ألا يعتقد اعتقاداً سيئًا، فلا يضيق ذرعًا بمثل هذه الآيات، ولا يقول: كيف يكون الرب تعالى عليّاً فوق عباده وفوق عرشه في

. . . .

السماء السابعة التي بيننا وبينها هذه المسافات الطويلة، ومع ذلك يكون معهم؟

إذا عرف أن الله تعالى ليس كمثله شيء فليعرف أنه عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، وأنه مهيمن على العباد، مطلع عليهم، قريب منهم، يسمعهم وهو على عرشه لا يخفى عليه منهم خافية، يعلم السر وأخفى.

■ وقوله: (**وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**):

لما رفع الصحابة أصواتهم مرة بالذكر، أمرهم النبي ﷺ ألا يرفعوا أصواتهم رفعًا شديداً. وكان الصحابة في السفر إذا هبطوا واديًا سبحوا جميعًا بقولهم: «سبحان الله» وإذا علوا مكانًا مرتفعًا كنشزٍ من الأرض كبروا بقولهم: «الله أكبر»، فقال لهم ﷺ: «**أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[١].

فالرب تعالى قريب من عباده، مطلع عليهم، أي أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وأنه يسمع أقوالهم، ولا يشتبه عليه شيء من حوائجهم ولا من مطالبهم، فما دام كذلك، فإن العبد الذي يؤمن بذلك عليه:

أولاً: أن يطيع الله بكل أنواع الطاعة.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٣.

. . . .

ثانيًا: إذا عرف أن ربه يعلم ما في ضميره وما ينويه بقلبه فعليه أن يصلح نيته، وأن يطهر سريرته، وألا يخالف شيئًا مما يعتقده.

كذلك أيضًا ألا يقدم على ذنب بل يرتدع، فإذا حدثته نفسه بشيء رجع إليها وقال: الرب تعالى الذي نهاني قريب يراني ويطَّلع عليّ، ولا يخفى عليه من أمري خافية، فكيف أتقدم إلى معصية.

بذلك نعرف أن العبد يستفيد فائدة عظيمة من هذه العقيدة، ومن اعتقاده أن الله تعالى هو العلي الأعلى بكل أنواع العلو، وهو القريب الذي لا تخفى عليه خافية، وأنه ليس بغائب كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فيستفيد العبد هذه الفائدة التي هي إيمانه بقرب الله تعالى ومعيته، مما يحمله على مراقبته وتحري ما هو طاعة له، والبعد عن معصيته ومخالفته.

■ **قوله: (وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوّه، قريب في علوه):**

يجب على العبد أن يؤمن بنصوص كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ واعتقاد أنها لا تتناقض ولا يخالف بعضها بعضًا، بل يتسع قلبه بالإيمان بأن الله تعالى مع الخلق، وأنه فوق العرش، وأن هذا لا ينافي هذا.

. . . .

هناك مثلاً من أنكر القرب والمعية، وفاته الإيمان بهذه النصوص الصريحة، وهناك من أنكر الفوقية والعلو بجميع أنواعه والاستواء على العرش فأنكر هذه الأدلة الواضحة، وجعلها ليست حقيقية فأصبح بذلك مخالفًا لمعتقد أهل الحق وراداً لبعض الأدلة فدخل في زمرة من يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

أما المؤمنون حقاً فاتسعت قلوبهم لذلك، وآمنوا بالكتاب كله واعتقدوا أن بعضه يصدق بعضًا وأن معناه كله صحيح.



وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

[ومن الإيمانِ باللهِ وكتُبه: الإيمانُ بأنَّ القرآنَ: كلامُ اللهِ منزَّلٌ، غيرُ مخلوقٍ، منه بدأَ، وإليه يعودُ، وأن الله تكلَّم به حقيقةً، وأنَّ هذا القرآنَ الذي أنزله على محمدٍ ﷺ هو كلامُ اللهِ حقيقةً، لا كلامُ غيرِه.

ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنّه حكايةٌ عن كلامِ اللهِ، أو عبارةٌ، بل إذا قرأه الناسُ أو كتبوه في المصاحفِ؛ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللهِ تعالى حقيقةً، فإن الكلامَ إنما يضافُ حقيقةً إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلّغًا مؤدّيًا.

وهو كلامُ اللهِ؛ حروفُه، ومعانيه، ليس كلامُ اللهِ الحروفَ دونَ المعاني، ولا المعاني دونَ الحروفِ].



▪ قوله: (ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق...):

يؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله تعالى متكلم ويتكلم إذا شاء، وأن

. . . .

كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، وأن من كلام الله تعالى هذا القرآن الذي أنزله على قلب محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ -١٩٥] فهذا القرآن هو كلام الله حقيقة، تكلم الله به كما يشاء وسماه كلامه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ومن المعلوم أنه إنما يسمع هذا القرآن، فهو كلام الله حقيقة، منه بدأ وإليه يعود، فالله هو الذي تكلم به ابتداءً، وهو كلامه الذي أنزله على قلب نبيه ﷺ، وإليه يعود، أي يرجع إليه، وذلك في آخر الدنيا عندما يتعطل ويترك العمل به، ويُنسخ من صدور الرجال ومن مصاحف الناس، ويرفع ولا يبقى منه شيء، وذلك قرب قيام الساعة وانقضاء الدنيا، فإنه منه بدأ وإليه يعود، وهو كلام الله حقيقة.

ولا يجوز إطلاق القول بأنه عبارة، أو حكاية عن كلام الله، كما يقول بعض المبتدعة، الذين يقولون: إن كلام الله معنىً قائم بنفسه، وإن هذا الذي نقرؤه ليس هو عين كلام الله، إنما هو عبارة عنه أو حكاية بمعنى المتَرْجَم، أي أنه ترجم ونُقل إلى هذه اللغة أو إلى هذه الأحرف وهذه الكلمات، فليس هو كلام الله، ونقول رداً على ذلك: إذا اعترفنا أن الله تعالى يتكلم كيف يشاء، فلامانع أن يكون تكلم به كما هو، وأنزله بهذا اللسان كما يشاء.

فالله تعالى لا يعجزه شيء، فمن قال: إنه عبارة أو حكاية، لم يكن مقراً

. . . .

بأنه كـلام الله، بل جعله عبارةً عنه، وجعل هذا الكلام كلام ذلك المعبر أو المفسر أو المترجم، فلا يسمع السامع كلام الله، ويصح على هذا القول الباطل أن يقال: ليس هذا عين كلام الله بل هو بمعناه أو نحو ذلك، أو أن كلام الله هو المعنى دون الحرف، وكل هذا خطأ.

ومن ذلك أيضًا القول بأنه مخلوق، كقول المعتزلة والجهمية، فإنهم يعتقدون أن الله لا يتكلم، وأن هذا مخلوق كسائر المخلوقات، خلقه إما في اللوح المحفوظ، أو خلقه في القلم وجرى به أو نحو ذلك، ولا يعترفون بأن الله تكلم به، وينفون أن يكون الله تعالى متكلمًا، فيبطلون صفة الكلام التي هي من أعظم صفات الله تعالى.

كذلك نحن نقول: هذا الكلام هو كلام الله حيثما قرئ، وحيثما كتب، وحيثما نُقل، لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله، إذا قرأه القارئ فهو كلام الله، وإذا سمعناه من قارئ نقول: هذا القارئ يقرأ كلام الله نسمع صوته وهو يتلو كـلام الله، ونقول كما يقول بعض العلماء: الصوت صوت القارئ، والقول قول البارئ، فالصوت الذي نسمعه صوت هذا الإنسان الذي قرأ، ولكن القول الذي قاله والذي نطق به هو أصلاً كلام الله، وهذا معنى قوله: إنه متى قرأه قارئ أو كتبه أو نسخه لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله.

ثم يقال: إن الكلام يضاف إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، فالذي ابتدأ هذا الكلام هو أحق بأن ينسب إليه. يقال: هذه الكلمة لفلان ولو تكلم بها الناس بعده وبلغوها، ويقال: هذه القصيدة لفلان، ولو قرأتها أنت

. . . .

وقرأها آخر يرويها عنه؛ وذلك لأنه هو الذي ابتدأ إنشاءها.

ويُقال مثلاً: هذا الكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً، لأنه هو الذي تكلم بهذه الكلمات وصفَّها هكذا، ولو قرأته أنت فقراءتك له لا يخرجه عن كونه كلام شيخ الإسلام وقراءتك لمتن الرحبية مثلاً لا يخرجه عن كونه من نظم الرحبيّ، فالكلام يضاف إلى من ابتدأه أول مرة لا إلى من قاله مبلغًا أو ناقلاً له.

فعرفنا بذلك أن القرآن هو عين كلام الله تعالى، حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، بل هذا اللفظ هو عين كلام الله كما يشاء الله تعالى.

إذا اعتقد المسلمون أن الله تعالى متكلم وأن الكلام صفة كمال واعتقدوا أن من كلامه هذا القرآن وكذلك سائر الكتب التي أنزلها، اعتقد أيضًا أن كلام الله كله هدىً، وكله شفاء، وكله نور، وكله حكمة وبيان، وأن كلام الله تعالى ليس له نهاية كما في قوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩].

ومعنى ذلك: أن كلام الله تعالى لا يقوم له مداد، ولا يعدّه عادٌّ، ولا يحصيه أحد، وذلك لأن المخلوقات حادثة وفانية، وكلام الله تعالى ليس له نهاية، وكل ذلك يعطي المسلم عقيدة راسخة في قلبه بأن الله تعالى متصف بصفات الكمال، وأن ربه نزل على عباده الكتب التي هي كلامه، وضمنها

. . . .

أحكامه ، وأنه أقام عليهم الحجة وقطع عنهم المعذرة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فإذا آمن العبد بذلك وأيقن به ، واعتقد هذه العقيدة الراسخة ، حمله ذلك على أن يعبد هذا الرب حق عبادته ، وأن يخافه حق خوفه ، وأن يراقبه في سره وعلانيته ، وأن يعظمه حق التعظيم ، وكل ذلك من آثار هذه العقيدة السلفية .



وجوب الإيمان برؤية أهل الموقف ربهم ورؤيته بعد دخول الجنة

[وقد دخَلَ فيما ذكرناه من الإيمانِ به وبكتبهِ وبملائكتهِ وبرسُلهِ: الإيمانُ بأنَّ المؤمنين يروْنَه يوم القيامةِ عَيَانًا بأبصارِهم كما يروْنَ الشمسَ صَحْوًا ليس دونها سحابٌ، وكما يروْنَ القمَرَ ليلةَ البدرِ لا يُضَامّون في رؤيتهِ.

يرونه سبحانَه وهم في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثم يروْنَه بعد دخولِ الجنةِ، كما يشاءُ اللهُ تعالى].



▪ قوله: (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عيانًا بأبصارهم...):

يجب على المسلم أن يعتقد ما أخبر الله به، وما أخبر به رسوله ﷺ من أمور الغيب، ومن أمور الدار الآخرة، ومما يكون بعد الموت وبعد البعث، وفي يوم القيامة سواءً أدرك ذلك بعقله أو لم يدركه.

ومن ذلك الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ويرونه في الجنة،

. . . .

يدخل هذا في الإيمان بالله ؛ لأنه من الإيمان بصفاته، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه يتعلق بما يحدث في يوم القيامة وما بعد يوم القيامة، ويدخل في الإيمان بكتب الله؛ لأنه مذكور في القرآن وفي الكتب السابقة، ويدخل في الإيمان بالرسل؛ لأنه مما بلغته رسل الله، وحقٌّ علينا أن نصدقهم فيما بلغوه.

نؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في عرصات القيامة كما يشاء، عندما ينزل الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، وأنه يخلو بعبده؛ يقول ﷺ : «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان**»[1] ويخبر ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته[2]؛ يعني لا يلحقهم ضيم في رؤيته.

أما في الدنيا فلا يقدر البشر على أن يرى ربه، ولا يتمكن من ذلك لعظمة الله تعالى، ولضعف خلقة الإنسان، فإن موسى عليه السلام طلب الرؤية من الله، فأخبره بأنه لا يقدر على ذلك، حكى الله عنه أنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩) في الرقاق، باب: «من نوقش الحساب عذب». ومسلم برقم (١٠١٦) [٦٧] في الزكاة، باب: «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة، باب: «فضل صلاة العصر». ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ يعني لا تقدر على رؤيتي ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبره بأن الجبل ما صمد لرؤيته وهو جبل شامخ أصم عظيم، بل اندك لهيبة الله تعالى لما تجلى فكيف بالإنسان الضعيف؟

أما في يوم القيامة وفي الدار الآخرة فيقوي الله بنية هذا الإنسان، ويثبته فيزيده قوةً، فيثبت لرؤية الله تعالى ويتمكن من رؤيته كما يشاء.

فحينما يتجلى الله تعالى لعباده لفصل القضاء عندما ينزل يحاسبهم، فقيل: إنه يراه أهل الموقف كلهم مؤمنهم وكافرهم، وقيل: لا يراه إلا المؤمنون.

ولعل الصواب إنه في القيامة يراه كل الخلق وفي الجنة يحتجب عن الكفار ويراه المؤمنون لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني الكفار، وهذا دليل على أن المؤمنين غير محجوبين.

أما رؤيته في الموقف، فقد ثبت في الحديث[1] عن النبي ﷺ أنه يقال: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة، فيأتيهم ربهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها فيقول: أنا ربكم،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾». ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فيكشف عن ساق، فإذا رأوه عرفوه فخروا سجداً إلا من كان منافقًا فلا يقدر على السجود.

يقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]، فأخبر بأنه عندما يتجلى الله لهم ويكشف عن ساق يسجد كل المؤمنون ويخرون لله سجداً.

أما المنافقون وكذلك العصاة الذين لا يصلّون في الدنيا، فإنهم لا يقدرون على السجود، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه، وصارت ظهورهم كصياصي البقر، لا يتمكنون من السجود؛ لأنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود وهم سالمون فلا يجيبون؛ يدعون إلى السجود يعني إلى الصلاة، ويسمعون المنادي وهو يقول: «حي على الصلاة» التي فيها السجود ومع ذلك فلا يأتون وهم سالمون، فهنالك لا يستطيعون أن يسجدوا.

وهذا دليل على أن المؤمنين يسجدون إذا رأوا ربهم، وأن المنافقين والعصاة ونحوهم من الذين يتركون الصلاة في الدنيا لا يستطيعون السجود.

أما إذا دخل أهل الجنة الجنة، فإنهم يرون ربهم، فمنهم من يرى ربه بكرةً وعشيًا، ومنهم من يراه كلَّ أسبوع، فأعلاهم من ينظر إلى ربه بكرة وعشيًا، ولهذا ورد في الحديث: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**

. . . .

فافعلوا»[١] يعني على صلاة الفجر وصلاة العصر، إذا استطعتم ألا تغلبكم النفس على هاتين الصلاتين، فحافظوا عليهما، فإن فيهما وقت النظر إلى الله تعالى في الآخرة.

كذلك أيضًا وردت أحاديث في فضل يوم الجمعة وتسميته يوم المزيد[٢]، فيوم الجمعة كما له فضل عظيم في الدنيا فكذلك فضله في الآخرة عظيم، وهذا مع أنه ليس في الآخرة نهار ولا ليل، فيزور فيه المؤمنون ربهم، ويتجلى لهم، وإذا تجلى لهم نسوا ما كانوا فيه من النعيم فلا يلتفتون إلى شيء من نعيمهم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، وذلك غاية سرورهم وغاية بهجتهم، وكمال نعيمهم.

يرونه كمايشاء، فيؤمن المؤمنون بذلك لكثرة ماورد فيه من الأحاديث التي ليس لها مدفع، ويصدقون بأنهم يرونه كما يشاء، ولكن لا يخوضون في كيفية الرؤية، فتكون الرؤية إلى وجه ربهم كما يشاء لقوله في الحديث عن أبي موسى: **«جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا ص ٨٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢٧) من حديث أنس مرفوعًا. وعزاه للشافعي في الأم، وابن أبي شيبة والبزار وأبي يعلى، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وابن مردويه والآجري في الشريعة والبيهقي في الرؤية، وأبي نصر السجزي في الإبانة من طرق جيدة.

. . . .

عدن»[١] .

فأخبر بأنه متى كشف رداء الكبرياء عن وجهه نظروا إليه كما يشاء، فيقويهم ويزيدهم قوة يثبتون بها لرؤية الله تعالى.

فهذا ونحوه دليل على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما يشاء، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] يعني معاينة إلي ربها، فتلك الوجوه صارت بالنظر إلى الله مبتهجة مسرورة نضرة فرحة مستبشرة، وذلك تمام نعيمها.

ولهذا النعيم أسباب يحصل عليها المؤمن ما دام في الدنيا فمن ذلك:

محافظته على العبادات ومن أهمها الصلاة.

وكذلك المحافظة على هيئة العبادة، كهيئة الصلاة وجماعتها، والحفاظ عليها في المساجد ونحو ذلك.

وهكذا الحفاظ على تكميل الإيمان والبعد عن المعاصي التي تخل بالإيمان أو تنقص ثواب التوحيد، فإذا كان الإنسان كذلك، وآمن بالله وبما جاء عن الله، رجي بذلك أن يحصل له هذا الثواب.



---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٠.

الإيمان باليوم الآخر

١ ـ الإيمانُ بفتنةِ وعذابِ القبرِ :

[فصلٌ : ومن الإيمانِ باليومِ الآخرِ : الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعد الموتِ، فيؤمنون بفتنةِ القبرِ، وبعذابِ القبرِ ونعيمهِ.

فأمّا الفتنةُ، فإن الناسَ يُفتنون في قبورِهم، فيقالُ للرجلِ : من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟.

فيُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، فيقولُ المؤمنُ : اللهُ ربي، والإسلامُ ديني ومحمدٌ ﷺ نبيّي.

وأما المرتابُ؛ فيقولُ : هاهْ هاهْ، لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه، فيُضْربُ بمرزبةٍ من حديدٍ، فيصيحُ صَيْحَةً يسمعُها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانُ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لصَعِقَ.

ثم بعد هذه الفتنةِ إما نعيمٌ وإما عذابٌ، إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ].

. . . .

الشرح

▪ قـولـه: (**فصل: ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر وعذاب القبر ونعيمه...**):

من عقيدة المسلمين الإيمان باليوم الآخر، وهو ركن من أركان الإيمان. ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما بعد الموت، فيدخل في ذلك:

أولاً: كيفية قبض الأرواح، من نزول الملائكة، إما ملائكة العذاب أو ملائكة النعيم، ومن استخراجهم للروح، وكيفية قبضها كما هو مذكور في الأحاديث.

ثانيًا: عذاب القبر ونعيمه، وهو أن الميت يعذب في البرزخ أو ينعم، سواء قُبر أم لم يُقْبر، فإن كان من أهل الخير ناله النعيم والفرح والسرور، وإن كان من أهل الشر ناله العذاب والألم والحزن الشديد، ويبقى كذلك كل منهما في هذا البرزخ الذي هو بين الدنيا والآخرة.

ويؤمن المؤمنون بأن هذا البرزخ حاجز بين الدنيا والآخرة، وأن الإنسان بعد مفارقته للدنيا لا تنعدم روحه، أما بدنه فإنه ينعدم ويفنى؛ قد تأكله الأرض ويصير ترابًا ورفاتًا، وقد يحرق ويذرى ولا يبقى له بقية، ولكن روحه تبقى، وهي التي يكون عليها العذاب والنعيم، ويقدر الله أن يوصل إلى

. . . .

بدنه ـ ولو كان ترابًا ـ ما يتألم به أو ما يتنعم به.

ويقسم العلماء اتصال الروح بالبدن إلى خمسة أقسام:

الاتصال الأول: اتصال في الرحم، فإذا كان الإنسان في الرحم فللروح به اتصال ولكنه ضعيف، ولهذا يتحرك الجنين في بطن أمه.

والاتصال الثاني: في الدنيا، وهو اتصال كامل مشاهد.

والاتصال الثالث: في النوم، فإن النائم قد تفارقه روحه، ولكن ليست مفارقة كلية.

والاتصال الرابع: في البرزخ أي بعد الموت، وهو نوع اتصال وإن كان غير مشاهد.

والاتصال الخامس: بعد البعث يعني في الآخرة، وهو أكملها وأقواها، وهو الذي لا يحصل بعده انفصال.

والأحكام في الدنيا تكون على الأبدان، ولكن الأرواح تابعة لها، والأحكام في البرزخ على الأرواح أصلاً، ولكن الأبدان تابعة لها، وأما الأحكام في الآخرة فإنها على الروح والبدن كليهما لكونهما قد اجتمعا اجتماعًا كليًا. فإذا مات الإنسان وخرجت روحه، بقيت إما معذبة وإما منعمة كما يشاء الله، إما في روضة من رياض الجنة، وإما في حفرة من حفر النار إلى أن يأذن الله بالبعث؛ والنشور ـ أي القيامة الكبرى ـ.

. . . .

أما عذاب القبر ونعيمه فقد ورد مفصلاً في حديث البراء بن عازب الطويل الذي يقول فيه النبي ﷺ : «**إن العبد إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، معهم أكفان من الجنة، وحنوط من الجنة، ويجلسون منه مدَّ البصر، ويأتيه ملك الموت، فيقف عند رأسه ويقول: أيتها الروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي إلى روح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتُسَلُّ روحه من جسده كما تُسل الشعرة من العجين، فإذا أخذها لم تدعها الملائكة في يده طرفه عين، حتى يجعلوها في ذلك الحنوط وتلك الأكفان، ثم يصعدون بها إلى السماء، كلما مروا بملأ من الملائكة قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فيخرج منها كأطيب ريح وجدت على وجه الأرض، فإذا وصلوا بها إلى السماء واستفتحوا**». فذكر أنه تفتح لها أبواب السماء وأن الله تعالى يقول: «**ردوا روح عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى**». ثم ذكر سؤال الملكين له في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ فيقولان له: صدقت، فيفرشان له من الجنة، ويوسع له في قبره مد البصر، ويفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وريحانها، فيقول: ربِّ أقم الساعة، رب أقم الساعة». فهو يتمنى أن تقام الساعة ليفوز بالمنازل المعدة له ويتمتع بذلك النعيم المقيم. هذه حال أهل السعادة

. . . .

عند الاحتضار.

ثم ذكر ضد ذلك فقال: «**وإن العبد الكافر أو الفاجر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت عليه ملائكة سود الوجوه، معهم أكفان من النار، وحنوط من النار، فيجلسون منه مدَّ البصر، فيأتيه ملك الموت ويقول: اخرجي أيتها الروح الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، فتتفرق روحه في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفّود من الصوف المبلول، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتي يجعلوها في تلك الأكفان وذلك الحنوط من النار، ويخرج منها كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض.. فيصعدون بها إلى السماء، كلما مروا على ملائكة قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان؛ بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فإذا وصلوا إلى السماء لم تفتح لها، يقول الله تعالى:﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فتطرح روحه طرحًا قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ ومادينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقال: لا دريت ولا تليت، فيُضرب بمرزبة من حديد، وذكروا ثقلها وعظمها، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف**

. . . .

أضلاعه، ويفتح له بابٌ إلى النار، ويأتيه من حرها وسمومها ويقول: رب لا تقم الساعة»[1]. فهذا هو أول منازل الآخرة.

فيؤمن المؤمنون بعذاب القبر ونعيمه، وأن القبر: إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وبأن عذاب القبر أو نعيمه حاصل ولابد لكل إنسان، وبأنه سيناله ذلك، ولو لم يقبر، ولو حرق، ولو أكلته السباع أو الطيور، فإنه لابد أن يناله ذلك الألم أو ذلك النعيم؛ لأن حكم الآخرة غير حكم الدنيا، فالإنسان مركب من جسد وروح، وهذه الروح بعد الموت عندما تخرج من الجسد، تبقى إما معذبة وإما منعمة، فأما الجسد فإنه كما هو مشاهد يفنى ويصير ترابًا، ولكن لا يعجز الله شيء.

فالله تعالى قادر على أن يوصل إليه العذاب، حتى ولو كان ترابًا، أو كان رفاتًا، فليس هناك شيء يصعب على الرب: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٩] فهو عالم بأجزاء الإنسان وبتراكيبه، وقد أخبر بأنه لابد سيجمع العباد بعد تفرق أشلائهم وأجزائهم، وسيعيدهم ويحييهم مرة أخرى للجزاء على أعمالهم التي عملوها وقدموها في الدنيا، وأخبر بأن هذه الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الناس يعملون ويزرعون ويكتسبون لآخرتهم، ويتقربون إلى الله، فمنهم من هو في كل يوم يتقرب بالحسنات،

---

(١) حديث البراء بن عازب الطويل أخرجه أبو داود رقم (٤٧٥٣) كتاب السنة، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦)، والطيالسي في المسند رقم (٧٥٣)، وهو حديث صحيح: صححه غير واحد من الأئمة كالذهبي وأبي نعيم وابن القيم وغيرهم.

. . . .

ومنهم من يتقرب بالسيئات وبالأعمال الخبيثة التي تبعده عن الله ويكتب له بها شقاوته، فإذا انتقلوا من هذه الحياة لقوا جزاءهم، إما جزاء حسنًا جزاء ما عملوا من الحسنات، وإما عقوبات وعذابًا جزاء ما عملوا من السيئات، ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[فصلت: ٤٦] فليس الله تعالى يظلمهم، إنما هذا جزاء أعمالهم ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم ومن السلف إذا كانوا عند القبور بكوا وقالوا: إن القبر أول منازل الآخرة[1]؛ أي به يعرف الميت حالته، إن كان من أهل الخير وإن كان من أهل الشر، إن كان من الذين يفتنون فيثبتون أو لا يثبتون، وقد قال العلماء: إن هذه الآية التي في سورة إبراهيم نزلت في عذاب القبر وهي قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإن المراد: يثبتهم في حال البرزخ، والبرزخ هو هذه المدة التي بين الدنيا والآخرة، التي هي كفاصل وحاجز بين الدارين، فيكون فيها العباد وقتًا

---

(١) ومن هؤلاء عثمان ذو النورين رضي الله عنه فقد روى هانئ مولاه قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته. فقيل له: تُذكر الجنةُ والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه**».

أخرجه الترمذي رقم (٢٣٠٨) في الزهد. وابن ماجه رقم (٤٢٦٧) في الزهد. وحسنه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (١٦٨٤).

. . . .

محدودًا، ثم بعدما يتكامل الأمر الذي قدره الله، وتنتقل الحياة، وينتهي خلق ما قدر الله أنه سيخلق، بعد ذلك ينفخ بأمر الله تعالى في الصور ثلاث نفخات.

النفخة الأولى التي هي للفزع، وهي المذكورة في قوله: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾ [النمل: ٨٧] والفزع هو الوجل والخوف، وذلك أنهم إذا سمعوا تلك النفخة؛ فزعوا وماج بعضهم في بعض خوفًا وفزعًا من تلك النفخة.

ثم تعقبها نفخة أخرى وهي نفخة الصعق أو الموت المذكورة في قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾ [الزمر: ٦٨] أي ماتوا.

ثم بعد ما يصعقون وتمضي عليهم مدة، قيل: أربعون سنة أو نحوها، تكون النفخة الأخيرة، فيأمر الله تعالى الملك أن ينفخ في الصور نفخة البعث والقيام المذكورة في قوله: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ يعني فإذا الخلق كلهم أولهم وآخرهم قد بُعثوا وجمعوا ﴿**قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] فالمؤمن يصدق بذلك كله على تفصيله.

وقد فصلت الشريعة أمور الآخرة، وكذلك وردت في القرآن كثير من تفاصيل أمور الآخرة التي لم تكن موجودة في الكتب الأخرى، وذلك دليل

. . . .

على أهمية الإيمان باليوم الآخر وعظيم شأنه.

والعبد متى آمن بهذا استعد له، فمتى صدقت بأن هذا القبر إما نعيم وإما جحيم، حملك ذلك على أن تتأهب بالأعمال الصالحة وبالعقيدة السليمة، حتى تنجو من العذاب، وحتى تسلم منه، وحتى تظفر بالنعيم الذي هو مقدمة بين يدي نعيم الآخرة.



٢ ـ الإيمانُ بالقيامةِ الكبرى وما يجري فيها :

[وتَقومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ اللّٰهُ بها في كِتابِهِ، وعلى لِسانِ رسولِهِ، وأَجْمَعَ عليها المُسْلِمُونَ .

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً عراةً غُرْلاً، وتَدْنو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ .

فتُنْصَبُ المَوَازِيْنُ، فتُوزَنُ بها أَعْمالُ العِبادِ، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]].

وتُنْشَرُ الدَّوَاوِيْنُ، وهِيَ صَحائِفُ الأعْمَالِ، فآخِذٌ كِتَابَهُ بيَمينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بشِمالِهِ أَوْ مِنْ وَراءِ ظهْرِهِ؛ كَما قالَ سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].



■ **قوله: (وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون...)**

ذكرنا أن من أمور الآخرة أن الله يأمر أن ينفخ في الصور ثلاث نفخات: وقد ذكر الله النفخ في الصور في القرآن في عدة مواضع .

. . . .

والصور: قيل إنه قرن كبير ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعالى ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث أو القيام.

ومن العلماء من يقول: إن نفخة الفزع تطول حتى يكون في آخرها الموت، فهي نفخة واحدة أولها فزع وآخرها صعق. ثم نفخة البعث وهي التي تحيا بها الأبدان.

وورد في بعض الآثار أن الله تعالى ينزل من السماء مطراً كمني الرجال، وأنه مطر غليظ تنبت به الأجسام، فإذا نبتت الأجسام وجمعها الله وتكاملت؛ أذن الله في النفخ في الصور، فتأتي كل روح إلى بدنها ويحيا بإذن الله، وليس في ذلك عجب، فالله تعالى على كل شيء قدير.

وقد حكى الله قصة: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ** ﴾ حتى تفرقت أشلاؤه وبليت عظامه، وكان معه حماره وقد مات وبلي وتفرق، ثم بعثه الله وقال له: ﴿ **وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾، فنظر إلى العظام وهي متفرقة متباعدة، ثم بعد ذلك أمرها الله فتجمعت، ثم أمرها فنبت عليها اللحم ثم نفخ فيها الروح، فقام الحمار ينهق بإذن الله، ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فإذا أذن الله بجمع الأجساد، وبالنفخ في الصور، وبدخول الأرواح في أجسادها، حينئذ قام الناس من قبورهم، وخرجوا ينفضون التراب والغبار

. . . .

عن رؤوسهم، وساروا إلى الموقف، وقامت القيامة التي سماها الله بعدة أسماء: سماها بالطامة الكبرى، وسماها بالصاخة، وسماها القارعة والحاقة وما أشبهها، وذلك لأهميتها وثبوتها ولابد، كما قال الله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٩] فيحشر الناس إلى الموقف حفاة عراة غرلاً بُهمًا، يحشرون كما خلقوا، أي على الخلقة التي خرجوا إلى الدنيا بها، **حفاة**: غير منتعلين. **عراة** من الثياب غير مكتسين. **غرلاً**[1]: أي غير مختونين. وفي رواية: «**بهمًا**»[2] بمعنى أنهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن.

فكأنهم بمنزلة من لا يستطيع أن يتكلم، ولهذا قال: ﴿**فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾ [طه: ١٠٨] والهمس: هو صوت وطء الأقدام. وقيل: الكلام الخفي، فيحشرون على خلقتهم الأولى لم ينقص منهم شيء ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ**

---

(١) لحديث ابن عباس رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إنكم محشورون حفاة، عراة، غرلاً**: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾ **وإن أول من يكسى إبراهيم**». أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٩) في الأنبياء، باب: «قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾». ومسلم برقم (٢٨٦٠) [٥٨] في الجنة، باب: «فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة».

(٢) لحديث عبد الله بن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يحشر الله الخلائق يوم القيامة حفاة عراة بُهْما...**» الحديث. أخرجه البخاري في الأدب برقم (٩٧٠) وفي التاريخ الكبير (٧/ ١٦٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٥) والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (١٣١، ٦٠٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٧، ٤٣٨) و(٤/ ٥٧٤، ٥٧٥) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٥) وصححه الألباني في تخريج السنة، وهو في صحيح الأدب المفرد برقم (٧٤٦) وقال: حسن.

. . . .

تَعُودُونَ﴾.

ثم يتوجهون إلى المحشر، وبعد ذلك يأذن الله تعالى في جمعهم، ويطول الموقف، وتدنو الشمس منهم، ويُزاد في حرها، ويلجمهم العرق لشدة الموقف، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ إلى حقويه، ومنهم من يبلغ إلى ثدييه، ومنهم من يبلغ إلى منكبيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، أي يصل إلى فمه، ذلك كله بقدر أعمالهم، وبقدر ذنوبهم.

وذكر الله تعالى أنه يوم طويل فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] في هذه الآية ذكر أنه كألف سنة؛ أي طوله، وفي آية أخرى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ولعل طوله أو قصره بالنسبة إلى تفاوت الناس، فمنهم من يطول عليه كثيراً، ومنهم من يطول عليه وسطًا، ومنهم من يخف عليه، حتى قيل: إنه على المسلم كصلاة مكتوبة، أي لا يشعر بطوله.

▪ قوله: **(فتنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾ وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال...)**:

وفي ذلك اليوم عندما ينزل الله تعالى لفصل القضاء يحكم بين عباده.

فأولاً: تنصب الموازين القسط التي ذكرها الله تعالى في عدة آيات. قال الله

. . . .

تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأي شيء مثل الخردل!، فلا يظلم الله تعالى أحدًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]، وهذا دليل على أنه توزن الأعمال وزنًا حقيقيًا، خلافًا لكثير من المبتدعة الذين قالوا: الميزان هو العدل، ولكن الجمهور على أن هناك ميزانًا حقيقيًا له كفتان ذكره النبي ﷺ في عدة أحاديث.

قيل: إن الذي يوزن هو الإنسان نفسه، فيوضع في الميزان، فتارة يخف وتارة يثقل. قال تعالى: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وورد في الحديث: «**إنه ليؤتى بالرجل السمين الأكول الشروب، لا يزن عند الله جناح بعوضة**» ثم قرأ هذه الآية[١]. ويقول ﷺ في ابن مسعود، لما تعجبوا من دقة ساقيه: «**إنهما في الميزان أثقل من جبل أحد**»[٢] فدل على أن الإنسان يرجح إذا كان رجلاً صالحًا، ويخف إذا كان فاسقًا كافرًا.

وقيل: توزن صحف الأعمال التي كتبت فيها فتخف إذا كانت أعمالاً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٩) في التفسير [سورة الكهف]، باب: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ..﴾ ومسلم برقم (٢٧٨٥) في صفات المنافقين عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١). قال أحمد شاكر (٣٩٩١): إسناده صحيح.

. . . .

سيئة، وتثقل إذا كانت أعمالاً صالحة، ودليل ذلك حديث البطاقة، ذكر النبي ﷺ: أن رجلاً ينشر له تسعة وتسعون سجلاً فيها سيئاته، وأنه يخرج له بطاقة فيها الشهادتان، ولكنها شهادة صادقة صادرة من القلب ختم بها حياته، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[1]. فهذا دليل على أن الصحف توزن، وأن ثقلها وخفتها بحسب صلاح قلب العامل وصدقه فيها أو عدم ذلك.

وهناك من يقول: إن الأعمال تجسد فتكون أجساداً والله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجساداً، فيجعل الصلاة شيئًا محسوسًا، ولو كانت عرضًا، وكذلك الكلام ولو كان عرضًا وليس له جرم، ولكن يجسده الله ويجعل له جُرمًا يخف ويثقل.

يقول النبي ﷺ في الحديث: «**والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض**»[2]. فدلَّ على أن هذه الكلمة يكون لها جرم توزن، وكذلك قوله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله**

---

(١) حديث البطاقة أخرجه الترمذي برقم (٢٦٣٩) في الإيمان. وابن ماجه برقم (٤٣٠٠) في الزهد. وأحمد في المسند (٢/ ٢١٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٩). وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (١٧٧٦) وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٣٥). وقال أحمد شاكر (١٩٩٤): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣) في الطهارة.

. . . .

العظيم»[1]. فجعلها تثقل في الميزان، فتوزن ويكون لها جرم، فيقلبها الله أجسامًا وإن كانت أعراضًا.

ولا شك أن معرفة هذه الأشياء والإيمان بها له تأثير على العبد، فإذا صدقت بأن هناك وزن، حملك على أن تستعد لذلك؛ لأن الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿١٠٢﴾ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وفي آية أخرى: ﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٩]، وفي آية أخرى: ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** ﴿٦﴾ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴿٧﴾ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** ﴿٨﴾ **فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ [القارعة: ٦-٩].

وهذا كله دليل على أن هناك وزنًا حقيقيًا؛ فالمسلم الذي يؤمن بذلك يستكثر من الأعمال الصالحة التي يثقل بها ميزانه، وإذا استكثر منها حرص على أن تكون أعماله صالحة صادقة، صادرة من صميم قلبه، فإن ثقل الأعمال وخفتها يختلف بحسب إخلاص العامل وإخلاص نيته.

ثانيًا: تنشر الدواوين؛ وهي صحائف الأعمال التي كتبت فيها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وكل ذلك مما فصّله الله

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٨٢) في الأيمان والنذور، باب: «إذا قال: والله لا أتكلم اليوم...». ومسلم برقم (٢٦٩٤) في الذكر والدعاء، باب: «فضل التهليل والتسبيح والدعاء». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

تعالى في القرآن. قيل: إن هذا الكتاب بطاقة فيها بشارة للإنسان بأنه سعيد؛ بطاقة مكتوب فيها: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية. وأنه يستبشر ويفرح، وكل من لقيه يقول: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩]، فإن فيه ما يسرُّ وفيه ما يفرح.

وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره فإنه - كما ذكر الله - ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١١، ١٢]، ويقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، إلى آخر ما ذكر الله تعالى في كتابه، فهذه أدلة واضحة من القرآن.

وقيل: إن المراد بالكتاب هنا هو الكتاب الذي سجلت فيه الأعمال كلها، وصحائف الأعمال كلها. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فدل على أنه يُؤتى الكتاب الذي احتوى على أعماله كلها، دقيقها وجليلها، فيقرأه ويتفقده ولا يفقد منه شيئًا.

كما أخبر الله عن المجرمين إنهم يقولون: ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩] هذا ونحوه يرجِّحُ أن الكتاب الذي يُؤتاه هو كتاب صحف الأعمال، وأنه يجد فيها دقيقها وجليلها، قولها وفعلها.

فإذا آمن الإنسان أن أعماله مكتوبة ومحصاة عليه، وأنه سيعرض عليه

. . . .

كتابه وأنه لا يقدر على أن ينكر شيئًا، وأنه إن أنكر؛ شهدت عليه الملائكة الكرام الكاتبون الحافظون، وكذلك أيضًا شهدت عليه جوارحه. قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم**﴾ [يس: ٦٥]، فتشهد عليهم هذه الجوارح بما كانوا يعملون: ﴿**شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور: ٢٤]. فإذا آمن الإنسان بذلك كله، فإنه يستعد لذلك اليوم، فيعمل الأعمال التي تكون زادًا منجيًا من هول هذا اليوم.



٣ ـ الإيمان بالحساب:

[ويُحاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، ويَخْلُو بعَبْدِهِ المُؤمِنِ، فيُقَرِّرُهُ بذُنوبِه؛ كَمَا وُصِفَ ذلكَ في الكِتَابِ والسُّنَةِ.

وأَمَّا الكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وسَيِّئاتُه؛ فإِنَّهُ لا حَسَنات لهُمْ، ولكِنْ تُعَدُّ أَعمالُهُم، فتُحْصى، فيُوقَفُونَ عليها، ويُقِرُّونَ بِهَا ويُخْزَون بها].



▪ قوله: **(ويحاسب الله الخلائق، يخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه؛ كما وصف ذلك في الكتاب والسنة)**:

من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر به، ومما أخبر به: الإيمان باليوم الآخر. يوم القيامة، وهو يوم الجزاء والحساب، فنؤمن بالحساب والجزاء.

وقد ذكر الله أنه سريع الحساب، أي يحاسب خلقه في أقل القليل، ويقدر أن يحاسبهم جميعًا في موقف واحد ولا يشغله شأن عن شأن.

الحساب هو إما أن يوقف الإنسان على أعماله، ويقال له: حاسب نفسك كما في قول الله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الإسراء: ١٤]، وهو أنه يعطى كتابه وفيه حسناته وسيئاته، ومقدار كل منهما وجزاؤها ويقال: ﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾هذا نوع من الحساب.

. . . .

ولكن الحساب أيضًا يكون بأن يوقف عليها، ويُسأل عن عذره فيها، ونحو ذلك. وقد ورد في الحديث قول النبي ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**» قالت عائشة: أليس الله يقول: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾؟ قال: «**إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عذب**»[1].

ومعنى مناقشة الحساب: يُسأل عن كل تقصير، ويسأل عن كل سيئة، ويقال: له: ما عذرك في هذا التقصير؟، قد قصرت في هذا العمل، قد تركت هذا العمل، قد اقترفت الذنب الفلاني فما عذرك فيه؟ وما عذرك في ترك شكر النعمة؟ وما عذرك في كفر نعم الله التي منها كذا وكذا؟ وماذا أديت من الحقوق الواجبة عليك؟

فإن العبد لو حوسب حسابًا دقيقًا، لفنيت حسناته مقابل نعم الله عليه، وبقي عليه ذنوب وسيئات لا يجد لها مقابلاً، فيكون مستحقًا للعذاب. هذا معنى قوله: «**من نوقش الحساب عُذب**» فهذا حساب المناقشة، أما حساب العرض الذي في قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الانشقاق: ٨] فهو: أن تعرض عليه أعماله مجرد عرض ويقال: هذه حسناتك قد ضوعفت إلى كذا وكذا، وهذه سيئاتك، وهذه نعم الله عليك، وهذا ما قمت به من حقوقه، وهذا ما أديته من شكر الله على نعمه وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٣٩) في التفسير باب: «﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾». ومسلم برقم (٢٨٧٦) في الجنة، باب: «إثبات الحساب» عن عائشة رضي الله عنها.

. . . .

ففي هذه الحال إذا عرضت عليه ولم يسأل لماذا فعلت؟ ولماذا زدت؟ ولماذا نقصت؟ كان هذا هو حساب العرض؛ أن تعرض عليه أعماله ثم يعفا عنه، فهذا هو الحساب اليسير.

حساب الله تعالى على الأعمال هو: أن تقابل السيئات بالحسنات، وتقابل الحسنات بالنعم، فإن الإنسان عليه حقوق لله تعالي في مقابلَ النعم. وبعض الناس يستكثر أعماله فيقول: عملت أعمالاً كثيرة من صلوات وصدقات وأذكار وقراءة قرآن وجهاد وحج وعمرة وصوم وطواف، ولم أقترف سيئات أبدًا.

فيُقال: من نوقش الحساب عذب؛ وذلك لأن عليك حقوقًا لله تعالي مقابل نعمه عليك، فلو لم يحاسبك إلا على ما أعطاك ويسَّر لك، لكان حقه عليك أكبر، وورد في بعض الأحاديث أن الله يقول لعبده: «**ألم نصحّ جسمك، ونُرْويك من الماء البارد**»[1] فهذه نعمة عامة، صحة الجسم للخلق كلهم.

وكذلك إتمام الخَلْق، بحيث إن الإنسان كاملة أعضاؤه وحواسه ومنافعه، فلم يفقد حاسة يحس بفقدها، ولم يفقد عضواً يختل به توازنه، بل أعضاؤه متكاملة، وذلك من أكبر نعم الله عليه؛ أعني الأغلب من الناس، فيحاسبه الله على هذه الأعمال، ولو أخذ حق هذه النعم لفنيت حسناته، كما ورد أنه يؤتى

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٨) في التفسير. وقال: حديث غريب.

. . . .

برجل وله أعمال صالحة كأمثال الجبال، فيقول الله لملائكته: أدخلوه الجنة برحمتي، فيقول: لا ياربي، بل بأعمالي، هذه الأعمال الكثيرة، فيقول الله لنعمة السمع مثلاً: خذي حقك-يعني من أعماله-، وكذا نعمة البصر، وكذا نعمة الصحة وما أشبه ذلك.

نعمة واحدة إذا أخذت حقها منه؛ فإنها لا تترك له شيئًا. فيقول تعالى: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فيقول: لا يا ربي، أدخلني الجنة برحمتك.

وورد ذلك أيضًا في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[(١)].

أعمالنا مهما كثرت لا تبلغ أن نستحق بها الجنة وإن كانت سببًا، ولكن الله تعالى يتفضل على عباده، فيدخلهم الجنة بواسع رحمته، فإن الله جعل الرحمة مائة جزء، منها جزء واحد يتراحم العباد به في الدنيا فيما بينهم، وكذلك الدواب، وبقية الأجزاء يجمعها يوم القيامة ويرحم بها عباده ويتفضل عليهم، بحيث إنه يتفضل عليهم ويعطيهم واسع الرحمة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٦٣) في الرقاق، باب: «القصد والمداومة على العمل». ومسلم برقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين، باب: «لن يدخل أحد الجنة بعمله». عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٦٤٦٤) في الرقاق، ومسلم برقم (٢٨١٨). عن عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه مسلم برقم (٢٨١٧) عن جابر رضي الله عنه.

. . . .

ولكن للرحمة أسبابًا أي للحصول على الرحمة منها: تقوى الله، فإن الله إنما جعلها لأهلها المستحقين. قال تعالي: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلخ الآية، فجعل الرحمة لمن يستحقها مع أنه كتبها على نفسه.

فالحاصل أن الحساب على الأعمال بأن يقرر بأعماله من سيئات وحسنات، ويُقابل بينها ولا يشدد عليه في المناقشة عن كل تقصير، ولا عن كل سيئة ، ونحو ذلك. هذا بالنسبة لمن لهم حسنات وسيئات.

▪ قوله: (**وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم...**):

الكفار أعمالهم كلها سيئة، فلا حسنات لهم، ولو وجد منهم حسنات في الدنيا؛ فإنهم قد جوزوا بها في الدنيا.

فإذا كان لهم صدقات أو تبرعات أو أعمال خيرية عملوها، أو أعمال حث عليها الإسلام ورغَّب فيها؛ مثل كونهم يستعملون الصدق والوفاء، ويعملون بالأمانة فيؤدونها ويراعون الحقوق، فمثل هذه الأعمال يجازون بها في الدنيا، أو قد يكونون قاصدين باستعمال هذه الصفات الحسنة مصلحة دنيوية؛ فيجازون بها في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فطيباتهم: يعني أعمالهم الصالحة قد استوفوها في الدنيا إذا كانوا قد

. . . .

تصدقوا بصدقات لوجه الله، أو ذكروا الله أو عملوا خيراً، فكل ذلك لن يفيدهم، بل يجازون به في الدنيا، أو تذهب منفعتهم به ولا يبقى لهم عمل، بل يُبطله الكفر؛ وذلك لأن الكفر يحبط الأعمال ويبطل ثوابها.

يقول تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٨]. ماذا تبقي الريح العاصف الشديدة من ذلك الرماد؟ لاشك أنها تحمله كله.

وآية آخرى هي قوله تعالى: ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ** ﴾ الصفوان هو: الصفاة الملساء ﴿ **عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤] يعني مطر شديد، فماذا يبقي المطر الشديد من ذلك التراب الذي على هذه الصفاة؟ لا يبقي شيئًا، فكذلك أعمال الكفار لا يبقى منها شيء، تبطل أعمالهم ويذهب أجرها.

فالحاصل أن الكفار لا حسنات لهم، فإنهم يوقفون على أعمالهم يقال: هذه أعمالكم، هذا شرككم، وهذا كفركم، وهذا جحودكم، وهذه معاصيكم التي عملتموها قد كتبت عليكم وقررت، هل تنكرون شيئًا منها؟ قد ينكرون، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ **وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤]، ولكن لا يقدرون على الكذب بعد ذلك؛ لأنه تشهد عليهم جوارحهم ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النور: ٢٤] تنطق وتقول: ﴿ **أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [فصلت: ٢١] فلا يقدرون على الجحود.

. . . .

وأيضًا فإن أعمالهم قد كتبتها الملائكة، فلابد أنهم يوقفون عليها فيقال لهم: هل تنكرون منها شيئًا؟ فإن أنكروه شهدت عليهم جوارحهم وكذلك شهدت عليهم الملائكة. عند ذلك يعترفون ويقرون، ولا يدخلون النار إلا بعد الاعتراف بأنهم مستحقون للعذاب، وبأنهم مستحقون للنار، فيقال بعد أن يعترفوا: هذا جزاؤكم وهذا مصيركم النار وبئس المصير.

الحاصل أن الحساب في الآخرة الذي يؤمن به أهل السنة هو: حساب الله لعباده المؤمنين، بأن يحاسبهم ويعرض عليهم أعمالهم، ويقررهم بها ويجازيهم عليها، وينقص من الحسنات بقدر السيئات، إذا كان للعبد حسنات كثيرة وسيئات كثيرة، أخذ من الحسنات مقابل السيئات، وما بقي له من الحسنات جوزي عليها.

ومن المعلوم أن الله سبقت رحمته غضبه، ومن ذلك المضاعفة، فقد ذكر الله أن الحسنات تُضاعف ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠] فويلٌ لمن غلبت آحاده عشراته، فإذا كانت سيئاته التي هي واحدة وواحدة وواحدة قد غلبت حسناته التي هي عشر وعشر وزادت عليها فهو من أهل الشقاء.

وفائدة العلم بذلك؛ أن يتأهب الإنسان ليوم الحساب ويستعد له ويعمل الأعمال التي تكثر بها حسناته وتقل بها سيئاته، ويعرف حقوق الله عليه، ويحرص على أداء حقوقه لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين.

. . . .

ويؤمن المؤمنون أيضًا بما يكون في القيامة ، فقد ذكر في الأحاديث طول القيام في يوم القيامة ، وذكر الحساب ، وذكر الميزان والصراط والحوض ، وذكر مع طول القيام دنو الشمس وشدة حرارتها ، وكثرة الحر ، وإلجام العرق لبعض الناس ، وذكر الشفاعة وغير ذلك .

فهذا مما يكون في يوم القيامة في الموقف قبل دخول الجنة والنار .



٤ ـ الإيمان بالحوض وبيان صفته:

[وفي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرُودُ للنَّبيِّ ﷺ، ماؤهُ أَشَدُّ بَياضاً مِنَ اللَّبَنِ، وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، آنيَتُهُ عَدَدُ نجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لا يَظْمَأُ بَعْدَها أَبَداً][1] .



▪ قوله: (وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ...):

الحوض: هو حوض يرده المؤمنون من أمة محمد ﷺ، وورد أيضًا: أن لكل نبي حوضًا[2]، ولكن حوض نبينا أكثر واردًا؛ لأن أمته الذين اتبعوه أكثر من غيرهم، فيرده من أمته المتمسكون والمتبعون له حق الاتباع، ويُطرد ويذاد عنه الذين لم يتبعوه غاية الاتباع، ولم يتمسكوا بسنته من مبتدعة ومشركةونحوهم، ممن لم يحقق اتباع سنته، وممن أشرك بالله ونحوهم.

ويعرفهم ﷺ بعلامة الوضوء، لكونهم يأتون غرًا محجلين، بيض

(١) ورد ما ذكره المؤلف رحمه الله في وصف الحوض في عدة أحاديث. انظر: البخاري رقم (٦٥٧٩، ٦٥٨٠، ٦٥٨٣) في الرقاق، باب: «في الحوض». ومسلم برقم (٢٢٩٢، ٢٣٠٠) في الفضائل، باب: «إثبات الحوض».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٤٣) في صفة القيامة. وابن أبي عاصم في السنة رقم (٧٣٤) وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث «السنة» وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١٥٨٩).

. . . .

الوجوه وبيض الأيدي والأرجل من آثار الوضوء[١].

فهذا الحوض ورد فيه أحاديث كثيرة في صفته. وقيل: إنه الكوثر المذكور في القرآن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وإن كان الصحيح أن الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله إياه. قيل: إن هذا الحوض يصبُّ فيه ميزابان من الكوثر[٢].

ووصف ماؤه بأنه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأن كيزانه وآنيته عدد نجوم السماء، وأن من شرب منه شربة لم يظمأ حتى يدخل الجنة، وأنه إنما يرده المتبعون للنبي ﷺ، وأنه يذاد عنه الذين ارتدوا أو خالفوا ويقال له: إنهم قد ارتدوا، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين

---

(١) كما في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء**» أخرجه البخاري برقم (١٣٦) في الوضوء، باب: «فضل الوضوء». ومسلم برقم (٢٤٦) [٣٥] في الطهارة، باب: «استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء».

(٢) لحديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «**والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها. ألا في الليلة المظلمة المُصْحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه. يَشْخُبُ فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمَّان إلى أيْلة، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**». أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٠) في الفضائل، باب: «إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته».

وفي حديث آخر عن ثوبان «**يغتُّ فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق**». أخرجه مسلم برقم (٢٣٠١). وقوله: يشخب: أي: يسيل. وقوله: يَغُتُّ: أي: يصبُّ.

. . . .

على أدبارهم منذ فارقتهم[1] . ويقول ﷺ في الحديث: «**إنه تأتي فرقة من أمتي، فإذا قربوا من الحوض أحيل بيني وبينهم، ثم تأتي فرقة ثانية فإذا قربوا صُرفوا، فلا أراه يخلص إليّ إلا كهمل النعم**»[2] يعني من كثرة المنحرفين وكثرة المبتدعين.

فالذي يؤمن باليوم الآخر يؤمن بهذا، وذلك لأن الناس يشتد ظمؤهم في يوم القيامة لطول الموقف، ولكن جعل الله للمؤمنين هذا الحوض ليخفف عنهم ذلك الظمأ فيؤمن المسلمون والمؤمنون باليوم الآخر وبما فيه من التفاصيل، ويعتقدون أنها ثابتة حقيقية، وأنها على ما تواترت بها الأحاديث وثبتت به السنة، وهي من الأمور الغيبية التي يؤمنون بها، فتدخل في قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة: ٣] يعني بما أخبروا عنه مما غاب عن أعينهم.



---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٨٤، ٦٥٨٥، ٦٥٨٦، ٦٥٨٧، ٦٥٧٩، ٦٥٨٠، ٦٥٩٣) في الرقاق. ومسلم برقم (٢٢٩٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٥) في الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٨٧) في الرقاق، باب: في الحوض». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥ ـ الإيمان بالصراط وصفته ومكانه:

[والصِّراطُ مَنْصُوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وهُو الجِسْرُ الَّذي بينَ الجَنَّةِ والنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أَعْمالِهِمْ، فمِنْهُم من يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، ومنهُمْ مَنْ يَمُرُّ كالبَرْقِ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالرِّيحِ، ومنهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوادِ، ومِنْهُم مَنْ يمرُّ كرِكَابِ الإِبلِ، ومنهُمْ مَنْ يَعْدو عَدْواً، ومنهُمْ من يَمْشي مَشْيًا، ومنهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، ومنهُم من يُخْطَفُ خَطْفًا ويُلْقى في جَهَنَّمَ؛ فإِنَّ الجِسْرَ عليهِ كَلاليبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بأَعْمالِهِم](١) .



■ قوله: (والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم...):

من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما بعد البعث، ومن جملة ما بعد البعث: الصراط، وقد ورد ذكره في السنة وإن لم يصرح به في القرآن، قال بعضهم: إنه مذكور في القرآن بلفظ غير صريح وهو الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] قيل: إن ورود الناس كلهم يتمثل في

(١) أخرج الحديث في ذلك: البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قوله الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾». ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

مرورهم على هذا الصراط .

ولكنه ورد صراحة في السنة في أحاديث متفق عليها أو محققة الصحة ، وإن لم تكن متفقًا عليها ، فلما كان كذلك صدقها أهل السنة ، واعتقدوا ثبوت ما جاء فيها ، وأدخلوها في جملة عقائدهم .

وذلك لأن الأحاديث الصحيحة الثابتة تفيد اليقين ، فتدخل في جملة الاعتقاد ، وإن خالف في ذلك من خالف من طائفة أهل الكلام الذين قالوا : إن الأحاديث الآحادية لا تفيد اليقين ، عللوا هذا بقولهم : إن أحاديث الصراط لم تبلغ حد التواتر فلا يعتقد مدلولها ، وذلك لأنهم ردوا أحاديث أصح منها وأكثر ، مثل أحاديث نزول الرب كما يشاء في كل ليلة كما ورد في الأحاديث الصحيحة الثابتة ، ومع ذلك ردوها ؛ لأنها أخبار آحادية ولأنها في العقيدة ، والعقيدة لابد فيها من اليقين والأخبار المتواترة ونحوها .

فيقال لهم : كذلك أحاديث أحوال الآخرة ، أنتم تعتقدونها وتصدقون بمدلولها ، فتؤمنون مثلاً وتصدقون بأحاديث تطاير الصحف والحوض ، وبأحاديث الصراط وبأحاديث القنطرة وما أشبه ذلك ، وإن لم يبلغ بعضها حد التواتر فتصدقون بذلك ، فقد فرقتم بين متماثلين .

والحاصل أن من جملة الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بالصراط . والصراط كما ذكر منصوب على متن جهنم ، وهو جسر بين الجنة والنار ، أو أنه على متن النار يمر الناس عليه في طريقهم وعبورهم ، فيمرون على النار .

. . . .

فالمؤمن قوي الإيمان لا يحسُّ بحرارة النار، ولا كأنه مر عليها، حتى ورد في بعض الآثار أن النار تقول: جُز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي[1]. وذلك في أثناء هذا العبور، فيمر الناس على هذا الصراط على قدر أعمالهم في الدنيا، وعلى قدر تمسكهم بالصراط المستقيم في الدنيا، فإن هنا صراطًا مستقيمًا في الدنيا وصراطًا مستقيمًا في الآخرة، إلا أن صراط الدنيا معنوي، وصراط الآخرة حسي، فالذي يتمسك بالصراط المعنوي، يوفق للسير والسلوك على الصراط الحسي.

والصراط المعنوي هو الذي نسأل الله في صلاتنا أن يهدينا نقول: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣] تقدم في الآيات إرشادات وأوامر ذكر الله تعالى أن هذه الإرشادات من الصراط الذي أمر الله الناس بأن يسلكوه فقال: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا** ﴾ يعني هذه الإرشادات وهذه الأوامرالتي أولها قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾[الأنعام: ١٥١] إلخ الآيات.

ذكر في هذه الآيات إرشادات: **أولها**: النهي عن الشرك. **وثانيها**: الأمر بالإحسان إلى الوالدين. **وثالثها**: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر. **ورابعها**: النهي عن قربان الفواحش ما ظهر منها وما بطن. **وخامسها**: النهي

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠). وقال: رواه الطبراني وفيه سليم بن منصور ابن عمار وهو ضعيف، ولذلك لم يجزم الشارح حفظه الله بثبوته.

. . . .

عن قتل النفس بغير حق. **وسادسها**: النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن. **وسابعها**: الأمر بإيفاء المكاييل والموازين بالقسط. **وثامنها**: الأمر بالعدل في الأقوال والأفعال ونحوها، إلى أن تمت هذه الإرشادات وأتمها الله تعالى بقوله: ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢] وهذا هو الأمر التاسع. ثم الأمر العاشر قوله: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهذه الأشياء هي الصراط المعنوي الذي في الدنيا، فالذي يكون عاملاً بهذه الأوامر وتاركًا لهذه المحرمات، هو الذي يكون مهتديًا على الصراط المستقيم.

وقد ذكر الله تعالى أنه صراط المُنْعَم عليهم. وفسر الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

هؤلاء هم أهل النعمة الذين نقول عنهم في صلاتنا: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحة: ٧]، فالذي يسلك طريق هؤلاء، ويعمل بأعمالهم، ويتبع إرشاداتهم، ويسير على نهجهم، ويقتفي سنة الأنبياء والخلفاء الراشدين والصحابة المهديين والشهداء الصالحين، وسلف الأمة وأئمتها المهديين، ويسلك طريقهم سواء في الأعمال أو في الاعتقادات، فهذا من الذين اهتدوا وساروا على هذا الصراط المعنوي، فإذا وفق العبد لهذا الصراط وتجنب طريق أهل الغضب وأهل الضلال؛ فإنه يسير في الآخرة على الصراط الحسي سيراً

. . . .

مستقيمًا، لكن على قدر تمسك الناس.

وذلك أن تمسك الناس في هذه الدنيا بالصراط وسيرهم عليه مختلف، فمنهم من يكون سيره بطيئًا، بحيث إنهم في الدنيا يخلون بكثير من الواجبات، ويرتكبون كثيراً من المحرمات ويقصرون ويخالفون في شيء من الاعتقادات، فيكون سيرهم في الدنيا سيراً ضعيفًا.

ومنهم من يكون متوسطًا فيكون محافظًا على الواجبات، وتاركًا للمحرمات، وإن لم يحافظ على السنن والمندوبات وإن لم يترك المكروهات والمباحات ونحوها، فهذا سيره على الصراط الأخروي أقوى من الأول.

وهكذا، من كان أتم تمسكًا بالصراط الدنيوي المعنوي بأن يكون مثلاً محافظًا على الواجبات، وآتيًا للمستحبات، وتاركًا لجميع المحرمات، وتاركًا للمكروهات ولبعض المباحات، فهذا هو الذي يكون سيره سريعًا غاية السرعة على ذلك الصراط المستقيم الذي ينصب على متن جهنم.

وقد ورد في أوصاف الصراط الأخروي أوصاف كثيرة، ولكن بعضها لم يثبت، وقد ورد في أحاديث صححها بعضهم ما يدل على دقته وحرارته؛ فورد أن الصراط الذي يسير الناس عليه: أحر من الجمر، وأنه أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف لكن بعض ذلك لم يثبت، وغالبه يكون من القصاص، لكن بعض الروايات التي ورد فيها أنه أدق من الشعرة وأحد من

. . . .

السيف[1] صححها بعض العلماء، وكذلك وصفه بأنه أحرُّ من الجمر قد رواه بعض العلماء .

فعلى كلٍ هذا يدل على أن هذا الصراط في غاية من الدقة والحرارة، ولكن يثبت الله عليه أهل الإيمان حيث ثبتوا على أعمالهم وعقائدهم في الدنيا، فثبتهم على هذا الصراط في الآخرة. وهكذا أيضًا لما كانوا متمسكين بالأعمال الصالحة في الدنيا، كان تمسكهم سببًا في سرعة قطعهم لهذا الصراط بسرعة.

فقد روي في بعض الآثار في وصفه أن طوله مسيرة ألف عام صعودًا واستواءه مسيرة ألف عام، وأن الهبوط منه أيضًا مسيرة ألف عام.

وإذا كان كذلك فمتى يقطعه الذي يسير سيرًا معتادًا؟ . ولكن لما كان الذين رزقهم الله الأعمال الصالحة والاستعداد للقاء الله تعالى قد كملوا ما طلب منهم؛ رزقهم الله سرعة السير عليه، فلذلك ذكر في هذه الأحاديث أنهم يسيرون عليه سيرًا سريعًا، فمنهم من يمر كالبرق.

قيل للنبي ﷺ : وأي شيء كالبرق. قال: **«ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفةِ عين»**[2] . فلا تراه قد ظهر إلا ويختفي في لحظة وفي طرفة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١٠) وفي سنده ابن لهيعة.
وذكره مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري برقم (١٨٣) في الإيمان. قلت: وهو مما لا يقال بالرأي فله حكم الرفع والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٥) في الإيمان، باب: «أدنى أهل الجنة منزلة». عن حذيفة رضي الله عنه.

. . . .

عين.

ومنهم من يمر كالريح، والريح معلوم سرعة سيرها فإنها تقطع مسافات كبيرة في لحظات فإنها تأتي من الشمال مثلاً ثم لا تلبث أن تمر على بلاد كثيرة في تلك الجهة، حيث إن الله تعالى يسيرها كيف يشاء.

فمن الناس من يمر كهذه الريح في سرعتها وانطلاقها، ومنهم - كما في بعض الروايات - من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، والفرس أيضًا سريع السير، لشدة جريه؛ يقطع المسافات الطويلة في زمن قصير.

ومنهم من يمر كركاب الإبل، كالذين يركبون الدوابَّ على الإبل، ومنهم من يمشي مشيًا على الأقدام، ومنهم من يزحف زحفًا على يديه، أو على رجليه، أوعلى مقعدته.

ويسير الناس أيضًا على هذا الصراط على قدر أنوارهم، وقد ورد في بعض الآثار أنهم يعطون أنواراً يسيرون بها. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وذلك أنها تُقسم عليه الأنوار، فإذا ساروا قليلاً؛ انطفأت أنوار المنافقين وقالوا للمؤمنين: أعطونا قبسًا من نوركم، فإذا قالوا ذلك قالوا لهم: ارجعوا حيث قسّمت الأنوار اطلبوا نوراً لكم، فيسير المؤمنون على هذا الصراط على قدر أنوارهم التي أعطوها.

. . . .

يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ فمنهم من يكون نوره كالجبل يضيء له مدّ بصره بحيث لا يخفى عليه شيء مما أمامه، ومنهم من يكون دون ذلك، حتى ورد في بعض الأحاديث أن منهم من نوره على رأس إبهامه؛ ينطفئ ساعة ويتقد أخرى، فإذا اتَّقد قدَّم رجله، وإذا انطفأ وقف. فسرعة سيرهم وبطؤه وقوة أنوارهم وضعفها، يرجع إلى أعمالهم في الدنيا.

ثم ذكر أيضًا أن منهم المخطوف والملقى في النار، حيث ورد في الحديث قول النبي ﷺ: «**ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلِّم سلِّم**» فلا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعواهم اللهم سلم سلم، ويقول: «**وعلى جنبتي الصراط كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف من أُمرت بخطفه، فناجٍ مُسَلَّم، ومخدوش ومكردس في النار**»[1].

فمنهم من ينجو ويسلم بفضل الله تعالى عليه، ومنه من يخدش بأن يناله ما يناله من تلك العقبات ومن تلك الضربات ونحوها. ومنهم من تخطفه تلك الكلاليب.

والكلاليب هي حديد معكوف رأسه محدّد يجتذب به اللحم إذا ألقي في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٧) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

النار ، فتلك الكلاليب كثيرة الرؤوس ومثلها النبي ﷺ بشوك السعدان لكثرة رؤوسه المحددة إلا أنه قال : «**غير أنه لا يعلم قدرها إلا الله**» .

فتخطف من أمرت بخطفه ، فإذا اختطف الذي أمرت بخطفه فلا شك أنه يسقط ، وليس تحته إلا النار والعياذ بالله ، فالذي ينجو من هذا الصراط هو الذي ينجو من العذاب ولا يدخل النار أصلا ، والذي يقع فيها هو الذي يقع في العذاب .



٦ ـ القنطرة بين الجنة والنار:

[فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الجَنَّةَ. فإذا عَبَرُوا عَلَيْه وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرةٍ بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجنَّةِ][1] .



▪ قوله: **(فمن مرّ على الصراط دخل الجنة. فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار...)**:

بعد ما ينجو الناس ويقطعون هذا الصراط على قدر طوله أو قصره وعلى قدر بطء أو سرعة سيرهم، يقفون على قنطرة بين الجنة والنار.

والقنطرة في الأصل: هي المكان الذي يكون بين حاجزين أو بين بحرين كساحل بين البحرين ونحو ذلك.

وقد تكون القنطرة أيضًا جسرًا واسعًا يتسع لهم، فهذا الجسر أو هذه القنطرة التي هي معبر لهم واسعة تتسع لهم، فيقفون ويحاسبون، يحاسبهم الله تعالى فيما بينهم، ويقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى لا يدخل الجنة أحد وهو يحقد على إخوته، لا يدخلونها إلا وقد طابت نفوسهم، وقد زالت الضغائن والبغضاء والشحناء التي بينهم.

---

(١) أخرج الحديث في ذلك البخاري رقم (٦٥٣٥) في الرقاق، باب: «القصاص يوم القيامة». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

وهذا من حكمة الله تعالى وهو أنه لا يدخلهم الجنة إلا بعد أن يهذبوا وينقوا، ويزول ما بينهم كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ فالضغائن والغل الذي في قلوبهم يزول ويبقون إخوة متحابين.

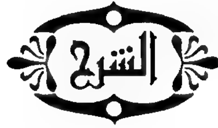
فيعتقد المسلم هذه الأمور الغيبية ويعلم أن أدلتها واضحة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ويعلم أنها لابد واقعة، وأن الذي يصدق بها لاشك تظهر عليه آثار التصديق، وذلك بالاستعداد له والتأهب لوروده.

فإن الذي يؤمن بهذا الصراط، ويعرف أنه إنما يسلكه ويوفق في السير عليه إذا كان مستويًا سيره على هذا الصراط، يستعد لذلك ويفكر هل أنا مستقيم على الصراط الدنيوي أو لا؟، فإذا رأى في نفسه خللاً أو نقصًا تفقد ذلك وتلافاه.



٧ ـ أول من يدخل الجنة :

[وأَوَّلُ مَنْ يسْتَفْتِحُ بابَ الجنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ مِن الأممِ أُمَّتُه] .



▪ قوله : **(وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته)** :

في هذا فضيلة وميزة لنبينا ﷺ ، وهو أنه أول من يستفتح باب الجنة ، فقد ورد في حديث أن خازن الجنة يقول : «**أمرت ألا أفتح لأحد قبلك**» عندما يستفتح الباب فيقول : من أنت ؟ فيقول : «**محمد**»[1] .

وقد ذكر الله أن أهل الجنة يساقون إليها زمرًا ، ثم قال : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ [الزمر : ٧٣] وهذا يدل على أنهم إذا وصلوا إليها فتحت أبوابها .

ثم ذكر أيضًا أن من فضيلته كون أمته تابعة له ، وأنها أول من يدخل الجنة من الأمم ، حيث إن نبيها أول الأنبياء دخولاً ، ودليل ذلك الحديث الذي يقول فيه ﷺ : «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[2] يعني نحن متأخرون في

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧) في الإيمان ، باب : «في قول النبي ﷺ : «**أنا أول الناس يشفع في الجنة...**» . عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٢٤) في الأيمان والنذور ، باب : «١» . ومسلم برقم (٨٥٥) في الجمعة ، باب : «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

الوجود، فإن هذه الأمة هي آخر الأمم وجودًا ونبيها هو خاتم الأنبياء، ولكنهم هم السابقون يوم القيامة، فمن فضلهم أنهم يسبقون يوم القيامة إلى الجنة وإلى الثواب.

فقد تقدم لنا أنهم إذا عبروا الصراط وُقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هذبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، فإذا أذن لهم كان محمد ﷺ هو الذي يطرق الأبواب، فأول من يطرق الأبواب هو، ثم بعد ذلك تفتح أبواب الجنة على مصاريعها، فتدخل أمته، ويدخل بعدها سائر الأمم الذين من أهل الجنة.



٨ ـ أنواع شفاعات النبي ﷺ :

[ولهُ ﷺ في القيامَةِ ثلاثُ شَفاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفاعَةُ الأُولى؛ فيشفَعُ في أَهْلِ المَوْقِفِ حتى يُقْضَى بينَهُمْ بعدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأنْبياءُ: آدَمُ، ونوحٌ، وإِبراهيمُ، ومُوسى، وعيسى ابنُ مَرْيَمَ عن الشَّفاعَةِ حتى تَنْتَهِيَ إِليهِ.

وأَمَّا الشَّفاعَةُ الثَّانيةُ؛ فيشْفَعُ في أهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلوا الجَنَّةَ.

وهاتانِ الشَّفاعَتانِ خاصَّتانِ لَهُ.

وأَمَّا الشَّفاعةُ الثَّالثَةُ؛ فيشفَعُ فيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ، وهذهِ الشَّفاعَةُ لهُ ولسائرِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ وغيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَها، ويَشْفَعُ فيمَنْ دَخَلَها أنْ يَخْرُجَ مِنْها.

ويُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوامًا بغيْرِ شَفاعَةٍ، بَلْ بفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ، ويَبْقى في الجَنَّةِ فضلٌ عَمَّنْ دَخَلَها مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا، فيُنْشِئُ اللهُ لَها أَقْوامًا، فيُدْخِلُهُمُ الجنة].



■ قوله: (وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات:...):

ذكر المؤلف الشفاعات فقال: «وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات»، وهذه

. . . .

هي الشفاعات المشهورة، وإلا فقد أوصلها بعضهم إلى أنها خمس شفاعات:

الشفاعة الأولى: شفاعته إلى الله تعالى لفصل القضاء.

الشفاعة الثانية: شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها.

الشفاعة الثالثة: شفاعته لقوم دخلوها أن يُزاد في ثوابهم.

الشفاعة الرابعة: شفاعته لبعض أهل النار أن يخرجوا منها.

والشفاعة الخامسة: شفاعته لبعض أهل النار أن يخفف عنهم من عذابها.

فالمشهور أن له خمس شفاعات ومنهم من أوصلها إلى ست أو سبع أو ثمانٍ، ولكن الصحيح أنها متداخلة.

فالنبي ﷺ هو الذي يشفع حتى تفتح أبواب الجنة ويدخلها أهلها، فتكون الشفاعة في دخول الجنة خاصة به، ولهذا جعل هنا هاتين الشفاعتين من خصائصه وهما: الشفاعة لفصل القضاء، والشفاعة في دخول الجنة أي في فتح أبواب الجنة ليدخلها أهلها من هذه الأمة ومن غيرهم.

والشفاعة معناها: الوساطة، وهي في حق الرسل ونحوهم من الذين يشفعون عند الله، وهي بمعنى السؤال والطلب، أي أنهم يطلبون من الله كذا وكذا، فسؤالهم وطلبهم من الله يعتبر شفاعة لأممهم، وفيه نفع وخير لأتباعهم.

هذا معنى كونها شفاعة، وقد ذكر الله تعالى أن هذه الشفاعة لا تنفع عنده إلا إذا أذن للشافع أن يشفع، وللمشفوع فيه أن يُشفع فيه.

. . . .

أما الشفاعة الأولى التي هي الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة التي يترادّها ويتراجع عنها أولو العزم فهذه شفاعة لأجل فصل القضاء بين العباد عندما يطول الموقف، ويتضرر الناس بطول الموقف في يوم القيامة؛ يجول بعضهم في بعض ويقولون: ألا ترون إلى ما نحن فيه، ألا تطلبون من يشفع لكم؟

فيأتون آدم ويقولون: هو أحق من غيره فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، فاشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه!! ألا ترى ما قد أصابنا!! فيعتذر آدم ويقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا ذنب أبيكم. فيقول لهم: اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

وهكذا إذا جاءوا نوحًا ردهم إلى غيره وقال: اذهبوا إلى إبراهيم، ثم بعد إبراهيم موسى، ثم بعد موسى عيسى، ثم بعده يأتون إلى محمد ﷺ فيقول: «**أنا لها**»[1]، حتى يراحوا من طول العناء ومن هول المطلع، ومن الغم الذي هم فيه في الموقف.

وهذه الشفاعة قيل: إنها هي المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿**عَسَىٰ أَن**

---

(١) أخرج الحديث في ذلك: البخاري برقم (٧٤١٠) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾». ومسلم برقم (١٩٣) في الإيمان، باب: «أدنى أهل الجنة منزلة». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يعني يحمدك فيه الأولون والآخرون، وذلك عندما يكون سببًا في أن ينزل الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، ويريحهم من ذلك الموقف الطويل، وهذه الشفاعة خاصة به.

أما الشفاعة الثانية: فتكون عندما يوقفون عند أبواب الجنان، ويتوقف دخولهم على أن يطلب من الله فتح أبواب الجنان فيفتح لهم، وهذه الشفاعة خاصة به أيضًا، في أنه يشفع حتى تفتح أبواب الجنة، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة، وهم أهل الجنة الذين يستحقونها بفضل الله ثم بأعمالهم، لا يدخلونها إلا بعدما يشفع لهم.

وهذه الشفاعة تعتبر من الله تكريمًا لنبيه وإظهارًا لشرفه عند الناس في ذلك الموطن، فيكرمه بها لينال في هذا الموقف المقام المحمود، فهو سبحانه وتعالى أذن له بهذه الشفاعة مع أنها ملكه، فالشفاعة ملك لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ** (٤٣) **قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٤٣].

فلما كانت الشفاعة ملكًا لله صارت لا تُطلب إلا منه، ولكنه تعالى يقبل شفاعة نبيه ليكرمه، ويظهر فضله، ويرفع شأنه ويعطيه المقام المحمود الذي وعده به في هذه الآية﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ وإلا فهو سبحانه قادر على أن يدخلهم الجنة بدون سؤال، وبدون شافع، وكذلك أن يفصل بينهم، ولكنه تعالى أذن لنبيه بهذه الشفاعة ليظهر بذلك فضله.

. . . .

بينهم، ولكنه تعالى أذن لنبيه بهذه الشفاعة ليظهر بذلك فضله.

أما الشفاعة الثالثة: فذكر أنها ليست خاصة به، بل يشاركه فيها الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة والأطفال وغيرهم، فإنهم يشفعون في يوم القيامة فيمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرج منها.

وذلك أنه يدخل النار قوم من أهل الإسلام ومن أهل التوحيد بسبب كبائر وذنوب اقترفوها، وقد ماتوا مصرين على ترك شيء من العبادات، أو ماتوا مصرين على اقتراف شيء من السيئات أو كبائر الذنوب، فلم تنلهم رحمة الله، ولم يحصلوا على مغفرته فدخلوا النار.

ودخولهم النار يكون تمحيصًا لسيئاتهم، ومحوًا لذنوبهم، وتطهيرًا لهم مما اقترفوه في الدنيا، ويبقى أصل العقيدة وأصل التوحيد والإسلام معهم، ولكنهم لم يعطوه حقه، ولم يطبقوه حق التطبيق، فاستحقوا أن يعذبوا بقدر ذنوبهم وسيئاتهم.

ثم بعد ذلك يأذن الله في أن يُشفع في إخراجهم، فيشفع فيهم الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة وغيرهم، فيقول الله تعالى: أخرجوا من عرفتم من أهل التوحيد والإسلام، فيعرفونهم بأثر السجود في الصلاة، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**حرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود**»[1] يعني أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها في الصلاة، وهذا يدل على أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٣) في الرقاق، باب: «الصراط جسر جهنم». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

لبعض الذنوب، حتى ولو دخل النار، ثم يقول الله: **«أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان»**، إلى أن قال: **«مثقال أدنى ذرة من إيمان»**[1].

يعني أخرجوا كل من يشمله اسم الإيمان وكل من كان في قلبه إيمان وإن كان ضعيفًا، وبسبب ضعف إيمانه تجرأ على الذنوب واستخف ببعض العبادات، فكان سببًا في دخوله النار، فإذا هُذب ونُقي وصُفي وطُهِّر ومُحِّص؛ محصته النار وأكلت ما اقترفه، عند ذلك يأمر الله تعالى بالشفاعة فيشفع فيهم، فيخرجون من النار، وقد احترق كثير منهم، يقول في الحديث: **«فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»**[2] وفي بعض الروايات أن أهل الجنة يسمونهم: الجهنميين[3] يعني أنهم قد دخلوا النار ثم أخرجوا منها.

هذه الشفاعة التي هي شفاعة عامة هي في حق العصاة الذين دخلوا النار بسبب بعض المعاصي، وهي كما عرفنا عامة، ولا تنفع إلا أهل التوحيد الذين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠) في التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم». ومسلم برقم (١٩٣) [٣٢٦] في الإيمان، باب: «أدنى أهل الجنة منزلة فيها». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٣) في الرقاق، باب: «الصراط جسر جهنم». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٥٦٦) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». من حديث عمران ابن حصين ورقم (٦٥٥٩) من حديث أنس بن مالك.

. . . .

رضي الله عنهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وكذلك أيضًا لا تكون هذه الشفاعة إلا بعد إذن الله، فلهذه الشفاعة شرطان:

الشرط الأول: إذن الله للشافع.

والشرط الثاني: رضاه عن المشفوع.

جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ**﴾ [النجم: ٢٦] يأذن الله لمن يشاء من الشافعين ويرضى أن يُشفع في ذلك للمذنب ونحوه.

وأنت تعرف أن الله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد وأهل الإسلام، فالذي يموت وهو كافر، أو يموت وهو مشرك، هذا لا يرضى الله عنه لقوله تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧] فإذًا لا حظّ في هذه الشفاعة لكافر ولا لمشرك، إنما هي خاصة بأهل التوحيد المذنبين.

وقد ثبت أن أبا هريرة قال للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[1]؛ يعني من كان محقًا ومخلصًا في توحيده وعقيدته، وكذلك ثبت أنه عليه السلام قال: «**إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي**»[2]، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٠) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار».

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٤) في الدعوات، باب: «ولكل نبي دعوة مستجابة». ورقم (٧٤٧٤) في التوحيد. ومسلم برقم (١٩٨، ١٩٩) في الإيمان، باب: «اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وهذه الشفاعة التي تكون في إخراج من يُخرج من النار ممن دخلها، تنفع أهل الإسلام والعقيدة وكذلك فإنها إنما تطلب من الله، ولا تُطلب من الأنبياء ولا من الأولياء ولا من غيرهم، فإذا طلبتها فاطلبها من مالكها وهو الله فتقول: اللهم شفع فيَّ نبيك أو أنبياءك، أو تقول: اللهم اجعلني ممن تنفعه شفاعة الشافعين، أو اللهم ارزقني عملاً أنال به شفاعتهم، أو نحو ذلك.

وقد أنكر هذه الشفاعة بعض المبتدعة: كالخوارج والمعتزلة بناءً منهم على تكفير وتخليد أهل الكبائر في النار، وأن من دخل النار من أهل الكبائر لا يُخرج منها، وذلك أصل أصّلوه: أن الوعيد الذي رتب على من قتل مثلاً؛ أو من أكل مال اليتيم أو أكل ربا أو نحو ذلك مما ورد فيه وعيد شديد، فيقولون: إنه لابد من إنفاذ ذلك الوعيد، فأنكروا لأجل ذلك الشفاعة.

ومن جملة ما استدلوا به قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ وقوله: ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ وقوله: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ ولكن المراد بهذه الآيات الشفاعة الشركية وهي التي تُطلب من غير الله.

فهذا ما يتعلق بهذه الشفاعة، وهي جزء مما يكون في يوم القيامة. وما تضمنته الآخرة من أمور، وما يكون في يوم القيامة من خطوب وأهوال شيء كثير.

[وأصنافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ والثَّوابِ والعِقَابِ والجَنَّةِ والنَّارِ وتَفَاصِيلُ ذلك مَذْكُورةٌ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِن السَّمَاءِ، والآثارِ مِنَ العِلْمِ المَأْثورِ عَنِ الأنْبِيَاءِ، وفي العِلمِ المَوْروثِ عنْ محمَّدٍ ﷺ مِن ذلكَ مَا يَشْفِي ويَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغاهُ وَجَدَهُ].



▪ **قوله: (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء...):**

ومن أراد التفصيل في أمور الآخرة من موت وبعث ونشر وحساب وعقاب وجنة ونار، فعليه بالكتاب والسنة، فكل ذلك موجود فيه مفصلاً، وكذلك هو مذكور في كتب الأنبياء السابقين، ولكن كتابنا الذي أنزل على نبينا ﷺ اعتنى بالتفصيل والتوضيح ليوم القيامة، ولما يكون بعد الموت، أشد اعتناءً وأكثر اهتمامًا من الكتب السابقة؛ وذلك لأن الإيمان بهذا اليوم يترتب عليه الاستعداد والتأهب للقاء الله تعالى، وهو كما عرفنا ركن من أركان الإيمان، فالذي يؤمن به يُتْبِعه العمل الصالح الذي تحصل به النجاة من العذاب والفوز بالجنان.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يحقق إيمانه، ويصدق في أعماله.



الإيمان بالقدر خيره وشره

[وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ].



▪ **قوله: (وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره):**

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، والقدر يراد به التقدير؛ ومعناه: تحديد الشيء بمقدار، وقد ذكر الله القدر في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ [الفرقان: ٢] والمعنى: أن حوادث الدنيا مقدرة وما يكون وما يحدث، فليس للإنسان عنه مفر ولا مهرب؛ لأنه قد كتب عليه قبل أن يخلق، وسيأتي دليل ذلك من أن الله تعالى إذا خلق الجنين أمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، أي تقدير الأشياء وتحديدها في أماكنها وفي أوقاتها.

فعلم الله تعالى عدد الخلق قبل أن يخلقهم، وعلم أعمال الخلق وما سوف يعملون، ومن يكون منهم من أهل الخير، ومن يكون من أهل الشر، ومن هو سعيد أو شقي، علم ذلك قبل أن يخلقهم. وهذا سبب تسميته قدراً، وقد

. . . .

تكاثرت الأحاديث في الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومُرِّه، وبيان أصل القدر.



مراتب الإيمان بالقدر:

[والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتَيْن كلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ] .

الدَّرَجَةُ الأولى: العِلمُ وَالكِتَابةُ:

[فالدَّرَجَةُ الأولى: الإِيمانُ بأَنَّ اللهَ تَعَالى علمَ ما الخلقُ عَامِلُونَ بعِلْمِهِ القَديمِ الذي هُوَ مَوْصوفٌ بهِ أَزَلاً وأَبدًا، وَعَلِمَ جَميعَ أحوالِهِمْ مِن الطَّاعاتِ والمَعاصي والأَرْزاقِ والآجالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مَقاديرَ الخَلْقِ.

فأَوَّل مَا خَلَقَ اللهُ القَلَم قالَ لهُ: اكْتُبْ. قالَ: ما أَكْتُبُ؟ قالَ: اكْتُبْ مَا هُو كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ.

فمَا أَصَابَ الإِنْسانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، ومَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ، جَفّتِ الأَقْلامُ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَما قالَ تَعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

. . . .

الشرح

■ قوله : (والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين. . .) :

يقول المؤلف : الإيمان بالقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين :
الدرجة الأولى : تتضمن العلم والكتابة .

والدرجة الثانية : تتضمن الإرادة والخلق ، بمعنى أن الله أراد الكائنات وخلقها .

فابتدأ بالدرجة الأولى لأنها أقدم حدوثًا ، وأول ما وجد الخلاف هو مع الذين ينكرون القدر السابق ، أي تقدير الأشياء قبل أن توجد ، وحدث ذلك في آخر عهد الصحابة ، كما نقل ذلك يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني .

قال : فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء ، فوفِّق لنا عبد الله بن عمر داخلاً الحرم فابتدرناه ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن إنه قد خرج قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم ، وإنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف فقال : إذا لقيت أولئك ، فأخبرهم أني منهم بريء وهم مني براء ، والذي نفسي بيده ، لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ، ما قبله الله منه حتى يؤمن

. . . .

بالقدر خيره وشره[١] .

هؤلاء الذين حدثوا ينكرون تقدير الخلائق قبل أن توجد، وينكرون علم الله بالخلائق قبل أن توجد، وينكرون كتابة المخلوقات وآجالها في اللوح المحفوظ قبل أن توجد، ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا.

المعنى: اسألوهم وقولوا لهم: أليس الله بكل شيء عليم؟ أليس الله عليم بذات الصدور؟ إذا اعترفوا بأن الله بكل شيء عليم، كما قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤] وقال: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦] قلنا لهم: ما الفرق بين علم الماضي وعلم اللاحق، إذا كان الله علم ما مضى، علم عدد ما خلق فيما مضى، وآجالهم، وأعمارهم، فما الفرق بين علمه بالسابقين وباللاحقين؟.

إذًا هو بكل شيء عليم، يعلم عدد الموجودين الذين لم يوجدوا، ويعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ فالذي لم يوجد يعلم بأنه سيوجد في وقت كذا وكذا، وأنه سيحصل له كذا وكذا، ويعلم من سيولد، وأعمار من سيولد، والوقت الذي سيولد فيه هذا المولود، وما أشبه ذلك.

وهذا النوع من علم الله تعالى قديم، موصوف به أزلاً وأبدًا، لم يحدث له

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) في الإيمان، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان».

. . . .

وَصْفٌ، لأن الرب تعالى قديم لم يسبق بعدم، وصفاته قديمة موصوف بها أزلاً، وموصوف بها أبدًا.

أزلاً: أي قدمًا. وأبدًا: أي مستمرًا.

فهو سبحانه موصوف بالعلم أزلاً وأبدًا، فهو يعلم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، علم ما سيعمل هذا وهذا، وهؤلاء الذين لم يوجدوا، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا، وعلم مقادير الخلق، وعددهم، وأرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وأعمارهم، وأوقاتهم، وعددهم، وذكورهم، وإناثهم، ونحو ذلك، كل ذلك في علم الله.

وقد ثبت في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن **«أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: ما أكتب؟ فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**[1].

وذلك لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** [يس: ٨٢] فجرى القلم بما هو كائن، كما قال النبي ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥٥) في القدر. وأبو داود برقم (٤٧٠٠) في السنة. وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت. وأخرجه الترمذي أيضًا برقم (٣٣١٩) في التفسير. وقال: حسن غريب.

. . . .

بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام وجَفَّت الصحف»[١] .

طويت الصحف على ما هو مكتوب فيها، فلا يزاد فيها ولا ينقص، وجفت الأقلام: أي يبست فلا حاجة إلى كتابة، ورفعت، فكل شيء قد فُرغ منه، قد فرغ الله من الخلق، وقد علم مقاديرهم، وعددهم ونحو ذلك.

ثم من الأدلة على ذلك هذه الآية من سورة الحج وهي قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحج: ٧٠] يعلم كل شيء في السموات وفي الأرض، وكل شيء سيكون ولم يكن ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ .

ويقول تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ فمثاقيل الذرِّ والحبات ونحوها، كل ذلك مكتوب في كتاب، وعدد أوراق هذه الشجرات مكتوب، وإذا سقطت ورقة فسقوطها معلوم، ولا حبة تحدث في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، كل ذلك مدون ومكتوب قبل أن توجد الخلائق بأسرها.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) في صفة القيامة. وقال: حسن صحيح. وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) قال أحمد شاكر (٢٦٦٩): إسناده صحيح.

. . . .

والحكمة في إخبار الناس بذلك مذكورة في هذه الآية التي في سورة الحديد: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

هذه هي الحكمة؛ ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ**﴾ كل مصيبة حدثت ﴿**فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ**﴾ ما أصاب في الأرض من جدب أو من قحط، أو من مرض، كل ذلك مكتوب في كتاب من قبل أن نبرأها، وكذلك ما أصابكم في أنفسكم من مرض، من موت، من فقر، من فتن، من قتل، كل ذلك مكتوب في كتاب: ﴿**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ أي من قبل أن تحدث هذه المصيبة، بل من قبل خلق السموات والأرض بما شاء الله بخمسين ألف سنة أو بأكثر من ذلك.

كما في بعض الأحاديث: «**كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[1] لماذا؟ ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾حتى لا تحزنوا وتأسفوا وتأسوا على ما فاتكم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٣) في القدر، باب: «حجاج آدم وموسى عليهما السلام». عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

. . . .

إذا فاتك شيء فلا تقل: ليتني فعلت كذا وكذا، وليتني ما ذهبت إلى هذا الموضع، وليتني ما ركبت هذه السيارة. وقد أرشد النبي ﷺ إلي شيء من ذلك بقوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل**»[1].

فأنت مأمور قبل أن يحدث الشيء بأن تعمل وتفعل وتبذل السبب، ولكن متي حدث الأمر وفاتك الشيء فلا تلم نفسك، ولا تكثر التأسف والندم، ولا تقل: ليتني تقدمت ساعة حتى أفوز، ليتني تأخرت ساعة حتى أسلم من كذا وكذا، ليتني ساهمت مع فلان حتى أربح، ما أشبه ذلك. لا تقل هذا بل قل: قدر الله وما شاء فعل.

إذا أصابك شيء فارض بذلك، واعلم أن ذلك مكتوب عليك، يقول الله تعالى للمنافقين: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لو كنتم متحصنين في غاية التحصن، فإن الذين قد كتب الله عليهم في اللوح المحفوظ أنهم مقتولون لابد وأن يبرزوا إلى الأماكن التي فيها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

مضاجعهم، فلا يغني حذر عن قدر.

فعرفنا بذلك أن الإنسان عليه أولاً أن يبذل السبب ويتحصن عن الأخطار ونحوها، ولكن متى وقع عليك شيء، ومتى وقعت في مصيبة، ومتى فاتك شيء، فارض بما قدر الله تعالى، وتذكر هذه الآية: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] لا تفرح بما آتاك، وتقول: هذا بسبب جهدي، وهذا بسبب كدي وقوتي، أنا الذي أسهر الليل وأتعب النهار، أنا الذي فعلت وفعلت حتى حصلت على هذا وهذا وما أشبه ذلك.

بل قل: هذا ما كتبه الله لي، هذا ما أعطاني الله من فضله، هذا مكتوب لي وهذا رزقي وما أشبه ذلك.

والذي فاتك لا تأسف عليه وقل: ليس من رزقي، وليس بمكتوب لي، ولو بذلت لتحصيله كل سبب لما حصل، لا تأس على فائت ولا تفرح بشيء آت، بل:

اقنعْ بما تُرزق يا ذا الفتى ... فليسَ ينسى ربنا نملَه
إن أقبل الدهرُ فقم قائمًا ... وإن تولّى مُدْبرًا نم له

فارض بما كتب الله، والله تعالى قد علم وقدر رزق كل إنسان، وكتب الأرزاق والآجال، فالذين يؤمنون بهذا المكتوب يرضون بذلك، وتطمئن

. . . .

قلوبهم، والذين يكذبون بذلك يحزنون ويتأسفون، ولا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم.

كما ورد في بعض الآثار «من كانت الدنيا أكبر همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» بمعنى أنه وإن اهتم لها فإن رزقه مكتوب، فلن يستطيع أن يزيد فيه أو ينقص منه .

لذلك ينبغي للمؤمن أن يؤمن بذلك كله، ليكون من الفائزين في يوم القيامة.



تقدير الأشياء قبل وجودها:

[وهذا التَّقْديرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ يَكُونُ في مَواضعَ جُمْلَةً وتَفْصيلاً:

فقدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مَا شَاءَ.

وإِذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ؛ بَعَثَ إِليهِ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَرْبَعِ كَلِماتٍ، فيُقالُ لهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وعَمَلَهُ، وشَقِيٌّ أَمْ سَعيدٌ. ونحوَ ذلك.

وهذا التَّقديرُ قَدْ كانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قديمًا، ومُنْكِروهُ اليَوْمَ قليلٌ].



▪ قوله: **(وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً: فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء...):**

هذا التقدير: تقدير الأشياء قبل وجودها عمدته علم الله تعالى الموصوف به أزلاً وأبدًا. يقول: إن هذا التقدير هو التابع لعلم الله تعالى، فمن آمن بعلم الله وآمن بأن الله بكل شيء عليم، آمن بهذا التقدير، فإنه يقال: ما الفرق بين علمه بما حصل وعلمه بما لم يحصل؟ إذا كان الله تعالى موصوفًا بأنه بكل شيء عليم، فيدخل في كل شيء (ما لم يوجد).

. . . .

فنقول: إن الله عليم بالأشياء قبل أن توجد، عليم بما الخلق عاملون، عَلِمَ عدد من يوجد من الخلق، وعلم عدد أهل الجنة، وعلم عدد أهل النار، وعلم أعمال هؤلاء قبل أن يعملوها، وأعمال أولئك قبل أن يعملوها، وعلم تفاصيل ذلك كله، علم أن هذا الشخص سيعمل بكذا، ويوجد له من العمل كذا وغير ذلك من تفاصيل علم الله.

فمن آمن بالعلم آمن بهذا التقدير، ومن أنكر هذا التقدير، ألزمناه بأن ينكر العلم. ولهذا ذكرنا أن الإمام الشافعي رحمه الله قال في منكري علم الله تعالى الأزلي بما كان وما يكون: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا». يعني احتجوا عليهم بمسألة العلم، قولوا لهم: أتقولون بأن الله بكل شيء عليم؟ فإن أقروا به خُصموا. قلنا لهم: ما الفرق بين علم ما مضى وعلم ما سيأتي؟

وإن جحدوا العلم كفروا، حيث إنه يلزم منه وصفهم لله تعالى بالجهل، ويلزم أيضًا إنكارهم للأدلة الصريحة التي صرحت ووصفت الله تعالى بالعلم العام كما في قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ** ﴾[الأعلى: ٧]، ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ [طه: ٧]، ﴿ **وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ** ﴾ [ق: ١٦]، ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة: ٢٩]، ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا** ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وما أشبه ذلك، فالأدلة الكثيرة التي في إثبات العلم من أنكرها كفر؛ لأنه أنكر هذه الأدلة الصحيحة الصريحة الواضحة، التي ليس

. . . .

فيها التباس، ولزمه تنقص الله عز وجل.

يقول: هذا التقدير التابع لعلم الله تعالى يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، فذكروا أن هذا التقدير ينقسم إلى أربعة أقسام:

تقدير عام، وتقدير عمريٌّ، وتقدير سنوي، وتقدير يومي.

فأما التقدير العام: فهو علم الله بما كان وبما يكون، وكتابته ذلك - كما تقدم - في اللوح المحفوظ. «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1]. هذا هو التقدير العام، يعني تحديد الأعمار ومقاديرها، وتحديد الأعمال والمصائب وأماكنها وما أشبه ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

ذكرنا فيما سبق أن هذا التقدير الذي هو تحديد المصائب وأوقاتها وأماكنها وما أشبه ذلك، فائدته أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيؤمن بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، ويعتقد أنه كله من الله، وإذا أصابه شيء فلا يجزع، ولا يقول: ليتني تأخرت حتى أنجو، ليتني تقدمت حتى أنجو، لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يرضى ويسلم ويقول: قَدَرُ الله وما شاء فعل، أي هذا قدر الله وما شاء فعله بعباده ويقول: ﴿**قُل لَّن**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥٥) في القدر. وأبو داود برقم (٤٧٠٠) في السنة. وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧). وأخرجه الترمذي أيضًا برقم (٣٣١٩) في التفسير وقال: حسن غريب.

. . . .

يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ولما ذكر الله آية المصائب: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** أتبعها بقوله: **﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾** يعني لا تفرحوا فرح أشر وبطر بما أعطاكم، وقولوا: هذا من الله مكتوب لنا.

ولا تكونوا كما حكى الله تعالى عن قارون؛ أنه فرح بما آتاه وبما حصل عليه، فنصحه قومه وقالوا: **﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾** [القصص: ٧٦] فقال لهم: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** أي إنني ما حصلت على هذا المال إلا بقوتي وبجهدي وكدي وقوة تفكيري وكسبي واجتهادي، وما أشبه ذلك، ولم يردَّ الأمر إلى تصرف الله وعطائه.

وذكرنا أن هذا لا ينافي فعل الأسباب، ودليله قول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[1] فأمرك بأن تحرص على ما ينفعك، تبذل جهداً، وإن هذا البذل في مستطاعك وإن كان مكتوبًا مقدرًا، وبه تعمل، وبه تحصل على سعادة الدنيا والآخرة، وبضده تحصل الشقاوة، وأمرك بأن تستعين بالله يعني. لا تعتمد على تصرفك

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وحرصك، وأمرك بألا تعجز أي لا تتوانى وتتكاسل، وأمرك عندما تصاب بمصيبة أن تفوض الأمر لله وتقول: هذا قضاء الله، ولا تقل: «لو، لو» فإن «لو» تفتح عمل الشيطان.

فالحاصل أن هذا التقدير العام هو كتابة الأشياء قبل أن تخلق الموجودات في اللوح المحفوظ.

وأما التقدير العمري: فهو المذكور في حديث ابن مسعود. يقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك**»[(١)] فأخبر بأنه يُرسل إليه الملك بعد الأربعين الثالثة، أي بعد أربعة أشهر، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فهذا يسمى تقدير عمري.

يُنسخ له كتاب من اللوح المحفوظ فيه عمله كله لا يتجاوزه، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه - من حين يولد إلى أن يموت - يكتب فيه أنه سيعمل كذا وكذا، طال عمره أم قصر، فهذا تقدير عمري، يكتب رزقه: يحصل من الرزق على كذا ومن العمل على كذا، وأجله طول أيامه وقصرها وسنواته. وعمله يعني أعماله التي هي إما عمل صالح أم ضده، وشقي هو أو سعيد. كل ذلك ينسخ وهو في بطن أمه، ويبقى كتابًا له مستقلاً يعمل عليه ولا يغير، هذا هو التقدير

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٩٤) في القدر، باب: «١». ومسلم برقم (٢٦٤٣) في القدر، باب: «كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

العمري.

أما التقدير السنوي: فهو تقدير يكون في ليلة القدر، بأن يكتب فيها ما يحدث إلى مثلها من العام القادم، تقدير سنة كاملة بأن يقدر الله تقديراً سنوياً في هذه الليلة؛ أنه سيحدث في هذه السنة كذا وكذا، فالتقدير العمري خاص بشخص، ولكنه طوال عمره لكل السنوات، وأما التقدير السنوي فهو عام لما يحدث على وجه الأرض في سنة واحدة، أنه يحصل فيها مرض كذا، ويحصل فيها جدب كذا وقحط كذا، وعذاب ورحمة، وكفر وإيمان، هذا هو التقدير السنوي.

أما التقدير اليومي: فهو وقوع تلك المقدَّرات في كل يوم، ودليله قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩] فتتجدد الأشياء في كل يوم وتكون تقديراً يومياً. هذا هو التقدير اليومي، والأصل أن الجميع كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وأنه يُنسخ منه ما يشاء الله ويُمحي من تلك الصحف، ويُغيرُ فيها قال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٩].

أم الكتاب : اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير كل شيء، فهذا لا يتغير، أما ما يكون في صحف الملائكة، فإنه قد يمحى منه ذنب بتوبة، وتبدل سيئة بحسنة، وما أشبه ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ أما ما في أم الكتاب فإنه لا يُغير ولا يبدل.

. . . .

متى آمن العبد بمثل هذا كله اطمأن قلبه، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يُقدّر عليه ما قَدَروا على ذلك، هذا هو التقدير الذي هو العلم، ومنكره سابقًا هم غلاة القدرية، ومنهم غيلان القدري، الذي أنكر العلم السابق، ومنهم أيضًا معبد الجهني، الذي زعم أن الأمر أنفٌ، وأن الأمور تستقبل استقبالاً، وأن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، ولا يعلم شيئًا لم يوجد.

وآخرون قالوا: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، يعني أفراد الأعمال؛ يعلم الكليات بمعنى: أنه يعلم أن هذا سعيد وهذا شقي، ولكن لا يعلم تفاصيل أعمال هذا السعيد، ما هي حسناته وما عددها، ولا يعلم تفاصيل أعمال هذا الشقي، ما هي سيئاته وما عددها، هذا قول من الأقوال.

ولكن الله تعالى موصوف بعموم العلم، وليس هناك فرق بين دقيق العلوم وجليلها.



الدرجة الثانية: المشيئة والقدرة:

[وأما الدرجةُ الثانيةُ: فهي مشيئةُ اللهِ النافذةُ، وقدرَتُه الشامِلَةُ، وهُو: الإيمانُ بأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، ومَا لَمْ يَشأْ لَمْ يَكُنْ، وأَنَّهُ مَا في السَّمواتِ ومَا في الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ ولا سُكونٍ؛ إلا بمشيئَةِ اللهِ سُبْحانَهُ، لا يَكونُ في مُلْكِهِ مَا لا يُريدُ، وأَنَّهُ سُبحانَهُ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ مِنَ المَوْجودَاتِ والمَعْدوماتِ، فمَا مِنْ مَخْلوقٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ إلا اللهُ خَالِقُهُ سبحانَهُ، لا خَالِقَ غيرُهُ، ولا رَبَّ سِواهُ].

لا تعارض بين القدر والشرع:

[ومَعَ ذلك؛ فقدْ أَمرَ العِبادَ بطاعَتِهِ وطاعَةِ رُسُلِه، ونَهاهُمْ عن مَعْصِيَتِه.

وهُو سُبحانَهُ يُحِبُّ المُتَّقينَ والمُحْسِنينَ والمُقْسِطينَ، ويَرْضى عَنِ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، ولا يُحِبُّ الكَافِرينَ، ولا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقينَ، ولا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ، ولا يَرْضى لِعِبادِهِ الكُفْرَ، ولا يُحِبُّ الفَسادَ].



▪ قوله: (وأما الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو: ...):

هذه الدرجة الثانية من درجات القدر، وهي أيضًا تتضمن شيئين: تتضمن مشيئة الله وقدرته، وتتضمن خلقه وإيجاده.

. . . .

الدرجة الأولى ذكرنا أنها تتضمن شيئين: العلم ثم الكتابة، والدرجة الثانية تتضمن شيئين كذلك: الإرادة والمشيئة، ثم تتضمن الخلق والإيجاد.

فنؤمن بأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ونؤمن بعموم إرادة الله وعموم مشيئته. بمعنى أنه شاء وأراد كل ما في الوجود من الموجودات ولذلك وجدت، ولو لم يردها ما وجدت وما خلقت وما حصلت.

وذلك داخل في عموم قدرته، فإن من تمام القدرة؛ أنه يكون هو الخالق، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه لا يقدر أحد على مخالفة ما قدره عليه، هذا من تمام الإيمان بالقدرة، فإذا آمن العبد بأن الله على كل شيء قدير دخل في قدرته كل الموجودات وكل المخلوقات، فلذلك يقول: آمنت بأن الله هو خالق كل شيء، هو الذي خلق ما فيه شر وما فيه ضرر وما فيه خير وغير ذلك.

خلق الكفار وعلم أنهم سيكفرون، وخلق السباع الضارية والعادية، وخلق الحشرات الضارة والسامة، وخلق الحيات ونحوها من ذوات السموم، وخلق المؤمنين والكفار، وخلق الأبرار والفجار، وخلق الصادقين والكاذبين، كل ذلك بخلقه وإيجاده، وهو داخل في عموم قدرته: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فاطر: ١] وداخل في عموم مشيئته: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان: ٣٠].

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا لا يكون في الوجود إلا ما يريد.

. . . .

ولابد أن نعرف قبل ذلك أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية وإرادة شرعية.

فالإرادة الكونية: هي التي يدخل فيها جميع الموجودات، من الكفر والطاعات، والمعاصي والإيمان. نقول: إنها كلها مرادة؛ كونًا وقدرًا.

بمعنى أنه تعالى أرادها وأوجدها وخلقها وكونها بقدرته العامة التي لا يخرج عنها شيء فهو الذي مكن العصاة من المعاصي وأعطاهم القوة التي يزاولون بها أعمالهم من طاعات ومعاصٍ، وحسنات وسيئات، ولو شاء لأعجزهم وحال بينهم وبين الكفر والفسوق، فإن قدرته أقوى من قدرتهم وقوتهم خاضعة لقوة الله تعالى، وقد كثر تعليق الأمور الواقعة بمشيئة الله تعالى كما في قوله: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه إرادة كونية بمعنى المشيئة العامة كما في الدعاء المأثور: «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**»(١).

وقد قال تعالى: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فقد أثبت لهم مشيئة ثم ربطها بمشيئته سبحانه، وكذا قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]؛ أي لا يحصل لهم تذكر إلا بعد مشيئة الله تعالى وإرادته الكونية القدرية التي يدخل فيها جميع الكائنات والحوادث من الطاعات والمعاصي.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٧٥). في الأدب، والنسائي في اليوم والليلة برقم (١٢).

. . . .

وقد أخبر تعالى أنه يهدي من يشاء فضلاً منه وكرمًا، ويضل من يشاء عدلاً منه تعالى، كما في قوله: ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ** ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، ولكنه سبحانه علم من هو أهل للهداية فتفضل عليه، وأقبل بقلبه على الطاعة، ونور بصيرته، وقربه من الإيمان وأعانه عليه، كما علم الأشقياء وأهل الفساد فمكنهم من الكفر والفسوق بقدرته ولو شاء لهداهم أجمعين، ولا تكون قدرتهم أقوى من قدرته.

أما الإرادة الدينية الشرعية: فهي أنه سبحانه أراد لعباده الصالحين الخير ويسره لهم وأحب منهم الطاعة وحثهم عليها، والدليل على هذه الإرادة قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي عندما رخص لكم في الإفطار لمرض أو سفر، وقال تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]، وهذه الإرادة يدخل فيها جميع الطاعات والحسنات، فالله تعالى أراد من جميع الخلق أن يعبدوه ويطيعوه وأحب منهم أن يسلموا ويعملوا عملاً صالحًا ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ﴾ [النحل: ٣٦].

فالإرادة الكونية القدرية يدخل فيها جميع الكائنات من الطاعات والمعاصي.

. . . .

فطاعة المطيع وإيمان المؤمن قد أراده الله كونًا وقدرًا فحصل، وأراده دينًا وشرعًا وأحبه.

وكفر الكافر ومعصيته قد أرادها الله كونًا وقدرًا فوجدت، ولم يردها دينًا وشرعًا ولم يحبها.

فالكونية تستلزم حصول مرادها دون محبته.

والشرعية لا يلزم حصول مرادها ولكن يلزم محبته.

فهو سبحانه أمر الناس كلهم بطاعته وطاعة رسوله وأحبها منهم وأرادها دينًا وشرعًا، ونهاهم عن معصيته وكرهها لهم ولم يردها دينًا وشرعًا.

وأخبر سبحانه بأنه يحب المتقين ويريد منهم فعل التقوى مع أنه الذي أعانهم وقواهم، ويحب المحسنين والصابرين والمقسطين، ويريد من الخلق كلهم أن يتقوه ويحسنوا العمل ويقسطوا ويعدلوا، مع أنه الذي يوفقهم لذلك، كما أخبر بأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويثيبهم على ذلك وهو الذي هداهم ووفقهم، كما أخبر بأنه لا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يحب الكافرين مع أنه لو شاء لهداهم أجمعين، وأخبر بأنه لا يأمر بالفحشاء شرعًا، ودينًا، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد بل قد نهى عنه وتوعد عليه بالعقاب.

❁ ❁ ❁

أفعال العباد:

[والعِبَادُ فاعِلُونَ حَقيقةً، واللهُ خَلَقَ أَفْعالَهُمْ.

والعَبْدُ هُو: المُؤمِنُ، والكافِرُ، والبَرُّ، والفاجِرُ، والمُصلِّي، والصَّائِمُ.

ولِلْعِبادِ قُدْرَةٌ على أَعْمالِهِمْ، ولَهُمْ إرادَةٌ، واللهُ خَالِقُهُم وخَالِقُ قُدْرَتَهُم وإرادَتَهُم؛ كَما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]].



▪ قوله: (**والعباد فاعلون حقيقة والله خلق أفعالهم...**):

إذا عرفنا أن ما في الكون من مخلوقات فهو مقدَّر ومخلوق لله، بما في ذلك: حركات العباد وأفعالهم، وقلنا: إن الله هو خالق العباد، وخالق أفعالهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الذي أقدر المؤمن على الإيمان، وقوى العاصي على العصيان، وذلك لأن الله تعالى كامل القدرة، فلا يقدر عبد أن يعصيه قسراً، ولا يقدر إنسان أن يفعل ما لا يشاؤه الله، بل مشيئة العبد وقدرته مسبوقة بمشيئة الرب وقدرته.

ومع ذلك فإن الله جعل في العباد قدرة واستطاعة يزاولون بها أعمالهم، وبهذه القدرة التي فيهم، نسبت إليهم الأعمال، فصار ينسب العمل إلى

. . . .

العبد، فيقال: هذه صلاتك، وهذه حسناتك، وهذه سيئاتك، فتنسب إليه أعمال الخير؛ لأنه مصدرها، وإن كانت مقدرة ومكتوبة عليه، وإن كانت مخلوقة لله قبل فعله، وتنسب إليه أيضًا أعمال السوء فيقال: هذه سيئات فلان، أساء فلان في كذا، فتنسب إليه الأعمال السيئة، لأنه مصدرها، فلأجل ذلك نعتقد أن العباد فاعلون حقيقة وأنهم مخلوقون هم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات: ٩٦] فالعباد فاعلون حقيقة، ولكن الله خالقهم، وخالق أفعالهم، فللعبد قدرة وله إرادة، ولكن قدرة الله غالبة على قدرته، وإرادة الله غالبة على إرادته، فإذا شاء العبد أمرًا ولم يشأه الله لم يكن ولم يقع، فلا يقع إلا بعد مشيئة الله الكونية الأزلية القدرية.

فإذا عرفنا أن العبد تنسب إليه أفعاله، فإن هذا هو مناط التكليف، فالعبد له قدرة وله إرادة، ولذلك فإنه ينسب إليه الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المؤمنون: ١] وقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢] وقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا**﴾ [السجدة: ١٥] كل هذا دليل على أن العبد ينسب إليه الإيمان.

وكذلك ينسب إليه ضد الإيمان وهو الكفر فيقال: هذا قد كفر بالله كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ١]،

. . . .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] وقال سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] والآيات في ذلك كثيرة جداً.

فالعبد ينسب إليه أنه مؤمن وبرّ؛ لأنه يفعل أنواع البر، وكذلك يقال: هو فاجر؛ لأنه فعل أنواع الفجور وأسندت إليه، فهو البَر والفاجر، وهو المصلي والصائم، هذه صلاته، وهذا صيامه: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢، ٢٣] ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

دلَّ على أن الأفعال من طاعات وعصيان تنسب إلى فاعليها، فالعبد هو المؤمن وهو الكافر، وهو البَر وهو الفاجر، وهو المصلي والصائم، وهو المطيع والعاصي.

وللعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولولا هذه القدرة ما كلفوا، ولأجل ذلك يذكر الله تعالى قدرتهم كما في قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

فأخبر بأنه له قدرة، وكما أن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] دل على أن للعبد استطاعة، وبهذه القدرة والاستطاعة أصبح

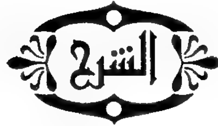
. . . .

مكلفًا ومأمورًا، ومنهيًا، ومحاسبًا، ومثابًا، ومعاقبًا.



مَنْ ضل في القدر:

[وهذه الدَّرَجَةُ مِنَ القدَرِ يُكَذِّبُ بها عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذين سَمَّاهُم النَّبيُّ ﷺ : مَجُوسَ هذه الأمة[1] ، ويَغْلُو فيها قومٌ مِنْ أَهْلِ الإثْبات، حتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيارَهُ، ويُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وأَحْكامِه حُكْمَهَا ومَصالِحَها].



■ قوله: **(وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية...)**:

هذه الدرجة من القدر هي التي أنكرها القدرية عمومًا، فهم الذين ينكرون قدرة العبد، وقد اشتهروا باسم المعتزلة، فهم ينكرون قدرة الله، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: القدر قدرة الله، يعني من آمن بأن الله تعالى على كل شيء قدير، لزمه الإيمان بالقدر، ومن آمن بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لزمه الإيمان بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون هذه الدرجة، يجعلون ذلك من باب العدل، ويسمون ذلك عدلاً، ويقولون: كيف يخلق الأفعال فيهم ثم يعاقبهم على ما خلق فيهم، هذا ظلم!! إذن فنحن مضطرون إلى أن نقول: إنهم هم الذين

(١) في قوله ﷺ: «إن لكلِّ أمة مجوسًا، وإن مجوس هذه الأمة الذين يزعمون أن لا قدر».
أخرجه أبو داود برقم (٤٦٩٢) في السنة، وأحمد في المسند (٥/ ٤٠٦، ٤٠٧)، وهو حديث حسن بشواهده. انظر: السنة لابن أبي عاصم بتحقيق الألباني (١/ ١٤٤-١٤٦).

. . . .

يخلقون أفعالهم، وأن الله لا يقدر منهم على شيء، وأن قدرتهم غالبة على قدرة الله، واختيارهم غالب على اختيار الله.

هذا قول المعتزلة، وهو قول فيه تنقص لله تعالى، واعتراض على تمام وكمال قدرته التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

فما دامت القدرة عامة؛ دخل فيها أفعال العباد وحركاتهم.

فهؤلاء القدرية يُسمون مجوس هذه الأمة، سماهم بذلك النبي ﷺ في حديث في السنن وإن كان فيه مقال عن حذيفة «**إن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تتبعوهم**»[1].

وجه التسمية: أن المجوس يزعمون أن الكون مخلوق من اثنين: أن خالق الخير هو النور، وخالق الشر الظلمة، أما هؤلاء القدرية فإنهم يجعلون الخالق متعدداً وليس متوحداً، فعندهم أن كل واحد يخلق فعله؛ فالمجوس جعلوا مع الله خالقًا، وهؤلاء جعلوا خالقين كثيراً، فبذلك أشبهوا المجوس.

وأما كونهم يقولون: إن هذا من باب العدل، فنقول: إن الله تعالى أعدل العادلين، وله الحجة البالغة، وما أرسل الرسل إلا لقطع حجة الخلق، وقد قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فلما أخبر بأن له الحجة البالغة، دلَّ على أن قولهم بأن العبد يخلق فعله، وأنه

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٨.

. . . .

ليس لله قدرة على ذلك؛ فيه تنقص لله تعالى، فنقول: لو شاء الله لهداهم، مع أنه له الحجة عليهم.

فقد عرفت أن قولهم هذا فيه تنقص لله تعالى، وأن قول أهل السنة هو أن للعباد قدرة واختياراً، ولكن ذلك الاختيار مسبوق وملحق بقدرة الله تعالى وبإرادته الكونية القدرية.

وهناك نوع آخر من القدرية؛ وهم القدرية المجبرة، الذين يخرجون عن أفعال الله تعالى حكمها ومصالحها.

فهؤلاء غلوا في الإثبات، وأولئك غلوا في النفي، فالقدرية المجبرة هم الذين يزعمون أن العبد مجبور على أفعاله، وأن ليس له اختيار أبداً، ويجعلونه معذوراً في هذه الأفعال، بحيث لا يكون له أي اختيار أصلاً، بل هو متصرفٌ فيه، ويجعلون حركته كحركة المرتعش، أو كحركة الشجرة عندما تهب الرياح حيث تتحرك الشجرة بغير اختيار لها.

هذا قول هؤلاء الجبرية؛ الذين يزعمون أن العبد مجبور ملزم بأفعاله، ليس له أي اختيار، ويحتجون بالقدر، ويقول فيهم ابن القيم في قصيدته الميمية:

وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ... ظهيراً على الرحمن للجبر تزعمُ

ويقول فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

. . . .

وتدعى خصوم الله يوم معادهم ... إلى النار طراً معشر القدرية

سواء نفوه أو سَعَوْا ليخاصموا ... به الله أو ماروا به في الخليقة

وذلك لأن من حججهم أنهم يقولون: كيف يخلق الله هذا العبد وأفعاله ثم يعاقبه عليها؟ إن هذا هو الظلم البين!!

يقول قائلهم:

دعاني وسدَّ الباب دوني فهل إلى ... دخولي سبيل بينوا لي حُجَّتي

فنقول: إنه تعالى أعطاك قدرة أنت مكلف بها وأنت قادر بها، فليس هو بظلام للعبيد، فإذا اخترت هذا العمل أصبحت ملومًا، وإن كان مخلوقًا فيك، وإن كان الله هو الذي خلق وقدر وهدى، وله المشيئة السابقة على مشيئة العباد، كما في قوله تعالى: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وكما في قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦] كذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

وغير ذلك من الآيات؛ حيث جعل مشيئة العبد مسبوقة بمشيئة الله، وأثبت للعبد مشيئة؛ وذلك لأنه تعالى بيَّن له الطرق، وأوضح السبل، وأظهر

. . . .

الحق والباطل، وأقام عليه الحجة، وأعطاه قدرة وإن كانت هذه القدرة داخلة في قدرته وقال: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وأخبر بأن الأبرار لفي نعيم، والفجار لفي جحيم.

وقال لهم: هذا طريق الخير فاسلكوه، وهذا طريق الشر فاجتنبوه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فتوفيق الله لمن شاء يعتبر منةً ونعمة وفضلاً، وخذلانه لمن شاء وعدم توفيقهم يعتبر حكمة وعدلاً، وله تعالى الحكمة البالغة والحجة الدامغة. فالذين أنكروا القدر كليًا أنكروا قدرة العباد، وسلبوا العبد قدرته واختياره.

هؤلاء هم الذين نفوا عن أفعال الله تعالى حكمها ومصالحها، وصاروا لا يعللون، إنما يستدلون بالآية الكريمة في سورة الأنبياء ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلا يجعلون لله حكمة في شيء من الأشياء، ولا في شرع من الشرائع أصلاً، فيقولون: إنه يعذب بدون اختبار وبدون ذنب، ويثيب بدون عمل، ولو عاقب لجاز له أن يعاقب، ولو عذب لجاز له أن يعذب. يجوز أن ينعّم أفسق الناس، وأن يعذب أتقى الناس.

ويستدلون بهذه الآية: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يجعلون ذلك حسب هذا القول.

ولاشك أن هذا مخالف للنصوص الصريحة التي نفى الله تعالى فيها الظلم عن نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَأَنَّ

. . . .

اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وما أشبه ذلك، فإنه لو فعل ذلك لأصبح ظلمًا، وقد قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[1].

ولا شك أن تعذيب المطيع يعتبر ظلمًا، والله تعالى منزه أن ينسب إليه شيء من ذلك، فهذا ونحوه مما يبطل قول هؤلاء الذين ينفون عن أفعال الله حكمها ومصالحها.



(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧) في البر والصلة، باب: «تحريم الظلم». عن أبي ذر رضي الله عنه.

تعريف الإيمان

[فصل :ومِنْ أُصـولِ الفِرْقَةِ النَّاجيـةِ : أَنَّ الدِّينَ والإِيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ : قَوْلُ القَلْبِ وَاللِّسانِ ، وَعَمَلِ القلبِ واللِّسَانِ والجَوَارِحِ .

وأن الإِيمانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ] .



▪ قـوله : (فصل : ومن أصول الفرقة الناجية : أن الدين والإيمان قول وعمل : ...) :

من أصول أهل السنة : القول في الإيمان ؛ لأن الإيمان والدين قول وعمل واعتقاد ، وأنها كلها داخلة في الدين وفي الإيمان ، فالإيمان : قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالعصيان ، وأن الأعمال من مسمى الإيمان ؛ الأعمال التي هي العبادات داخلة في الإيمان .

فليس الإيمان هو العقيدة فقط ، بل الإيمان أصله التصديق ، ولكن تدخل الأعمال في مسمى الإيمان ، فالصلاة من الإيمان قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي صلاتكم . والصدقة من الإيمان ، وصلة الأقارب والأرحام من الإيمان ، وكذلك الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله ، والنصيحة للمسلمين ، وفعل الخير معهم ، كل هذا

. . . .

من الإيمان.

وكذلك الأذكار القولية، والكلمات الطيبة كلها من الإيمان: كلمة الشهادتين من الإيمان، والتسبيح والتكبير من الإيمان، وقراءة القرآن من الإيمان؛ إذا كان بنية صادقة، وتعلم العلم وتعليمه من الإيمان؛ إذا كان لوجه الله، وهكذا سائر الأقوال المحمودة داخلة في اسم الإيمان.

فالأعمال من الإيمان يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا** ﴾ [السجدة: ١٥] فجعل الخرور من علامات الإيمان، وجعل التسبيح من الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢] فوجل القلب من الإيمان ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢] فالتأثر بالآيات من الإيمان ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢] والتوكل عمل قلبي وهو من الإيمان ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣].

إقام الصلاة والنفقة في سبيل الله وفي وجوه الخير وعلى المستحقين، كل ذلك من الإيمان ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: ٤] ويقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[الحجرات: ١٥] فجعل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله من الإيمان، فظهر بذلك أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

. . . .

وخالفت في ذلك طائفة المرجئة، حيث جعلوا الإيمان مجرد التصديق وقالوا: إن هذا أصله في اللغة.

والجواب: صحيح أن أصل الإيمان في اللغة هو التصديق، ولكن الشرع استعمله استعمالاً خاصًا، فله مسمى شرعي وله مسمى لغوي، كما أن الكفر استعمله الشرع استعمالاً خاصًا. الكفر لغةً: الستر والتغطية، ولكن استعمله الشرع في إنكار الدين وردِّ الشرع.

النفاق في اللغة: معناه الاستخفاء، أما النفاق في الشرع فهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

فإذًا هذه مسميات شرعية؛ الكفر، والشرك، والنفاق، والإيمان، والإسلام ونحوها كلها مسميات نقلها الشارع من المسمى اللغوي إلى المسمى الشرعي، فأصبحت أعمالاً من شعائر الدين، كما أن الشرع أيضًا نقل العبادات من مسماها اللغوي إلى مسماها الشرعي.

فالعرب ما كانوا يعرفون أن الصلاة هي مجموع هذه الأعمال، إنما الصلاة عندهم الدعاء.

وما كانوا يعرفون الصيام بأنه هذا الإمساك في رمضان ونحوه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما الصيام عندهم مجرد الإمساك عن الحركة ونحوها.

ونقل الشارع اسم الزكاة من التطهير إلى هذا الجزء من المال الذي يخرج، ونقل الصلاة ونحوها من معناها اللغوي الذي تعرفه العرب إلى معنى آخر شرعي.

. . . .

فأصبح الإيمان شرعًا هو: **القول باللسان**، كالنطق بالشهادتين والأذكار.

والاعتقاد بالجنان؛ كاعتقاد وحدانية الله والتصديق بأسمائه وصفاته واعتقاد الجزاء على الأعمال، واعتقاد البعث والنشور وما أشبهه .

والعمل بالأركان: كالركوع، والسجود، والطواف بالبيت، والصلاة، والجهاد.

الكل داخل في اسم الإيمان.

ويتفاوت أهل الإيمان في الإيمان: فبعضهم إيمانه أكبر من الجبال، وبعضهم إيمانه أقل من الذرة أو مثل الذرة، كما في قول الله تعالى لنبيه ﷺ في حديث الشفاعة: «**انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها**». حتى قال: «**انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها**»[1] .

فيدل على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان؛ إذا ذكرنا الله وصلينا وصمنا وتصدقنا وعملنا أعمالاً خيرية، كثر إيماننا وقوي. وإذا غفلنا ولهونا وعصينا، نقص إيماننا وضعف.

والله تعالى قد ذكر أن الإيمان يزيد، وكل شيء يقبل الزيادة فهو قابل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠) في التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم». ومسلم برقم (١٩٣) [٣٢٦] في الإيمان.

. . . .

للنقصان، قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فإذا كان الإيمان يقبل الزيادة، فإنه يقبل النقصان.

ولقد كان السلف يعترفون بذلك فيقول أحدهم: اجلس بنا نؤمن ساعة؛ أي نذكر الله تعالى أو نعمل بعض الأعمال الصالحة التي تكون في كفة الأعمال الصالحة، فيثقل بها ميزان حسناتنا يوم القيامة، ويقوى بها إيماننا ويزيد في الدنيا.

فالعبد في أحواله كلها إما في زيادة إيمان، وإما في نقصان إيمان، فإذا تكلم بكلمة خير زاد إيمانه، وإذا تكلم بكلمة شر نقص إيمانه، فإذا ذكر الله وسبحه كان هذا خيراً، وإذا سبَّ الله وسبَّ دينه وشتم المسلمين ونحو ذلك نقص إيمانه بحسب ما فعل، وقد يذهب إيمانه بالكلية. وإذا أخرج درهمًا وتصدق به لوجه الله زاد إيمانه، وإذا أخرج مالاً كثيراً أو قليلاً في سبيل الشيطان، اشترى به لهواً أو لعبًا، أو عمل به عمل سوء، نقص بذلك إيمانه. إذا خطا خطوات إلى المساجد ليؤدي العبادات ونحوها زاد إيمانه، وإذا خطا خطوات إلى آلات الملاهي وأماكن الغناء والرقص ونحوها نقص بذلك إيمانه.

. . . .

فهو بين هاتين الحالتين، ولأيهما يكون أغلب، فمن يكون إلى الخير دائمًا يزيد إيمانه ويقوى، فإن قوته هذه تكون مسيطرة على الضعف، فإذا أراد الجانب الثاني أن يزاحم هذا الإيمان القوي لم يجد منفذًا، بل يجد قلبًا ممتلئًا بالإيمان، فإرادة الشر لا تجد لها محلاً، فلا يكون للشر سبيل إلى قلب هذا المؤمن ، الذي قوي إيمانه، وتضاعفت وكثرت أعمالُه الصالحة.

فعلى كل حال، الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، وهو قول أهل السنة، وخالفت في ذلك المرجئة الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق، وخالفت في ذلك أيضًا طوائف من فقهاء الحنفية وجعلوه عمل القلب، وقالت أيضًا طائفة: إن الإيمان مجرد المعرفة، ولهم أقوال في ذلك كلُّها منتقدة.



حكم مرتكب الكبيرة

[وهُمْ مَعَ ذلكَ لا يُكَفِّرونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبائِرِ ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ ، بلِ الأُخُوَّةُ الإِيْمَانِيَّةُ ثابِتَةٌ مَعَ المَعَاصي ؛ كَمَا قَالَ سُبْحانَهُ في آيةِ القِصاصِ : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقالَ: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]].



▪ قوله: (**وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج...**):

في هذا الفصل: هل يُكفَّر المؤمن بمجرد المعصية؟ وهل المعصية تخرج العبد من الإيمان وتدخله في الكفر أم لا؟

ذهبت الخوارج إلى أن من أصرَّ على معصية خرج من الإيمان، وأصبح

. . . .

كافرًا حلال الدم والمال، فعندهم أن الإنسان إذا قتل مسلمًا فهو كافر وخارج من الإسلام، وهكذا من أكل الربا، أو أكل مال اليتيم، أو زنا أو سرق أو شرب خمرًا أو ما أشبه ذلك، عندهم أنه كافر بالله، حلال الدم والمال، حكمه كحكم اليهود والنصارى، والمشركين والشيوعيين وسائر الملحدين، حلالٌ دماؤهم وأموالهم، هكذا عند الخوارج.

أما أهل السنة فيقولون: إنه باق معه اسم الإيمان لا نخرجه من الإسلام والإيمان بهذا الذنب، بل نسميه عاصيًا، والدليل عليه هذه الآيات، منها آية القصاص: فإن الله سمى القاتل مؤمنًا مع كونه قاتلاً في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ إلى قوله: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالقاتل إذا قتل إنسانًا مسلمًا لم يخرج بذلك عن حد الأخوة الإسلامية، فإذا طلب الولي القصاص مُكِّن من ذلك وقتل القاتل؛ لأن النفس بالنفس، فإذا قال: عفوت عنك أيها القاتل، فأعطني الدية، فإنه قد عفا عنه، فذلك المعفو عنه وهو القاتل عليه أن يؤديها بإحسان، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ فسماه أخًا مع كونه قاتلاً ﴿**وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾.

وكذلك قوله في آية البغاة: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾ [الحجرات: ٩] فسماهم مؤمنين مع كونهم يتقاتلون، هذه تقاتل هذه وهذه

. . . .

تقاتل هذه؛ لأمور دنيوية ونحوها، ومع ذلك سماهم مؤمنين، وأمرنا أن نتدخل ونصلح بينهم ونفصل هؤلاء عن هؤلاء. وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقولوا لهم: لِمَ تتقاتلون وأنتم كلكم مؤمنون؟، فلم يخرجهم تقاتلهم هذا من الإيمان.

فعلى كلٍ لاشك أن القتال ونحوه ذنب كبير، ولكن لا يصل إلى حد الكفر وإباحة المال والدم، والجزم بأنهم من أهل النار ومن أهل العذاب، وإنما نقول: إنهم مذنبون ومخطئون، وعلى المسلمين أن يتدخلوا في الصلح بينهم، حتى يعودوا إلى الأخوة الإسلامية.



حكم الفاسق المِلِّي :

[وَلا يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإِسْلامَ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُخَلِّدونَهُ في النَّارِ، كَما تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ.

بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمانِ؛ كَما في قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وَقَدْ لا يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَق؛ كَمَا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقولِهِ ﷺ: «لاَ يَزْني الزَّاني حينَ يَزْني وهُو مؤمِنٌ، ولا يسرقُ السَّارِقُ حينَ يسرقُ وهُو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمر حينَ يشربُها وهُو مُؤمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إليه فيها أَبْصارَهُمْ حيْنَ يَنْتَهِبُها وهُو مُؤمِنٌ»[1].

ونقولُ: هو مؤمِنٌ ناقصُ الإيمان، أَو مؤمِنٌ بإيمانِهِ فَاسِقٌ بِكَبيرَتِهِ، فَلا يُعْطى الاسْمَ المُطْلَقَ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسم].



■ قوله: (ولا يسلبون الفاسق المِلِّي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقوله المعتزلة...):

هذا كلام في حكم العاصي: وهو المقترف لذنب أو كبيرة وفيه ثلاثة

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٧٥) في المظالم، باب: «النهي بغير إذن صاحبه». ومسلم برقم (٥٧) في الإيمان، باب: «بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الخوارج:

وهم الذين يكفِّرون بالذنوب، ويخرجون العاصي وصاحب الكبيرة من الإيمان ويدخلونه في الكفر ويخلِّدونه في النار، وينكرون - لأجل عقيدتهم - خروجه من النار بشفاعة الشافعين أو بغير ذلك، ويقولون: إن من دخل النار خُلِّد فيها فلا يخرج منها أبداً. هذه عقيدة الخوارج.

ولما اعتقدوا هذا المعتقد؛ من أن صاحب الكبيرة كافر، نتج عن اعتقادهم استباحة دماء المسلمين وأموالهم، فصار صاحب الكبيرة عندهم بمنزلة الكفار؛ يُقتل، ويُسلب ماله وأهله، ويسترق أولاده ونساؤه، وإذا قُتل فإنه لا يدفن في مقابر المسلمين مادام أنه صاحب كبيرة، كالقتل والزنا وشرب الخمر وأكل الربا وما أشبه ذلك، فهذه عندهم كبائر تخرج من الإيمان وتُدخل في الكفر، وصاحبها في النار ولا يخرج من النار أبداً. هذا هو مذهب الخوارج.

المذهب الثاني: مذهب المعتزلة:

فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمه في الآخرة، وخالفوهم في حكمه في الدنيا، اتفقوا مع الخوارج على أن من مات وهو على كبيرة غير تائب منها، فإنه في النار مخلد فيها لا يخرج منها أبداً، وجعلوا ذلك أصلاً من أصولهم الخمسة، ويسمونه: إنفاذ الوعيد فيقولون: إن الله إذا وعد وفّى بوعده، وكذلك إذا توعد فإنه لا يخلف وعيده، وقد يستدلون ببعض الآيات

. . . .

مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فقالوا: هذا دليل على أنهم لا يخرجون ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وأمثال هذه الآيات.

وجواب أهل السنة: إن هذه الآيات خاصة بمن مات على الكفر، وليست الآيات فيمن مات وهو موحد مسلم وإن كان مذنبًا.

فالمعتزلة والخوارج اتفقوا على أن صاحب الكبيرة في النار خالدًا مخلدًا لا يخرج منها أبدًا.

أما في الدنيا، فإن المعتزلة يخرجونه من الإيمان، ولا يدخلونه في الكفر، بل يجعلونه في منزلة بين المنزلتين، فيقولون: لا نواليه ولا نوادّه ولا نحبه، بل نقاطعه ونعاديه، ولو كان أقرب قريب، لكن لا نقاتله كقتالنا للكفار، ولا نقول حل ماله، ولا حلَّ دمه، ولا حل استرقاق نسائه، ولا نجعله مثل الكفار الذين يُقاتلون، ولا مثل المؤمنين الذين يُوالون، بل نخرجه من الإيمان ولا ندخله في الكفر.

هذه هي المنزلة بين المنزلتين، وهي من أصول المعتزلة الخمسة. والأصول الخمسة هي: التوحيد، والعدل، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالتوحيد عندهم: قصدوا به نفي الصفات وقالوا: إذا أثبتنا صفة سمعٍ وبصر ويد ووجه وقدرة وعلم، أثبتنا عددًا، والصفات قديمة فلا نكون أثبتنا واحدًا، حيث أثبتنا القدم لعدد كثير، فلا يثبت توحيد الإنسان عندهم إلا إذا

. . . .

نفى الصفات، ولم يثبت إلا ذاتًا بدون صفات.

فالتوحيد عندهم هو نفي الصفات؛ لأنه يلزم عندهم لإثبات الصفات تعدد القدماء.

وأجاب أهل السنة بأن الصفة تتبع الموصوف، وأن الله واحد بصفاته، وأنه قديم بصفاته.

والعدل عندهم: أرادوا به عدم خلق أفعال العباد، فيقولون: كيف يقدِّرُ على الإنسان الذنب ويعاقبه عليه، فالعبد عندهم هو الذي يخلق فعل نفسه، فلا يمكن أن يكون الله هو الذي قدَّر عليه الكفر وكتب عليه أنه شقي ثم بعد ذلك يعاقبه، هذا ظلم عندهم، إذًا الله ليس بقادر على أن يهدي من يشاء ولا يضل من يشاء، بل العبد هو الذي يعمل ويخلق فعل نفسه، ولأجل هذا القول أصبحوا مشركين لأنهم جعلوا الله يعصى قسرًا، وجعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله. هذا هو العدل عندهم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم: فمعناه القيام على الولاة والخروج على السلاطين إذا أتوا منكراً، ولو حصل ما حصل من فتن وإراقة دماء.

أما إنفاذ الوعيد فقد أشرنا إليه قبل قليل.

المذهب الثالث: مذهب أهل السنة:

وهو أنه لا يُخرج صاحب الكبيرة من الإسلام ولا يدخل في الكفر،

. . . .

ولكن لا يعامل كمعاملة المسلمين بالمحبة والمودة، ولا يستباح دمه وماله كالكفار، وإنما هو عاص وليس بخارج من الإيمان.

هذا حكمه في الدنيا، وأما حكمه في الآخرة فتحت مشيئة الله، فإن شاء عفا عنه وغفر له كبيرته وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه في النار بقدر ذنوبه ومآله إلى الإخراج؛ وذلك لتواتر الأحاديث عن النبي ﷺ؛ أنه لا يبقى في النار أحد من أهل التوحيد وأهل لا إله إلا الله، وأنه يُخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وكذلك الأحاديث التي في شفاعته ﷺ وأنها نائلة من مات لا يشرك بالله شيئًا وأشباه ذلك من الأحاديث.

وفي الحقيقة أنك قد تجد أحاديث تخالف هذه القاعدة، وتوافق أقوال المعتزلة أو الخوارج، وقد تجد أيضًا آيات في ذلك، فتجد بعض الآيات يترتب فيها الوعيد على ذنب دون الشرك، كالوعيد في آية القتل عمدًا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] فهذا وعيد شديد والذنب دون الشرك.

ومثل آكل الربا في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

ومثل آكل مال اليتيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وأشباه ذلك.

. . . .

ومثلها في الأحاديث فقد ورد وعيد شديد على بعض الذنوب كقوله ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**»[1] أي نمام. وقوله ﷺ : «**ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[2]. وقوله في الحديث: «**من عقد لحيته، أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة فإن محمدًا بريء منه**»[3]. وحديث: «**من غشنا فليس منا**»[4] وأشباه ذلك أحاديث كثيرة.

وربما تُوعِّد عليها بالنار وبالخلود في النار، فما موقفنا من هذه الأحاديث؟

موقف أهل السنة من هذه الأحاديث أنها تُجرى على ظاهرها؛ ليكون أبلغ في الزجر. ولكن بعض العلماء رحمهم الله حاولوا تأويلها، وقد تكلفوا فتجد أحاديث كثيرة في هذا الباب في صحيح مسلم في الجزء الثاني من المجلد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٦) في الأدب، باب: «ما يكره من النميمة». ومسلم برقم (١٠٥) في الإيمان، باب: «بيان غلظ تحريم النميمة». عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٧) في الجنائز، باب: «ليس منّا من ضرب الخدود». ومسلم برقم (١٠٣) في الإيمان، باب: «تحريم ضرب الخدود...». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٦) في الطهارة. والنسائي (٨/ ٣٥) كتاب الزينة برقم (٥٠٦٧) وأحمد في المسند (٤/ ١٠٨، ١٠٩) وصححه الألباني. انظر هامش حديث رقم (٣٥١) من مشكاة المصابيح.

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٠١) في الإيمان، باب: «قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الأول ففيه أحاديث كثيرة فيها الوعيد الشديد على بعض الذنوب والمعاصي وتجد الشارح وهو الإمام النووي رحمه الله قد تأول كثيراً منها وحاول صرفها، وأكثر العلماء قالوا: إنها في مستحلٍّ ذلك، يعني محمولة على من فعل ذلك مستحلاً، بخلاف ما إذا فعله متأولاً أو متساهلاً في اعتقاده للتحريم، فإنه لا يخرج من الملة، ولا يدخل في الكفر، ولا يحكم بخلوده في النار، وذلك لأنه جاءت مع هذه الأحاديث التي في الوعيد أحاديث أخرى كثيرة في الوعد وفي إخراج الموحدين من النار. وتجدها ـ في أول المجلد الثاني في الجزء الثالث من صحيح مسلم وغيره.

ولصراحة هذه الأحاديث أخذ بها أهل السنة، كأحاديث الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، ولمَّا لم يستطيعوا الجمع بين قبول هذه وقبول هذه، فعند ذلك قالوا: هذه الأحاديث التي في الوعيد نجريها على ظاهرها، ليكون أبلغ في الزجر. وأحاديث الوعد والبشارة بالخروج من النار ونحو ذلك؛ نقول بها لصراحتها .

وإذا تأول متأول أحاديث الوعيد فجعلها فيمن يستحل مثلاً، فمن استحل القتل يعتبر كافراً، ومنازعًا لله تعالى، ومكذبًا بشرع الله؛ لأن تحريم القتل معلوم من الدين بالضرورة.

وكذلك تحريم الربا، وتحريم أكل مال اليتيم، وتحريم التولي يوم الزحف، وتحريم قذف المحصنات، وما أشبه ذلك، كله معلوم من الدين بالضرورة،

. . . .

فالذي يكذب به ويفعله مستحلاً له يكفر، وهكذا لو استحله ولم يفعله، فلو أفتى بإباحة أكل الربا صريحًا، وأجازه ولم يكن له تأويل سائغ كأن يحلّ الربا الصريح الذي هو كربا الجاهلية، فإنه يكفر ولو لم يستعمله ولو لم يأكله.

وكذلك لو أباح أكل مال اليتيم، أو أباح القذف مثلاً، مع علمه الصريح بأنه محرم في الشرع، فإنه يعتبر منازعًا لله، مكذبًا للنصوص، فيكفر بذلك سواء فعلها أو لم يفعلها.

فقاتل نفسه مثلاً ورد فيه وعيد شديد، ولذلك لا يصلي عليه الإمام ليكون أبلغ في الزجر، ولكن يصلي عليه غير الإمام لأنه لم يخرج من الإسلام؛ فقد ورد حديث في الصحيح فيه الوعيد الشديد لمن قتل نفسه عامداً بأي صورة من الصور، وقد حمله العلماء على المستحل لذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قتل نفسه بحديدة، فحديدته يجأ بها نفسه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه، فَسُمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبلٍ فقتل نفسه، فإنه يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**»[1].

فالذي يقتل نفسه فإنه يعذب في نار جهنم، وحمل ذلك على المستحل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٧٨) في الطب، باب: «شرب السمّ والدواء به». ومسلم برقم (١٠٩) في الإيمان، باب: «غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الذي يرى أن ذلك مباح، وذلك لأن الإنسان لا يملك نفسه ولو كانت نفسه التي بين جنبيه، فليس له أن ينتهك ما حرم الله ولو بقتل نفسه، كما أنه ليس له أن يتلف ماله ولو كان ماله الذي اكتسبه بيمينه.

فلو رأيناه يحرق ماله ويقول: هذا مالي وأنا حرٌّ فيه، منعناه وأخذنا على يده، بل حكمنا عليه بالجنون، وعدم المعرفة للمصلحة، وحجرنا عليه.

وهكذا أيضًا التصرف فيما هو ملك لله تعالى.

الحاصل أن أحاديث الوعيد، الصحيح فيها أنها تُجرى على ظاهرها، ليكون أبلغ في الزجر، مع اعتقاد أنه لا يبقى أحد من أهل التوحيد مخلداً فيها، بل إن من مات وهو على الإيمان والتوحيد يعذب في النار بقدر ذنوبه وكبائره، ثم يخرج من النار بإيمانه وتوحيده.

هذا معنى قول شيخ الإسلام: إن أهل السنة يقولون في صاحب الكبيرة: إنه لا يعطى اسم الإيمان المطلق، ولا يُسلب مطلق الإيمان.

وهناك فرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؛ فالإيمان المطلق معناه: الكامل، فالعاصي لا يعطى الإيمان الكامل أو المطلق، والعاصي والمذنب لا يُسلب مطلق الإيمان، يعني اسم الإيمان، فاسم الإيمان يشمل العاصي والمطيع، والمذنب وغير المذنب، يدخلون كلهم في اسم الإيمان. يُقال: هذا معه إيمان، هذا من أهل الإيمان.

أما أهل الإيمان الكامل فهم الذين فعلو الواجبات، وكثيراً من المستحبات

. . . .

أو جميعها، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات التي تشغل عن كثير من المستحبات، فهؤلاء أهل الإيمان المطلق التام، ولذلك فإنهم يدخلون الجنة على أول وهلة، وهؤلاء هم الذين لا حساب عليهم، وذلك لعدم السيئات التي اقترفوها، وإذا اقترفوا شيئًا من الذنوب، كانوا قد تابوا وأقلعوا عنه، فمحي عنهم بالتوبة، فهؤلاء هم أهل الإيمان المطلق الكامل، وهؤلاء هم الذين مدحهم الله في كثير من الآيات كهذه الآيات التي في أول سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ [الأنفال: ٢-٤].

معلوم أن الله ما ذكر إلا خمس خصال، ولكن هذه الخصال تستتبع غيرها، فكونهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، يدل على أنهم سواء سمعوا ذكر الله بآذانهم، أو خطر ذكر الله بقلوبهم وجلت قلوبهم، أي خافت من هيبته، ولا شك أن هذا الوجل يحدث لهم ذكر الله، ويحدث لهم شكره وطواعيته، ويحدث لهم التزود من الطاعات، ويحدث لهم قوة الإيمان والمعرفة، والابتعاد عن الذنوب والسيئات والمخالفات، فكان هذا الذكر الذي يحصل به وجل القلب، يدخل فيه كثير من الحسنات أو يحدثها. **هذه هي الخصلة الأولى**.

وأما الخصلة الثانية: وهي زيادة الإيمان إذا تليت عليهم آياته، فالمراد بآياته: كلامه أو مخلوقاته التي جعلها دلالات على قدرته، فمتى تفكروا في

. . . .

مخلوقاته زاد إيمانهم، وكذلك متى سمعوا كلامه زاد إيمانهم.

كيف يزيد إيمانهم؟ مجرد السماع هل يكون سببًا في الزيادة؟

نعم؛ لأنهم متى سمعوا طبقوا، ومتى رأوا الآيات أو ذُكروا بها اعتبروا، فقوي إيمانهم الذي في القلب، بمعنى أنهم ازدادوا ثباتًا وطمأنينة في قلوبهم، ونتج عن ذلك أيضًا كثرة الأعمال، فتجدهم يكثرون من ذكر الله، ويكثرون من شكره والاعتراف بمنته، ويقبلون على التزود من أنواع عبادته، والتزود لاشك أنه يكون بأعمال يضيفونها إلى أعمالهم السابقة، فيكون ذلك زيادة في إيمانهم، فإن الإيمان - كما تقدم - يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فالآيات التي يسمعونها، إذا سمعوها عملوا بموجبها، فزادت حسناتهم وزادت أعمالهم الصالحة، فقوي وزاد إيمانهم ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وأما الخصلة الثالثة: وهي قوة توكلهم على الله وحده، فإن هذا وإن كان عملاً قلبيًا وهو التوكل، فإنه ينتج منه الرضا بالله حسيبًا ووكيلاً، بحيث يفوضون إليه أمورهم، ويرضون بتدبيره وتصرفه، ولا يعترضون على شيء من أحكامه وقضائه وقدره، وكذلك يتوكلون عليه في كل أمورهم وشئونهم وما أشبه ذلك ويثقون أنه حسب من توكل عليه.

أما الحديث: ففيه أيضًا نفي الإيمان عن بعض العصاة، فإن قول النبي ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع**

. . . .

الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[١] .

هذه الخصال الأربع من كبائر الذنوب، متوعدٌ عليها بوعيد شديد في الدنيا؛ بالجلد مثلاً للزاني غير المحصن وكذلك القاذف، أو الرجم للزاني المحصن، أو بقطع اليد للسارق، أو ما أشبه ذلك من العقوبات المقررة شرعًا. وهناك وعيد في الآخرة أيضًا، لأنه قد اختلف: هل الحدود مكفرة لتلك الذنوب المقترفة أو ليست بمكفرة.

فالحاصل أن هذه ذنوب وكبائر، وفيها وعيد شديد، ولو لم يكن فيها إلا هذا الحديث الذي فيه أنه ليس بمؤمن؛ **«لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** إذًا ماذا يكون؟ هل يكون كافرًا إذا شرب الخمر؟ من العلماء من يقول: إن الإيمان ينتزع عنه، إذا تلبس بالزنا خرج منه الإيمان، وصار عليه كالظُّلَّة، فإذا تاب رجع إليه، ولا يرجع إليه الإيمان كاملاً، بل يكون ناقصًا، وهكذا إذا تلبس بجريمة شرب الخمر، فإنه ينتزع منه الإيمان، فلا يكون مؤمنًا في تلك الحالات، فإذا تاب رجع إليه الإيمان، وهل يرجع الإيمان كما هو أم يرجع ناقصًا متغيرًا؟ لاشك أنه يرجع ناقصًا فهذا قول.

والقول الثاني: أننا نُسميه فاسقًا، لا نسميه مؤمنًا ولا كافرًا، بل نطلق عليه الفسق، وذلك لأن الفسق اسم للخروج عن الطاعة، وإن كان قد يطلق الفاسق على الكافر، وقد يحكم على الفاسق بأنه في النار كما قال تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٨٣ .

. . . .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠] لكن كأنهم في عرفهم جعلوا الفسق أقل من الكفر وفي منزلة دون الكفر.

فعلى كلٍّ حال: أطلق بعض العلماء على هؤلاء العصاة - على الزاني والسارق وشارب الخمر، والمنتهب الذي يختطف أموال الناس، ويذهب بها ويخطفها غصبًا - أطلقوا عليه أنه فاسق، وأطلق عليه بعضهم أنه عاصٍ، وقال بعضهم: إنه مؤمن بإيمانه، يعني بتوحيده وشهادته، وفاسق بكبيرته وذنبه الذي اقترفه، فيكون ليس بمؤمن كامل الإيمان، فيسلب الإيمان المطلق الذي ذكر في الآية التي فيها خصال الإيمان ولا يسلب مطلق الاسم، فإننا إذا سلبناه إياه أشبهنا المعتزلة أو الخوارج، فلا نخرجه من الإيمان، بحيث يكون دمه وماله حلالاً، ولا نعطيه وصف الإيمان الكامل الذي يستحق به أن يدخل الجنة على أول وهلة.

فبكل حالٍ، العاصي والمذنب متوعد، وما دام أنه متوعد فينبغي له أن يخاف ويحذر ويعود إلى رشده وصوابه ويقبل على طاعة ربه، حتى ولو كان متوعدًا بأن يدخل النار وقتًا قصيرًا ثم يخرج منها، فإن هذا الوعيد كفى به زاجرًا له عن المعاصي وعن الأفعال القبيحة؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يصبر على العذاب في جهنم ولو لحظة واحدة، فكيف بمدة يكون فيها العبد معذبًا في جهنم ولا يعرف متى ستنتهي، قد تكون سنة أو سنتين أو مائة، أو ألفًا،

. . . .

وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما يعدون.

نسأل الله أن يحمينا من الفتن والمعاصي كبيرها وصغيرها.



الواجب نحو أصحاب الرسول ﷺ وذكر فضائلهم.

[فَصْلٌ: ومِنْ أُصـول أَهْلِ السُّنَّة والجَمَاعَة سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ لأصْحاب رَسُولِ الله ﷺ؛ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ به في قَوْله تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعةُ النبيِّ ﷺ في قَوْله: «لا تَسبُّوا أَصْحَابي فوَالَّذي نَفْسي بيَده لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»[1].

وَيَقْبَلُونَ مَـا جَاءَ بِـهِ الكِتَابُ والسُّنَّةُ والإِجْمَـاعُ مِنْ فَضَـائِلِهِمْ ومَراتِبِهِمْ].



■ قـولـه: (فـصل: ومن أصـول أهـل السنة والجـماعـة سـلامـة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ...):

هذا الفصل تكلم فيه المؤلف رحمه الله عن الصحابة وأطال فيه وفصَّل،

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٧٣) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً». ومسلم برقم (٢٥٤٠) في فضائل الصحابة، باب: «تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم». عن أبي هريرة رضي الله عنه

. . . .

والسبب في ذلك أن الرافضة ابتلوا بسبِّ الصحابة، وتسلطوا عليهم، فصاوروا يكفرونهم ويضللونهم.

وحيث إن الصحابة هم الواسطة بيننا وبين النبي ﷺ، فإن الطعن فيهم طعن في الشرع كله، وذلك لأننا بواسطتهم عرفنا الإسلام، فهم الذين نقلوا لنا القرآن، ونقلوا لنا الأحاديث بعد أن سمعوها من النبي ﷺ، وهم الذين نقلوا الأعمال التي عملها الرسول ﷺ والصحابة في زمنه، فهم الذين نقلوا لنا الحلال والحرام والفرض والواجب والمستحب والمكروه، وهم الذين نقلوا لنا الأذان على هذه الهيئة، والمواقيت علي تلك الكيفية، والصلوات على هذا العدد وكذلك بقية الأعمال، كالصوم والجهاد والحج وما أشبهه.

كل ذلك إنما تلقاه المسلمون بواسطة صحابة الرسول ﷺ، فلما كان كذلك كان الطعن عليهم طعنًا في الإسلام، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمرهم بالتبليغ لمن بعدهم وقال: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»[1]، وقال: «**بلغوا عني ولو آية**»[2].

وحيث إن الصحابة هم الذين قرءوا القرآن بواسطة النبي ﷺ، وكذلك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧، ١٠٥) في العلم، باب: «قول النبي ﷺ: «**رب مبلغ أوعى من سامع**». ومسلم برقم (١٦٧٩) في القسامة، باب: «تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٦١) في الأنبياء، باب: «ما ذكر عن بني إسرائيل». من حديث حذيفة رضي الله عنه.

. . . .

سمعوا أحاديثه، ورأوا أفعاله وأعماله ونقلوها لمن بعدهم، وتقبلتها الأمة التي نقلت عنهم، فإن إجماع الأمة على ثقتهم وعلى عدالتهم وعلى قبول رواياتهم، تزكية لهم.

فالتابعون قبلوا منهم فدلَّ على أنهم أهل أن تقبل منهم روايتهم، وكذلك أبناؤهم وتلامذتهم قبلوا منهم وزكوهم، ثم اتفق أئمة الجرح والتعديل على أن الصحابة لا يجوز الطعن فيهم، تقبل روايتهم كلهم، فقالوا: إن الصحابة كلهم عدول، فليس في الصحابة من يُطعن فيه، لا في عقيدته، ولا لبدعة فيه، ولا لسوء حفظ، ولا لتهمة بكذب، بل مع كثرة التتبع لأحاديثهم، شهدوا لهم بأنهم أهل العدالة والأمانة والذكاء، والحفظ والصدق، فلم يردوا رواية واحد منهم متى ثبتت عنه، فتزكية الأمة لهم دليل على عدالتهم.

أما أسباب الطعن فيهم فقد حدثت من الرافضة، وكان الرافضة أولاً ما بلغوا إلى درجة السب واللعن، كان منبعهم من العراق، وذلك لأنه في زمن بني أمية، ابتلي بعض الولاة بسبِّ علي رضي الله عنه على المنابر، وبتنقصه وعيبه، وبتزكية ولاة بني أمية والشهادة لهم، فكان هناك بعض من يحب عليًا محبة شديدة من أهل العراق الذين أسلموا على يديه، وتعلموا على يديه، فكانوا يسمعون هذا السباب وهذا اللعن فيسوؤهم ويحزنهم، ولا يجدون مجالاً للإفصاح بما في نفوسهم، ولا يستطيعون الرد على أولئك الولاة والأمراء مخافة الضرب والتعذيب.

. . . .

ففكروا في إنشاء جماعات فيما بينهم، يجتمعون في بيت أحدهم، ويتذاكرون فضائل علي رضي الله عنه وآثاره الحسنة ومزاياه، ثم دخل معهم بعض الجهلة، وصاروا يسمعون هذه الفضائل ثم أخذوا ينقلونها إلى غيرهم ممن هم على نحلتهم، وكان من بين هؤلاء من استحل المبالغة والكذب والزيادة، وحملتهم محبتهم لأهل البيت - علي وذريته - على أن يزيدوا، فزادوا في فضائله وفضائل أهل بيته ما ليس بصحيح، فسمع هذه الأكاذيب بعض الجهلة والدهماء فاعتقدوا أنه أفضل من الخلفاء، فعند ذلك طعنوا في الخلفاء، وأصبحوا يتتبعون أخطاء الخلفاء أو ما يظنونه هم أخطاء ويطعنون عليهم بسببها، ثم زاد الأمر، فلم يتركوا واحداً من الصحابة إلا سبوه وكذبوا عليه، ورموه بمفتريات وطعنوا فيه بطعونٍ.

فمنهم من وصل طعنه إلى الخلفاء الراشدين، وسيأتينا في هذه العقيدة - إن شاء الله - بيان تزكية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لهم، وهو قدوة هؤلاء والمعظم عندهم. وتجاوز آخرون ذلك كله فغلوا في علي وادعوا أنه أحق بالرسالة، وزعموا أن جبريل أمر بأن ينزل بالوحي على عليٍّ، ولكنه صرف الوحي إلى محمد، ولذلك يقولون: خان الأمين، وصدَّها عن حيدر.

الأمين هو جبريل وحيدر هو علي؛ بمعنى أن جبريل انحاز وصرف الرسالة والوحي من حيدر إلى محمد ﷺ.

وجاء شيطان آخر فأوقعهم فيما هو أكبر من جعل الرسالة لعلي، وهو

. . . .

ادعاء الإلهية فيه، أي أن عليًا هو الله وهو المعبود، وقد قيل ذلك في حياة علي رضي الله عنه، وكان أول من قال بذلك هو عبد الله بن سبأ، وكان يهوديًا دخل في الإسلام زندقة ليفسد على المسلمين دينهم وعبادتهم وإسلامهم، فانخدع به أناس كثير وقال لهم: اسجدوا لعلي فإنه ربكم، فلما خرج مرة علي سجدوا له كما يسجدون في الصلاة، فسألهم وقال: ما بالكم؟ قالوا: أنت إلهنا.

عند ذلك استتابهم فأبوا أن يتوبوا، فحفر لهم أخاديد وأوقد فيها نارًا، ومن لم يتب قذفه في النار وأحرقه، فتمسكوا بعقيدتهم أكثر وقالوا: الآن أيقنا بأنك إله لأنك عذبت بالنار، ولا يعذب بالنار إلا ربّ النار!! وكانوا يقذفون بأنفسهم في تلك النار ويقولون: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] فأنكر عليهم علي ذلك وخدَّ لهم الأخاديد وجعل يقول:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا   أجَّجتُ ناري ودعوت قنبرا

وقنبر هو غلام علي رضي الله عنه.

فالحاصل أن هذه العقيدة - وهي اعتقادهم أن عليًا هو الله - لم تقتصر على ابن سبأ ومن كان في زمنه بل لا يزال من يعتنقها إلى الآن، في فرقة يقال لهم: القرامطة والباطنية من غلاة الرافضة، يزعمون أن عليًا هو الله، وأن محمدًا هو الرسول، وأن سلمان هو ملك الوحي، وكانوا من الفرس فغلوا في سلمان لأنه فارسي منهم.

. . . .

وزاد غلوهم حتى إنهم كانوا يقولون: أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين، ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين، ولا مندوب له إلا سلمان ذو القوة المتين.

فالحاصل أن أول أمر الرافضة كان تفضيلاً لعلي، وبحثًا في فضائله وجمعًا لها، فدخل معهم بعض الجهلة فولدوا أكاذيب وسبوا الصحابة، وقالوا: إن الصحابة أعداءٌ له، ولا يتم حُبنا لعلي إلا إذا أبغضنا كل الصحابة؛ لأنهم أعداء لعلي، وزادت طائفة أخرى فوصل بهم الأمر إلى أن جعلوه أولى بالرسالة، وزادت طائفة أخرى إلى أن جعلوه إلهًا وخالقًا وربًا فتعالى الله عن ذلك.

والذين يعبدونه الآن لا يقتصرون عند هذه العقيدة، فإنك تسمعهم في المطاف يطوفون بالبيت وهم يدعونه، ونسمعهم وهم في عرفة التي هي الموقف الأعظم ومعهم كتب قد يبلغ الواحد منها مجلداً كبيراً، ليس فيه إلا دعاء علي ووصفه بأوصاف لا يستحقها إلا الخالق؛ يا علي الذي يملك الخلق والأمر، يا علي الذي يملك النفع والضر، يا علي الذي يملك العطاء والمنع، يا علي الذي يتصرف في الكون كيف يشاء.

وإذا تأملت تلك الأوصاف فإذا هي متفرعة عن عقيدة الذين يزعمون أنه هو الله.

فالحاصل أن المسلمين اهتموا بذكر فضائل الصحابة ليردوا بذلك عقيدة

. . . .

الرافضة ونحوهم.

والرافضة يسمون أنفسهم شيعة، يعني أنهم شايعوا عليًا، أي أنهم أشياعه وأعوانه وأحبابه وأنصاره، ولكن أهل السنة والجماعة يسمونهم رافضة، فأهل الإسلام قلوبهم سليمة لأصحاب النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى مدحهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فطلبوا من ربهم ألا يجعل في قلوبهم غلاً لأهل الإيمان، ومن المعلوم أن أولى الناس بالإيمان من هذه الأمة هم الصحابة لسبقهم وفضيلتهم، فكل من جاء بعدهم داعيًا لهم فهو من أهل هذه الآية، ومن جاء بعدهم مكفراً لهم فليس من أهل هذه الآية، ولا يستحق الثناء ولا المدح المذكور في هذه الآية.

الرافضة يزعمون أن الصحابة قد خانوا في القرآن، وقد كتموا منه، وأخفوا منه شيئًا كثيراً، أخفوا أكثر من ثلثيه، وستروا فضائل أهل البيت وفضائل علي رضي الله عنه.

وكل ذلك كذب لأن عليًا رضي الله عنه إنما كان يصلي بهذا القرآن، وحفظ عنه الصحابة القرآن، فكيف يكون هناك قرآن لم يقرأه وهو يعرفه.

كذلك المسلمون يحفظون وصية النبي ﷺ في أصحابه، حيث أوصاهم بأصحابه خيراً، ثبت أن عبد الرحمن بن عوف كان من السابقين الأولين،

. . . .

وخالد بن الوليد كان من الذين أسلموا متأخرين في سنة ثمان، تسابًّا فقال النبي ﷺ لخالد: «**لا تسبوا أصحابي - يعني القدماء - فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[1].

والمد هو ربع الصاع، والنصيف يعني نصف المد؛ يعني لو أنفقتم ذهبًا مثل جبل أحد الذي يُضرب به المثل في الكبر، أنفقتموه في سبيل الله، وأنفق أحدهم مدًا أو نصف مد من طعام لكان ذلك أفضل، وذلك لأنهم تبعوا الرسول في زمن الشدة، وصبروا على البلوى وعلى الأذى، وأنفقوا وهم محتاجون إلى من ينفق عليهم، وتركوا أموالهم وأولادهم وبلادهم لله تعالى، فكيف يقاس بهم غيرهم؟ وهذا أيضًا يُلحق به غيرهم، فإن كل الصحابة الذين أسلموا مع الرسول وناصروه لهم فضل الصحبة.

فالحاصل أن أهل السنة يحفظون وصية النبي ﷺ هذه لأصحابه، ولذلك فإنهم يعترفون بفضل الصحابة رضي الله عنهم.



---

(١) تقدم تخريجه ص ١٩٧.

التفضيل بين الصحابة:

[ويُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ ـ وهُو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ـ وقَاتَلَ عَلى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وقَاتَلَ.

ويُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلى الأنْصارِ.

ويُؤمِنُونَ بأَنَّ اللهَ قَالَ لأهْلِ بَدْرٍ ـ وكَانُوا ثَلثَمِائَةَ وبِضْعَةَ عَشَرَ ـ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

وبأنهُ لا يدخلُ النارَ أحدٌ بَايعَ تحتَ الشَّجرةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ[2]، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ، وكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وأَرْبَعِمِائَةٍ[3]].



▪ **قوله: (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل...):**

ذكر المؤلف في هذا الفصل مسألة التفضيل بين الصحابة رضي الله عنهم،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٧) في الجهاد والسير، باب: «الجاسوس». ومسلم برقم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم». عن علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل أصحاب الشجرة». عن أم مبشِّر رضي الله عنها.

(٣) قال جابر بن عبد الله: «قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربعمائة» أخرجه البخاري برقم (٤١٥٤) في المغازي، باب: «غزوة الحديبية».

. . . .

وأن بعضهم أفضل من بعض؛ فالمهاجرون الأولون الذين أسلموا قبل صلح الحديبية لاشك أنهم أعظم مرتبة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى، فالذين أسلموا قبل صلح الحديبية - وكان سنة ست - أفضل بكثير من الذين أسلموا بعده؛ لأنهم أسلموا في وقت الشدة، وتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في وقت الضعف، وهاجروا وجاهدوا وأنفقوا جميع ما يملكون، وصبروا على الأذى في ذات الله تعالى، فلا يلحق بهم غيرهم، وكلاً وعد الله الحسنى.

كذلك أيضًا من المعلوم أن الصحابة يتفاوتون، فالمهاجرون أفضل من الأنصار؛ وذلك لأن المهاجرين أسلموا قديمًا قبل الأنصار في مكة، وكثير منهم أوذي؛ كبلال وصهيب وعمار ونحوهم، اضطهدوا وضربوا وألقي بهم في الرمضاء، وعذِّبوا، وكانت نهايتهم أن هاجروا، تركوا بلادهم ووطنهم، وتركوا أموالهم وديارهم وما يملكون، وهاجروا لينجوا بأديانهم، كلٌّ منهم يفر بدينه من الفتن.

والأنصار - رضي الله عنهم - لهم فضل فهم الذين آووا ونصروا، ذكرهم الله تعالى بهذا، فبدأ بالمهاجرين ثم ثنى بالأنصار فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا** ﴾ [الأنفال: ٧٤]؛ الذين آمنوا وهاجروا هم المهاجرون والذين آووا ونصروا هم الأنصار.

وذكر المهاجرين أيضًا في قوله: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ [الحشر: ٨] ثم ذكر الأنصار

. . . .

بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فالأنصار لهم مزية ولكن المهاجرين أفضل منهم، ولهذا يقدمهم الله كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. هذه أيضًا من فضائلهم، ولا شك أيضًا أن لهم فضائل ومزايا أخرى.

وهناك أيضًا من اختصوا بفضائل ومزايا وردت بها الآيات والأحاديث كأهل بدر، فإن من فضيلتهم أن الله اطلع على أهل بدر فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1] علم الله في سابق الأزل أنهم يموتون متمسكين فغفر لهم ما وقعوا فيه من أخطاء، وكان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو نحو ذلك.

فهؤلاء أغلبهم من الأنصار، وفيهم من المهاجرين، وقتل منهم نحو أربعة عشر ونصرهم الله وأمدهم بملائكته الذين قاتلوا معهم حتى هزموا عدوهم، هذه فضيلة لهم.

كذلك أهل بيعة الرضوان الذين شهدوا صلح الحديبية؛ وذلك أنهم لما كانوا تحت الشجرة، طلب منهم النبي ﷺ أن يبايعوه على القتال، وعلى ألا يفروا فبايعوه، وكانوا نحوًا من ألف وأربعمائة أو أكثر، فهؤلاء قد أخبر النبي ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

. . . .

بأنهم يدخلون الجنة وقال: «**لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة**»[1] وأخبر الله تعالى بأنه قد رضي الله عنهم في قوله: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح: ١٨].

سادة الصحابة رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ الذين سماهم الله تعالى السابقين وسماهم المهاجرين والأنصار ـ كيف تتسلطون عليهم يا معشر الرافضة وتسبونهم، وتزعمون أنهم مرتدون، وأنهم أردأ خلق الله، وأنهم خانوا الأمانة وتفضلون أنفسكم عليهم؟!، لا شك أن هذا عناد ومخالفة للأدلة الصحيحة التي أشير إليها، ومخالفة أيضًا للواقع والمحسوس.

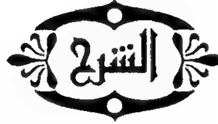


---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

الشهادة بالجنة

[وَيَشْهَدُونَ بِالجنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَه رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كالعشرةِ[1] وثابتِ بن قيسِ بن شماس وغيرِهِمْ مِنَ الصَّحَابة[2]].



■ قوله: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة):

من المسائل التي تتعلق بالصحابة رضي الله عنهم: مسألة الشهادة بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ بها؛ فمن عقيدة أهل السنة أنهم لا يشهدون بالجنة ولا بالنار لمعين إلا تبعًا للنصوص، فمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة شهدنا له بها، ومن شهد له بالنار شهدنا له بها. وأما إذا ورد وعيد عام أو ثواب عام فلا نقول: هذا من أهل الجنة، وهذا من أهل النار على الإطلاق.

تقدم لنا ما يدل على شيء من فضل الصحابة، ومن ذلك قوله ﷺ في أهل بدر: «**إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3] هذا في أهل بدر الذين حضروا غزوتها وكانوا ثَلَثمائَة وبضعة عشر،

(١) سيأتي تخريج الحديث في ذلك ص ٢١٠.
(٢) سيأتي تخريجه ص ٢١١.
(٣) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

. . . .

وتقدم أيضًا أن أهل بيعة الرضوان قد رضي الله عنهم وكانوا ألفًا وأربعمائة أو أكثر، ذكر الله أنه رضي عنهم : : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وثبت أن النبي ﷺ قال: **«إني لأرجو ألا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»**[١] ؛ وذلك لأن الله رضي عنهم، ورضاه عنهم يفيد أنهم من أهل الرضا، وأهل الرضا يبقون على تلك الخصال المحمودة التي رضيها لهم؛ إذا رضيهم ورضي أعمالهم ورضي حالاتهم، فمن آثار رضاه أن يوفقهم، ويسددهم، فلا يحدث منهم ارتداد، ولا يحصل منهم أعمال سيئة تحبط الأعمال.

أما الشهادة بالجنة يقينًا، فإنما تتوقف على النقل، فقد ثبت الحديث في مسند أحمد وغيره أن النبي ﷺ قال: **«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة»**[٢] . هؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة، فهؤلاء نشهد لهم بالجنة.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٤٩، ٤٦٥٠) في السنة. والترمذي برقم (٣٧٤٨، ٣٧٥٧) في المناقب وقال عن الثاني: حسن صحيح. وابن ماجه برقم (١٣٣) في المقدمة. وأحمد في المسند (١/ ١٨٧، ١٨٩) وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٥٠). وقال أحمد شاكر (١٦٢٩): إسناده صحيح.

. . . .

وكذلك ثابت بن قيس بن شماس الذي هو خطيب النبي ﷺ لما نزل قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢].

خاف ثابت أن يكون قد حبط عمله؛ لأنه كان جهوريَّ الصوت، فجلس يبكي في بيته، وجاء الخبر إلى النبي ﷺ، وأنه يقول: أخشى أن يكون قد حبط عملي وأني من أهل النار. فقال النبي ﷺ: «**ارجع إليه وقل له: إنك من أهل الجنة**»[1].

يقول الراوي: فكنا نراه يمشي بيننا وهو من أهل الجنة. استشهد رضي الله عنه في حرب أهل الردة؛ لما حارب الصحابة بني حنيفة، ثبت ولم ينهزم، ووقف في موقفه حتى قتل شهيداً مقبلاً غير مدبر، فكان ذلك علامةً على أنه وفق للوفاة على العمل الصالح.

وثبت أنه عليه الصلاة والسلام شهد لأشخاص بدخول الجنة كقوله في الحسن والحسين: «**إنهما سيدا شباب أهل الجنة**»[2] وكذلك قوله في فاطمة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٣) في المناقب، باب: «علامات النبوة في الإسلام». ومسلم برقم (١١٩) في الإيمان، باب: «مخافة المؤمن أن يحبط عمله». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٦٨) في المناقب. وأحمد في المسند (٣/ ١٦٦، ١٦٧) وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

رضي الله عنها: «**إنها سيدة نساء المؤمنين**»[١] وقوله في عائشة رضي الله عنها: «**إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[٢] كما سيأتي.

كما ثبت أنه شهد بالجنة أيضًا لبلال وقال: «**إني ما دخلت الجنة إلا سمعت دَفَّ نعليك**»[٣] . فهذا ونحوه دليل على أنه شهد لأشخاص بالجنة، فيُشهد بها لهم.



---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٠) [٩٨، ٩٩] في فضائل الصحابة، باب: «**فضائل** فاطمة بنت النبي عليهما الصلاة والسلام». عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧٧٠) في فضائل الصحابة، باب: «فضل عائشة رضي الله عنها». ومسلم برقم (٢٤٤٦) في فضائل الصحابة، باب: «في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها» عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه مسلم برقم (٢٤٤٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١١٤٩) في التهجد، باب: «فضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار». ومسلم برقم (٢٤٥٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل بلال رضي الله عنه». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التفضيل بين الخلفاء الراشدين

[وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغَيْرِهِ من أَنَّ خَيْرَ هذهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبو بَكْرٍ، ثُمَّ عمر[1] . ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلى تَقْدِيمِ عُثْمانَ في البَيْعَةِ.

مَعَ أَنَّ بَعضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفوا في عُثْمانَ وعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما ـ بَعْدَ اتِّفاقِهِمْ عَلى تَقْدِيمِ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ـ أَيُّهُما أَفْضَلُ؟

فقَدَّمَ قَومٌ عُثْمانَ. وسَكَتُوا، و رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيّاً، وقَوْمٌ توقفوا.

لكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثم علي، وإنْ كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعَلِيٍّ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ

---

(١) لما روى البخاري برقم (٣٦٧١) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»». عن محمد بن الحنفية قال: «قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين».
وصحت الرواية عن علي رضي الله عنه أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر ثم عمر، ولو شئت لسميت الثالث». أخرجه أحمد وعبد الله في المسند وزوائده (١/ ١٠٦، ١١٠) وابن أبي عاصم في السنة رقم (١٢٠١) وصححه الألباني. وقال أحمد شاكر (٨٣٦): إسناده صحيح.

فيها عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة.

لكنِ الَّتي يُضَلَّلُ فيها مَسْأَلَةُ الخلافَة، وذلك أَنَّهُمْ يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَليفةَ بعدَ رَسولِ اللهِ ﷺ: أبو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثمانُ، ثُمَّ عَليٌّ ومَنْ طَعَن في خِلافَةِ أَحَدٍ مِن هؤلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمارِ أَهْلِه].



▪ قوله: (ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر...):

هذه مسألة التفضيل بين الصحابة؛ يعني من أفضل الصحابة؟ ومن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؟

أهل السنة يروون في ذلك آثاراً وأحاديث، فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كنا نقول والنبي ﷺ حيٌّ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره»[1] بمعنى أنه أقرهم على هذا التفضيل المرتب؛

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٢٠، ٢٢١) رقم (١٣١٣١، ١٣١٣٢) والبخاري رقم (٣٦٥٥، ٣٦٩٧) كتاب فضائل الصحابة وليس فيه ذكر النبي ﷺ. وأخرجه الطبراني أيضًا في مسند الشاميين رقم (١٧٦٤). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٦١) وقال: في الصحيح طرف من أوله، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأبو يعلى بنحو الطبراني في الكبير ورجاله وثقوا وفيهم خلاف.

. . . .

فأبو بكر هو أفضل وأولى وأقدم، ثم عمر أولى من بعد أبي بكر، ثم عثمان بعدهما في الفضيلة ثم علي بعدهم أيضًا، هذا هو ترتيبهم في الفضل.

ومن المعلوم أنهم مرتبون هكذا في الخلافة، فالصحابة رضي الله عنهم اختاروا بعد النبي ﷺ خليفته أبا بكر رضي الله عنه، وذلك لأنه ﷺ أنابه في الصلاة عنه لما مرض فقال: **«امروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»**[١] فكان هو الذي يصلي بهم في حالة غيبته، حتى قبل مرضه؛ فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالمسلمين وقدموه لما ذهب النبي ﷺ يصلح بين بني عمرو بن عوف[٢].

فقال الصحابة: رضينا لدنيانا من رضيه النبي ﷺ لديننا، فبايعوا أبا بكر بالخلافة، واجتمعوا على مبايعته كلهم، ورضوا ببيعته بما فيهم أهل بيت النبي ﷺ: عليٌّ وابناه والعباس وغيرهم، كلهم بايعوا أبا بكر وذلك لفضله، فاعترفوا بفضله، وبسابقته، وبصحبته القديمة، وإنفاقه ماله كله على النبي ﷺ حتى قال النبي ﷺ: **«ما نفعني مالٌ قطُّ كما نفعني مال أبي بكر»**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨) في الأذان، باب: «أهل العلم والفضل أحق بالإمامة». ومسلم برقم (٤٢٠) في الصلاة، باب: «استخلاف الإمام إذا عرض له عذر...»

(٢) أخرجه البخاري مطولاً برقم (٦٨٤) في الأذان، باب: «من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول». عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٣، ٣٦٦). وابن ماجه برقم (٩٤) في المقدمة. وابن حبان برقم (٢١٦٦) وصححه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» برقم (١٣). وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧٤٣٩): إسناده صحيح.

. . . .

مات أبو بكر واستخلف عليهم عمر ورضيه لهم، واجتمعت عليه كلمتهم ورضوه، وسار فيهم السيرة الحسنة وصار خليفة المسلمين بعد أبي بكر.

ولما مات عمر جعل الأمر شورى بين ستة، وهم بقية العشرة إلا أن أبا عبيدة كان قد مات قبل عمر، وترك من العشرة ابن عمه سعيد بن زيد، فلم يجعله من الستة الذين جعل لهم الأمر، فبقي ستة وهم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص؛ جعل الأمر شورى بينهم، فتشاوروا فاتفقت كلمتهم على بيعة عثمان فبايعوه.

ولما قتل عثمان ظلمًا، اجتمع أهل المدينة على أن عليًا أفضل من بقي فبايعوه بالخلافة، ولم ينكر عليه خلافته أحدٌ، إلا أن أهل الشام لم يبايعوه طلبًا بثأر عثمان، فقالوا له: مكنَّا من قتلة عثمان حتى نبايعك، فتوقفوا عن مبايعته لتلك الشبهة، وإلا فهم معترفون بفضله وأنه الأولى بالخلافة.

هذا ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **«عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»**[1] فوصفهم بأنهم خلفاء، وبأنهم راشدون، وبأنهم مهديون فكان ذلك شهادة بخلافتهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٧٦) في العلم. وأبو داود برقم (٤٦٠٧) في السنة. وابن ماجه برقم (٤٢) في المقدمة. وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧) وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

ثم بقيت مسألة الأفضلية أيهم أفضل؟ الصحيح أن ترتيبهم في الخلافة وفي الفضل سواء؛ فنقول: أفضلهم أبو بكر، ويليه في الفضل عمر، ويليه عثمان، ويليه في الفضل عليّ.

ولكن التفضيل بين عثمان وعلي مسألة مختلف فيها؛ وذلك لأن بعضًا من أهل السنة جعلوا عليًا مقدمًا في الفضل على عثمان، وبعضهم عكس. وقال: الفضل لعثمان ثم لعلي، وكلاهما متقاربان.

فمن فضائل عثمان: أنه من المهاجرين الأولين، هاجر إلى الحبشة.

ومن فضائله: أنه قريب من النبي ﷺ يجتمع معه في الجد الرابع عبد مناف.

ومن فضائله: أنه تزوج بنتين من بنات النبي ﷺ: تزوج رقية، ثم تزوج بأم كلثوم، وقالوا: لم يكن هناك أحد في الدنيا تزوج بنتي نبي إلا عثمان، ولما ماتت الثانية قال النبي ﷺ: «**لو كانت لي بنت ثالثة لزوجتها عثمان**»[1].

ومن فضائله أيضًا: أنه جهز جيش العسرة على نفقته الخاصة، وأنه اشترى بئر رومة من اليهود وجعله سبيلاً للمسلمين، وفضائله غير ذلك كثيرة، فلا ينكر إذن على من جعله أفضل من علي، ولا يضلل من ذهب إلى

---

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ١٨٤) برقم (٤٩٠) من حديث عصمة قال: لما ماتت بنت رسول الله ﷺ التي تحت عثمان قال رسول الله ﷺ: «**زوجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوجته، وما زوجته إلا بالوحي من الله عز وجل**». وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٨٣) وقال: فيه الفضل بن المختار وهو ضعيف.

. . . .

تفضيل عثمان على علي أو العكس، فليست هذه من المسائل التي يُضلل فيها.

الحاصل أنه استقر أهل السنة على تفضيل أبي بكر ثم عمر وبعضهم ثلث بعلي، وبعضهم ثلث بعثمان، ولم يكفروا ولم يُضللوا من ثلَّث بعلي أو من ثلث بعثمان، وذلك لأنها من المسائل الاجتهادية، ولكن الصحيح أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وأما الخلافة فلا شك أن الخلفاء على هذا الترتيب، ومن زعم أن أبا بكر مغتصب للخلافة فإنه ضال مضل؛ كالرافضة الذين يفضلون عليًا فإنهم يطعنون في أبي بكر وفي عمر وفي عثمان، ويطعنون في خلافتهم، ويزعمون أنهم مغتصبون للخلافة، وأن الولاية كانت لعلي وأنه هو الإمام، وأن النبي ﷺ نصَّ على ذلك قبل موته، ولكن هؤلاء ظلموه في الخلافة وقهروه وأخذوا ما ليس يستحقونه، فمن طعن في خلافة أحد من الخلفاء الأربعة على ترتيبهم فهو أضل من حمار أهله أي أنه ضال مخطئ خطأ بينًا.

فالخلفاء رضي الله عنهم كلٌّ منهم اجتمعت عليه الكلمة، وبايعه أهل الإسلام، ونصر الله بهم الإسلام نصرًا عزيزًا.

ففي خلافة أبي بكر ارتد بعد موت النبي ﷺ من حولهم من الأعراب، ولم يبق إلا أهل مكة وأهل المدينة الذين تمسكوا بالإسلام، أما من حولهم فكلهم نصبوا العداوة للمسلمين، ولكن أيد الله أبا بكر وقواه، فتصدى لهم

. . . .

حتى قهرهم جميعًا في أقل من نصف سنة، فرجع المرتدون إلى حظيرة الإسلام، وقتل منهم من قتل على الكفر، وذلك أن الله ثبته ثباتًا عظيمًا، ثم في السنة الثانية قاتلوا كل من بقي من أهل الردة، وغزوا أطراف البلاد النائية واستقر الأمر.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه: انتشر الإسلام وفتح الشام بأكمله، وفتحت مصر، وفتح العراق، ووصلت الفتوحات إلى خراسان إلى إيران وما حولها، وامتدت رقعة الإسلام في خلافة عثمان أيضًا حيث توسعوا في الفتوحات، ففتحوا الكثير من بلاد إفريقية والكثير من بلاد الهند والسند.

وهكذا توسعت الخلافة، وتوسعت الفتوحات الإسلامية؛ وذلك بسبب أن الله تعالى ثبت وقوى هؤلاء الخلفاء، ونصرهم على أعدائهم، حيث إنهم صدقوا الله فصدقهم الله.

وعلى كل حال فخلافتهم هي الخلافة الحق، والطعن فيهم طعن في دين الله وشرعه، وطعن في رسوله وأنه لم يبلغ البلاغ المبين، وطعن كذلك في أفاضل المسلمين وخيارهم.



أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم

[وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»(١).

وقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ ـ وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ ـ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي»(٢).

وقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه». عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٠٧، ٢٠٨). والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٣٣). قال أحمد شاكر: (إسناده صحيح).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٦) في الفضائل، باب: «فضل نسب النبي ﷺ». عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

. . . .



■ **قوله: (ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ...)**:

في هذا الفصل بيان لحق أهل البيت وفضائلهم، وقد اختلف في آل بيت النبي ﷺ الذين يصلى عليهم معه «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد**»؛ قال بعض العلماء: آله: أتباعه على دينه، كآل فرعون يعني أتباعه؛ ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦] أي أتباعه، قال في ذلك بعضهم:

آل النبي همُ أتباع ملته   من كان من عجمٍ منهم ومن عربِ

وذهب آخرون إلى أن آله هم أهل بيته، واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيره.

إذن فآله الذين هم أهل بيته لهم مزية فضيلة، كما تدل عليه هذه الأحاديث ، **فمن مزيتهم**: قربهم من النبي ﷺ . **ومن مزيتهم**: فضلهم وشرفهم، **ومن مزيتهم**: سبقهم إلى الإسلام وتحريم الصدقة عليهم؛ لأنها أوساخ الناس، كما علل بذلك النبي ﷺ .

فآله قيل: إنهم أهل بيته، وهم أزواجه وذريته وقرابته الذين حرمت عليهم الصدقة كبني هاشم. وقيل بعدم دخول زوجاته.

ففي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف وهو حديث غدير خم، لما رجع

. . . .

النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع، ونزل في هذا الغدير خطبهم مرة وقال: «**إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله**» فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»[(١)] .

يقول زيد بن أرقم راوي الحديث: لما قيل: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته هم الذين حرمت عليهم الصدقة بعده، ثم عد منهم: آل جعفر، وآل العباس، وآل علي، وآل عقيل بن أبي طالب، أي كل من كان من بني عبد المطلب، ومن بني هاشم، هؤلاء لهم مزية وقرابة.

والصحيح أن زوجات النبي ﷺ من أهل بيته؛ وذلك لأن الله ذكر فضلهن ومدحهن في القرآن كقوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٣٢] الآيات، وذكر مضاعفة أجرهن مرتين لتميزهن واختيار النبي ﷺ لهن زوجات له في الدنيا والآخرة فإن الله أمره أن يخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الدار الآخرة فكلهن اخترن الدار الآخرة وقد أضاف بيوتهن إليهن في قوله: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وأضافها إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه». عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

. . . .

طَعَامٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فدل على أن بيوتهن هي بيوت النبي ﷺ فهن من أهل البيوت ومعلوم أن جميعهن زوجاته وهو ينفق عليهن وقد عرف مثلاً أن عائشة رضي الله عنها ليست من بني هاشم، وقد بُعث إليها مرة بصدقة فأبت أن تقبلها وقالت: «إنا لا نأكل الصدقة» وقد كانت زوجاته لا يأكلن من الصدقة التي يؤتى بها إليه، بل كان يردها، ولم يكن يقبلها، ويأمر بإرسالها إلى أهل الصُّفة وإلى الفقراء والمحتاجين والمساكين، ولو كانت تحل لزوجاته لأباحها لهن، والدليل على أن نساءه من أهل بيته قول الله تعالى: **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وردت هذه الآية بعد خطاب أمهات المؤمنين: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** أهل البيت يعني يا أهل البيوتات **﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** الصحيح أنها في أهل البيت الذين من جملتهم زوجات النبي ﷺ وبناته وأولاد بناته ونحوهم فكلهم داخلون في هذه الآية.

أما ما ذكره الرافضة ونحوهم من أنها خاصة بعلي وذريته وزوجته فليس على ذلك دليل، ورووا أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية دعا فاطمة وابنيها وعليًا وألقى عليهم كساء وقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم**

. . . .

الرجس وطهرهم تطهيراً»[1] ولا يصح هذا النقل، والصحيح أن زوجاته من أهل بيته.

وعلى كل حال فأهل بيته - زوجاته وقراباته - لهم هذا الفضل وغيره، ومن فضلهم أنهم يدخلون في الصلاة عليه؛ فيقول المصلي: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد**». وفي بعض الروايات «**وعلى أزواجه وذريته**»[2]، وفي بعض الروايات «**وأهل بيته**»[3] فدل ذلك على أن لهم مزية وفضيلة.

وأهل السنة يتولونهم، ولا يقاطعون غيرهم من الصحابة، أما الرافضة فإنهم يغلون في أهل البيت، ويقاطعون غيرهم، ويزعمون أن أهل السنة يبغضون أهل البيت، ويقولون: إنكم ما أحببتم أعداءهم إلا وقد أبغضتوهم، يقولون: لا يمكن أن يجتمع ولاء إلا ببراء، لا توالوا أهل البيت حتى تتبرءوا من غيرهم، وهذا خطأ لأن الصحابة كلهم أولياء، وكلهم صحابة، وكلهم أفاضل، وكلهم لهم سبقهم ولهم فضلهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٧١) في المناقب وقال الترمذي: هذا حديث حسن. قلت: فيه شهر بن حوشب سيئ الحفظ.

(٢) وهذه إحدى صيغ الصلاة على النبي ﷺ، أخرجها البخاري برقم (٣٣٦٩) في الأنبياء، باب: «١٠». ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة، باب: «الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد». عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٧٤). عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وصححه الألباني في صفة الصلاة ص (١٣٠).

. . . .

فعلي رضي الله عنه ـ كما تقدم ـ قد أخبر على رؤوس الأشهاد بأن أفضل الأمة أبو بكر ثم عمر، فكيف يكون أبو بكر وعمر عدوين لعلي وهما أفضل الأمة بشهادة عليٍّ نفسه؟

وكيف نجوز البراءة من هذين الرجلين اللذين هما أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ كما تدعيه الرافضة؟! فيقولون: لا ولاء إلا ببراء؛ يعني لا تكون مواليًا أهل البيت حقًا إلا إذا تبرأت من أعدائهم وأولهم أبو بكر وعمر، فهذا كله كذب وبهتان، فأهل السنة يتولونهم، ويحبونهم، ويدعون لهم، ويصلون عليهم مع النبي ﷺ ويترضون عنهم.

وهذا دليل على كذب الرافضة في دعواهم أن أهل السنة يبغضون عليًا وآله، فنحن نحبهم ونقربهم ونقبل منهم، ولكن لا نصل إلى ما وصلت إليه الرافضة من بغض بقية الصحابة، ولا من الغلو الذي وقعوا فيه تجاه آل البيت، حيث إنهم جعلوهم أندادًا يعبدونهم من دون الله، ويجعلون لهم شيئًا من حق الله تعالى، فإن هذا لا يجوز بل هو كذب وكفر وشرك.

وأهل البيت رضي الله عنهم لا يرضون أن يُشركوا مع الله، ولا أن يدعوا مع الله، ولا أن يُجعل لهم شيء من ملك الله ومن حقه، كذلك أيضًا لا يرضون أن يفضّلوا على غيرهم.

والحاصل أن أهل السنة يترضون عن أهل البيت ويحفظون فيهم وصية

. . . .

الرسول ﷺ في هذا الحديث: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»(١)، كذلك أيضًا يحذرون من نقص العقيدة والإيمان الذي توعد به النبي ﷺ في هذا الحديث، لما أخبره العباس أن بعض قريش يجفو بني هاشم قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنوا حتى يحبوكم لله ولقرابتي**»(٢)؛ يعني لا يكون إيمانهم كاملاً ولا تكمل متابعتهم إلا إذا أحبوكم لله؛ يعني لكونكم مؤمنين بالله متبعين لسنة رسوله، وكذلك أيضًا يحبونكم لقرابة النبي ﷺ.

وقد تبين من قوله: «لله» أن هذا خاص بمن آمن منهم، أما من لم يؤمن فإنه لا يدخل في الولاية مثل أبي لهب؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه من أهل النار ﴿**سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ ولو كان عم النبي ﷺ، ومثل أبي طالب؛ فقد أخبر النبي ﷺ أنه: «**في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه**»(٣) وأن عليه شراكين من نار(٤)، ولو كان عم النبي ﷺ، ولو كان والد علي؛ لأنه مات على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

إذًا فالترضي والثناء والذكر الحسن خاص بمن آمن منهم، ولا شك أن الله

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٢٠.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٥٦٤) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». ومسلم برقم (٢١٠) في الإيمان، باب: «شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) البخاري برقم (٦٥٦١، ٦٥٦٢) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». ومسلم برقم (٢١٣) في الإيمان، باب: «أهون أهل النار عذابًا». عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

. . . .

تعالى قد ميزهم وفضلهم بقرابتهم للنبي ﷺ، ولكن القرابة لا تنفع إلا مع حقيقة الإيمان والمتابعة، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«من بطَّأ به عمله، لم يسرع به نسبه»**(١).

إذا كان نسبه شريفًا، ولكنه ليس متبعًا للنبي ﷺ وليس مطبقًا لشريعته، فلا ينفعه كونه قريبًا للرسول ﷺ، ولا كونه من قريش ولا بني هاشم، أو غيرهم، بل تكون الحجة عليهم أكبر، والعقوبة عليهم أعظم، حيث إنه أولى الناس باتباع النبي ﷺ لقرابته وأهليته.

فلا شك أن الله تعالى قد فضل بني هاشم بهذه الفضيلة، وكما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم قول النبي ﷺ: **«إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**(٢).

فأخبر بأنه سلالة من سلالة وصفوة من صفوة، فهو صفوة بني هاشم وخيرتهم، وبنو هاشم صفوة وخيرة قُريش، وقريش صفوة كنانة الذين هم قبيلة من مضر، وكنانة صفوة من بني إسماعيل، الذين هم من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، والاصطفاء: الاختيار، اصطفاني أي اختارني، وأصله من التصفية، كأنه صفي حتى كان صافيًا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب: «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٢٠.

. . . .

وقد ذكر الله الاصطفاء لعباده الأنبياء ونحوهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧] المصطفين: يعني المختارين، فالنبي ﷺ هو المصطفى أي الصفوة من الصفوة.

فلما أخبر أن بني هاشم صفوة قريش، كان ذلك دليلاً على ميزة لهم وفضيلة، فيدل على أن لهم حق التكريم والاحترام، وأن لهم حق الشرف والفضل، وأن لهم حق الولاية والمحبة، ولكن ذلك كما عرفت خاصٌّ بمن آمن بالله واتبع رسوله ﷺ، وإلا فالتقي لله تعالى والمطبق لشرعه هو أشرف الناس وأولاهم برسوله ﷺ ولو كان أبعد الناس وأضعفهم نسبًا، والعاصي أو الفاسق أو الكافر هو أبعد الناس من رسول الله ﷺ ولو كان من أشرف الناس نسبًا، كما قال بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس كما وضع الشرك النسيب أبا لهب

فسلمان مع كونه فارسيًا، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**سلمان منا أهل البيت**»(١)، وأبو لهب مع كونه عم النبي ﷺ قال الله في حقه: ﴿**سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ [المسد: ٣].

وروي عن جعفر الصادق أنه لما رآه إنسان يبكي ويكثر من الخوف

---

(١) أخرجه الحاكم والطبراني وهو في ضعيف الجامع الصغير رقم (٣٢٧٢).

. . . .

والوجل، ذكره بأن له حق القرابة وفضل النسب، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] وإن صاحب التقوى هو المقرب عند الله، فمن كان تقيًا فهو المقرب ولو كان عبدًا حبشيًا، ومن كان عاصيًا فهو المبعد ولو كان شريفًا قرشيًا أو كما قال رضي الله عنه.

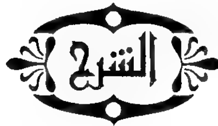


أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

[وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ:

خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[1]].



■ قوله: (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة...):

يتولى أهل السنة زوجات النبي ﷺ، فيترضون عنهن، ويشهدون لهن بالفضل، وأنهن أمهات المؤمنين، وأنهن زوجات النبي ﷺ في الآخرة؛ لأن الله خيرهن على لسان نبيه فاخترن الآخرة. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٢.

. . . .

كل منهن كانت تقول أريد الله ورسوله والدار الآخرة، فلشرفهن سُمِّين: أمهات المؤمنين، ولهن الميزة والفضل، لكونهن زوجاته ﷺ، واللاتي صبرن على شظف العيش وضيق ذات اليد معه ﷺ، وصبرن عن الأزواج بعده، ورضين بأن يكن زوجاته في الآخرة كما كن زوجاته في الدنيا، وحرم نكاحهن على غيره، فأهل السنة يترضون عنهن.

واختلف في أفضلهن؛ فقيل: أفضلهن عائشة، وقيل: أفضلهن خديجة، فالرافضة تفضل خديجة وتلعن عائشة لعنهم الله.

أما أهل السنة فيقولون: خديجة لها فضل السبق والنصرة والمواساة، فإنها واست النبي ﷺ بمالها، ولها فضيلة كونها أم أولاده واحتسبت موت أولادها وصبرت على ذلك، وماتت وهي متمسكة وصابرة، فلها فضيلة السبق.

وعائشة لها فضيلة العلم؛ لأن الله تعالى شرفها بحمل العلم، فحملت علمًا جمًا ونفع الله بعلمها، وكان الصحابة يرجعون إليها إذا اختلفوا في شيء، فيجدون عندها علمًا، فرزقها الله سعة العلم وسعة الحفظ، وسميت الصديقة بنت الصديق، وفضلها النبي ﷺ في هذا الحديث فقال: **«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[1].

والثريد في ذلك الوقت هو أشرف وأفضل أنواع الأطعمة، وهو عبارة عن لحم وخبز ومرق يؤكل جميعًا، يقول فيه بعضهم:

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٢.

. . . .

إذا ما الخبز تأدمه بلحمٍ فذاك أمانة الله الثريد

فهو من ألذ الأطعمة، فلعائشة رضي الله عنها ميزة الفضل والعلم والعبادة والصحبة والصبر على البلاء، ونحو ذلك من الميزات والخصوصيات مع النبي ﷺ، ولها ميزة أخرى أن الله تعالى برأها في كتابه حين قذفها أهل الإفك، وأنزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، وذلك أيضًا دليل فضلها.

وبذلك يعرف أن زوجات النبي ﷺ لهن على الأمة حق الترضي والمحبة والموالاة، وأن من طعن فيهن من الرافضة فإنه قد طعن في الشريعة والقرآن.

فنسأل الله أن يرزقنا الحماية والعصمة عن المضلات والبدع.



موقف الروافض والنواصب من الصحابة رضي الله عنهم

[وَيَتَبَرَّؤُونَ مِن طَرِيقَةِ الرَّوافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

ويُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، ويَقُولونَ: إنَّ هذه الآثارَ المَرْوِيَّةَ في مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُو كَذِبٌ، ومِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فيه ونُقِصَ وغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، والصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورونَ: إمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وإمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وهُمْ مَعَ ذلكَ لا يَعْتَقِدونَ أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وصَغَائِرِهِ، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ في الجُمْلَةِ.

ولَهُمْ مِنَ السَّوابِقِ والفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ - إنْ صَدَرَ -، حَتَّى إنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرونِ[1]، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ

---

(١) في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» الحديث. أخرجه البخاري برقم (٣٦٥١) في فضائل الصحابة، باب: «فضائل أصحاب النبي ﷺ ...». ومسلم برقم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة، باب: «فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». عن عبد الله =

أَحَدِهِمْ إِذا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ(١) .

ثُمَّ إِذا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاءٍ فِي الدُّنْيا كُفِّرَ بِهِ.

فَإِذا كَانَ هذا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيها مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ واحِدٌ(٢)، والخَطَأُ مَغْفُورٌ(٣)].

= ابن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣٦٥٠). ومسلم برقم (٢٥٣٥). عن عمران بن حصين رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٥٣٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا برقم (٢٥٣٦). عن عائشة رضي الله عنها.

(١) في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»**. أخرجه البخاري برقم (٣٦٧٣) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ: **«لو كنت متخذاً خليلاً»**. ومسلم برقم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة، باب: «تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم».

(٢) يشير إلى حديث عمرو بن العاص أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ»**. أخرجه البخاري برقم (٧٣٥٢) في الاعتصام، باب: «أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ».

(٣) لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ: **«إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»** أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠٤٥) في الطلاق. والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٨). وابن حبان في صحيحه برقم (١٤٩٨) وحسنه النووي في الأربعين وصححه أيضًا العلامة أحمد شاكر والعلامة الألباني. انظر: إرواء الغليل رقم (٨٢).

. . . .



▪ **قوله: (ويتبرؤون من طريقة الرافضة الذين يبغضون الصحابة وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل...)**:

من تمام الكلام على الصحابة رضي الله عنهم أن أهل السنة يتبرؤون من طريقة الرافضة ومن طريقة الناصبة، وهما طريقتان متضادتان.

فالرافضة يبغضون الصحابة ويغلون في أهل البيت.

والنواصب بعكسهم، نصبوا العداوة لأهل البيت، ووالوا غيرهم. ولكن النواصب قليلون، إنما كانوا في أول الأمر في عهد بني أمية؛ كان هناك من يوالي بني أمية ويبغض عليًا وأهل بيته، فسموا نواصب؛ لأنهم نصبوا العداوة لأهل البيت، ولكن الرافضة إلى الآن تسمي أهل السُنة نواصب، وعندهم أن كل من أحب أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لعلي هو وذريته، وهذا خطأ وبهتان عظيم.

فأهل السنة يوالون الجميع ولا يعادونهم، والرافضة تزعم أن أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة أعداء ألداء لعلي، ولا يمكن لأحد أن يحبَّ العدو وعدوَّه، فلا يمكن أن يوالي عليًا ويوالي أعداءه ولا يجمع بينهما؛ لأن عندهم أنه لا يكون ولاء إلا ببراء، فإذا واليت عليًا وأهل بيته تَبْرأ من الخلفاء الآخرين وإلا فقد عاديتهم، هكذا تزعم الرافضة.

فالرافضة هم الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ويشتمونهم، ويلحقون

. . . .

بهم المثالب ويبحثون عن المعايب، ويولّدون ويكذبون أكاذيب وترهات، فيستحلون الكذب في نصرة مذهبهم، وفي الطعن والتشنيع على أهل السنة.

وفي عهد بني أمية وبالأخص بعد خلافة معاوية إلى آخر القرن من عام إحدى وأربعين إلى عام تسع وتسعين، كان بعض خلفاء بني أمية يسبون عليًا على المنبر ويلعنونه ويتهمونه أنه اشترك في قتل عثمان إلى عهد عمر بن عبد العزيز الذي أبطل هذه العادة السيئة.

وكان هناك بالكوفة أشخاصٌ يحبون عليًا ـ من وزرائه وتلامذته في الكوفة ـ وساءهم وأحزنهم ما رأوه من سبه على رؤوس الأشهاد ولعنه، فصاروا يجتمعون في أماكن خاصة لهم ويتذاكرون فضائله، ثم دخل معهم من أراد أن يغلو، فصار يدخل معهم أناس يكذبون في فضله، يخترعون أحاديث مكذوبة في فضله، ويزعمون بذلك أنهم يجذبون الناس إليه وينفرون الناس عن بني أمية.

ثم ازداد عدد هؤلاء فقسموا أنفسهم جماعات، وصاروا يتكتلون ويكثرون، وكلما ازداد كذبهم وافتراؤهم زاد أتباعهم؛ لأن الناس يتبعون كل ناعق، فدخل مع هؤلاء من لم يكتف بهذا بل ضم إليه اختلاق الأحاديث والأخبار في ذم الصحابة الأطهار، وأنهم ظلموا عليًا وأهل بيته وسلبوهم حقهم في الخلافة وتآمروا عليهم وغير ذلك من الأكاذيب والضلالات.

فمن عقيدة أهل السنة أنهم يتبرأون من طريقة الرافضة، الذين يبغضون

. . . .

الصحابة ويسبونهم، ويتبرأون أيضًا من طريقة النواصب، الذين يعادون أهل البيت عليًا وذريته ويسبونهم.

والرافضة هم أشد الناس خصومة وبغضًا للحق وأهله، وللسنة وأهلها، وعقيدتهم أبعد العقائد عن الدين وعن الإسلام؛ وذلك لأنهم بطعنهم في الصحابة رضي الله عنهم يطعنون في الدين وفي الشرع؛ لأن الشريعة إنما نُقلت إلينا بواسطة الصحابة.

فالرافضة لما بالغوا في محبة علي وأهل بيته، عند ذلك اختلقوا أكاذيب في سب أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، وحفصة، وطلحة، والزبير، وسائر الصحابة وبالغوا في الحط عليهم وفي الكذب، وقدحوا فيهم، واعتقدوا أنهم قد ارتدوا بعد النبي ﷺ، واعتقدوا أنهم كتموا وصية النبي ﷺ؛ ففي زعمهم أن النبي ﷺ أوصاهم بأن يكون عليٌّ هو الإمام، ولكنهم اتفقوا كلهم - على زعم الرافضة - على كتمان الوصية فلم يفصحوا عنها، وبايعوا أبا بكر وهو ليس بوصي، ويسمون أبا بكر مغتصبًا للخلافة وليس هو صاحبها، وهكذا عمر وعثمان؛ كلاهما مغتصب.

ثم من طريقتهم: الطعن أيضًا في القرآن؛ يقولون: إن هذا القرآن الذي بين أيديكم منقوص ومصحف ومحرف ومزيد فيه، وأن الصحابة لما كتبوه كتموا ثلثيه، وزادوا فيه ما ليس منه، ونقصوا وكتموا كل ما يتعلق بأهل البيت وبفضائل أهل البيت ونحو ذلك. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

. . . .

فهم بذلك يدعون أن القرآن غير محفوظ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وعلى زعمهم أيضًا يكون عليٌّ قد أقر هذا القرآن المنقوص؛ لأنه كان يقرؤه ويتعبد به، ولم يرد عنه أنه شكك فيه، ولا أن هناك غيره. وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قيل له: هل عندكم شيء غير القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة؛ إلا فهمًا يؤتيه الله أحدًا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[1]، وهي صحيفة كتبها عن النبي ﷺ فيها الديات، وفيها بعض الإرشادات، ولم يكن فيها شيء مما يزعمونه؛ كالنص على الولاية أو نحو ذلك، ولا مسبة أبي بكر وعمر ونحوهم.

فسب الرافضة للصحابة وتتبعهم لمثالبهم، حملهم عليه الحقد الذي ألقاه الشيطان في قلوبهم لما رآهم غلوا في حب عليٍّ، فقال لهم الشيطان: لابد وأن تبغضوا غيره حتى تكونوا محبين له غاية المحبة.

فالحاصل أن أهل السنة يتبرءون من طريقة هؤلاء وهؤلاء، ويحبون ويتولون الجميع، آل البيت والصحابة كلهم، ولا يتبرءون من أحد.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٧) في الجهاد والسير، باب: «فكاك الأسير». عن أبي جحيفة رضي الله عنه.

. . . .

▪ قوله: (**ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها...**):

من طريقة أهل السنة والجماعة أنهم يتوقفون عما شجر بين الصحابة ويقولون: الحكم بينهم عند الله تعالى.

فما حصل بينهم من القتال كوقعة الجمل وصفين، نقول في ذلك كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تلك دماءٌ طهر الله منها أسيافنا، أفلا نطهر منها ألسنتنا؟ فنحن نقول: الله هو الذي يحكم بينهم؛ فلا نتدخل، ونعتقد أن كلاً منهم مجتهد؛ فعائشة وطلحة ومن معهم في وقعة الجمل كانوا يطالبون بقتلة عثمان، ويرون أن بيعة علي لم تنعقد حتى يأتي بهؤلاء الثوار الذين قتلوا الخليفة الشرعي، وعلي يطالب بالطاعة والدخول في الولاية؛ لأنه هو الإمام العام.

وهكذا في موقعة صفين؛ أهل الشام يطلبون منه أن يسلِّم إليهم قتلة عثمان لأن معاوية وبني أمية كانوا يرون أنهم أولياء دم عثمان، أما علي رضي الله عنه فكان يقول: لا أقدر على أن أسلمهم حتى تبايعوني وتجتمع الكلمة، فإذا اجتمعت الكلمة فهنالك نطلبهم ونقتلهم أفرادًا، ولا نبقي منهم أحدًا.

ولكن لما لم يتم هذا، حصل ما حصل نتيجة هذا الاجتهاد الذي كان من الطرفين. ولذلك فنحن نتوقف فيما شجر بين الصحابة، ولا نصدق أيضًا ما تتناقله الروافض والنواصب من المثالب والمعائب التي يقدحون بها في الصحابة

. . . .

ويسبونهم بها .

فهذه المثالب الموجودة في كتب الروافض كذب صريح ؛ فإن الروافض قوم لا خلاق لهم ولا يتحاشون من الأكاذيب ؛ ولذلك فإن كتبهم ملأى بالكذب .

وهناك مما يروون ما له أصل ، ولكنهم يزيدون فيه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، حتى ينفون عن صاحب القصة أي مقصد صحيح ؛ فتروى القصة على غير حقيقتها .

فما حصل بين الصحابة من قتال وحروب فإنهم معذورون فيه ؛ لأنهم مجتهدون والمجتهد معذور ؛ إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد وخطؤه مغفور .

هذه عقيدة أهل السنة فيما شجر بين الصحابة ، وعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يرويه الرافضة والنواصب من المثالب والمعايب التي يطعنون بها في عدالة الصحابة ، والتي يعتقدون أنهم لأجلها قد ارتدوا .

■ قوله : **(وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة . . .)** :

من عقيدة أهل السنة أن العصمة ليست إلا للرسل ، والصحابة ليسوا معصومين ، بل هم بشر كسائر البشر يصدر منهم ذنوب ، ويصيبون ويخطئون ، إلا أنهم أفضل من غيرهم ، فلكونهم أفضل من غيرهم نقول : هم أولى بأن يعذروا ، ولكن لا نعتقد أنهم معصومون عن كبائر الإثم وصغائره

. . . .

وعن الذنوب كلها، بل يجوز صدور الذنب من أحدهم، ولكن إذا قدر أنه قد صدر من أحدهم ذنب، فإنه يمحى عنه لهذه الأسباب الخمسة: أما أن يكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ - فهم أحق الناس وأولاهم بشفاعته - أو ابتلي ببلاءٍ كُفِّر به عنه.

هذه أسباب مغفرة الذنوب الحقيقية، فكيف بالذنوب التي ليست حقيقية إنما هي أمور يُجتهد فيها، فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور!.

نقول: إن الذنوب عادةً يغفرها الله بهذه الأسباب، وهذا ليس خاصًا بالصحابة بل ذلك ثابت لغيرهم، إذا أذنب الإنسان ذنبًا، فإنه يغفر له بهذه الأسباب.

فمن أسباب المغفرة: التوبة الصادقة: وهي أن يندم على ما مضى وما كان وما فعل، وأن يتخلى عن ذلك العمل الذي هو ذنب، وأن يعاهد الله على ألا يرجع إليه، ويكون صادقًا في ذلك، وأن يرد الحقوق إلى أهلها.

ومن أسباب المغفرة: الحسنات: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾، وقال النبي ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]. فالحسنات: الأعمال الخيرية من صدقات، ومن أذكار، وصلوات وعبادات ونوافل ونحو

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٩٨٧) في البر والصلة. وأحمد في المسند (٥/ ١٥٣، ١٥٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

ذلك، والمحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل، كالتهجد بالليل، والإكثار من قراءة القرآن، والإكثار من الصلوات في سائر الأوقات، والإكثار من الأدعية، والاستغفار، والتسبيح، والتحميد، والذكر، والصيام تطوعًا، ومن الصدقة تطوعًا، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لعباد الله، فالحسنات هي الأعمال الخيرية وهي تكفر السيئات، وتمحو ما صدر من المسيء من الذنوب.

وكذلك من أسباب المغفرة: المصائب: فالمصائب تكفر الذنوب؛ يقول النبي ﷺ: **«لا يصيب المسلم من نصبٍ، ولا وصبٍ، ولا همٍ، ولا غمٍ؛ حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»**[1]

فلذلك كان كثير من السلف يفرحون بالأمراض ونحوها كما نفرح نحن بالعافية والشفاء، وقد قال النبي ﷺ: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٠) في المرضى، باب: «ما جاء في كفارة المرض».
ومسلم برقم (٢٥٧٢) في البر والصلة، باب: «ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن». عن عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه البخاري برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢). ومسلم برقم (٢٥٧٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٥٧٣). عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) في الزهد. وابن ماجه برقم (٤٠٣١) في الفتن وقال الترمذي: حسن غريب.

. . . .

كذلك من أسباب المغفرة: شفاعة النبي ﷺ: لكن هذا إنما يكون في الآخرة.

كذلك من أسباب مغفرة الذنوب: الابتلاء والامتحان والفتن التي يبتلى بها الإنسان: فالعقوبات إما عقوبات من الله، وإما عقوبات وتسليط لعباد الله على الإنسان، فهذا الابتلاء وهذه الفتنة تكون سببًا لمغفرة الذنوب.

نقول: إن هذه الأسباب تكفر سيئات أولئك الصحابة إذا وقع منهم سيئات، مع أننا نشهد لهم بالفضل والسبق، فنقول للرافضة الذين يطعنون فيهم: كيف تطعنون فيهم بهذه الأمور التي أنتم أولى بها، فأنتم أكثر منهم ذنوبًا، حيث إنكم طعنتم في الشرع، وطعنتم في الدين والقرآن، وطعنتم في الصحابة الذين هم أهل السبق، وجحدتم فضائلهم حتى غزواتهم ونفقاتهم، وقد زكاهم النبي ﷺ وأخبر بأن لهم من السوابق ما يفوقون به غيرهم، وأخبر بأن من أنفق مثل جبل أحد ذهبًا لم يبلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه؛ يعني ولا نصف المدّ الذي هو ربع الصاع، والصاع هو أربع حفنات من يدين متوسطتين.

يقول: «**لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[1]؛ وذلك لأنهم صدقوا في وقت الشدة، وجاهدوا مع النبي ﷺ، وحفظوا عنه شريعته، وبلغوها عنه، وقاموا بنصر سنته بعده أتم قيام، فكيف يدركهم من بعدهم، وكيف يقاسون بالرافضة الذين يسمون أنفسهم شيعة، ويزعمون

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٤.

. . . .

أنهم يشايعون عليًا وأهل بيته، وهم أعدى الناس له ولأهل بيته؛ لأنهم لم يقبلوا ما جاء به، ولم يصدقوا بما أثر عنه، ولفقوا عليه وعلى أهل بيته الأكاذيب التي هو منها بريء، فكيف يكونون أذكى من الصحابة الذين هذه فضائلهم.

إذًا فطريقة أهل السنة هي محبة الصحابة على ما هم عليه، والشهادة لهم بالفضل والسابقة، والبراءة من كل من يمقتهم أو يطعن في عدالتهم، أو يطعن في ديانتهم أو يسبهم، واعتقاد أن هؤلاء الذين يطعنون فيهم ويسبونهم أولى بالسب والبعد عن الله تعالى والبعد عن الخير وأهله.

وأن الصحابة هم أبر هذه الأمة وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، واختارهم لتحمل دينه وتدبير شريعته، فهم أهل الفضل والكفاءة، فلن يصل إلى درجتهم ومرتبتهم أحد ممن جاء بعدهم، فكيف بهؤلاء الأنجاس والأوباش الذين يفضلون أنفسهم على أفضل الصحابة، بل يقومون بسبهم ولعنهم وشتمهم، ويمثلونهم بالأمثلة البشعة.

فأهل السنة يتبرءون من هؤلاء وهؤلاء، ويحبون جميع الصحابة ويترضون عنهم، ويشهدون لهم بما شهد الله به لهم من الفضل، وبما مدحهم به في كتابه، وبما ورد بفضلهم من الأحاديث الصحيحة التي تنص على فضلهم، وقد يجدها من طلبها في كتب أهل السنة، وفي القرآن أيضًا من الآيات التي تدل على فضلهم الشيء الكثير.

. . . .

هذه هي عقيدة أهل السنة، فمن تمسك بها في هذا الباب وغيره، فإنه لا يتأثر بما يسمع وما ينقل له من كتب الشيعة، التي امتلأت بالأكاذيب والعياذ بالله، نسأل الله العافية.



محاسن وفضائل الصحابة

[ثُمَّ إِنَّ القَدْرَ الَّذي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَليلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ في جَنْبِ فَضائِلِ القَوْمِ ومَحاسِنِهِمْ ؛ مِن الإِيمانِ باللهِ، ورَسُولِه، والجِهَادِ في سَبيلِهِ، والهِجْرَةِ، والنُّصْرَةِ، والعِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ.

ومَنْ نَظَرَ في سيرةِ القَوْمِ بعِلْمٍ وبَصيرةٍ، ومَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِن الفَضائِلِ ؛ عَلِمَ يَقيناً أَنَّهُم خَيْرُ الخَلْقِ بعدَ الأنبياءِ، لا كَانَ ولا يَكونُ مِثْلُهُم، وأَنَّهُم الصَّفْوَةُ مِن قُرونِ هذهِ الأُمَّةِ الَّتي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وأَكْرَمُها عَلى اللهِ].



■ قوله: (ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم...):

تقدم أن من طريقة أهل السنة أنهم يترضون عن الصحابة رضي الله عنهم، ويوالونهم جميعًا أهل البيت وغيرهم، وأنهم يكفون عما شجر بينهم من الخلاف والقتال، ويتوقفون عن الخوض في ذلك، ويقولون: حيث سلمت منه أيدينا نكف عنه ألسنتنا.

. . . .

كذلك أيضًا لا يبحثون في المثالب والمعائب التي ينقلها الرافضة عنهم، وأنهم أذنبوا بكذا وفعلوا كذا وكذا، وكذلك الأمور التي يطعنون بها على الصحابة ينكرها أهل السنة، ويقولون: أغلبها كذب صريح، ومنها ما بدلوه وحرفوه عن حقيقته، وإذا كان منها شيء صحيح فهم فيه معذورون؛ لأنهم إما مجتهدون مصيبون فلهم أجران، وإما مجتهدون مخطئون فلهم أجر واحد، وخطؤهم مغفور لهم. وقد سبق تقرير ذلك كله.

كذلك إذا نظرنا في سيرة الصحابة رضي الله عنهم بعلم وإنصاف، علمنا أنهم أفضل الأمة، لا كان ولا يكون مثلهم، وتحققنا أنهم خيرة هذه الأمة، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها عند الله تعالى.

وكذلك إذا نظرنا في أعمالهم، وجدناهم قد فاقوا غيرهم بالأعمال، وزيادة على الفضل في المضاعفة، فهناك أيضًا فضل في الكثرة.

فمن حيث الكثرة: هم السابقون إلى الإيمان، وهم الذين تفردوا بالهجرة أو أغلبهم، وتفردوا بالإيواء والنصرة.

وهم الذين انفردوا بالقتال مع النبي ﷺ وفدوه بأنفسهم، وقتلوا في سبيل الله في نصرة الإسلام، وهم الذين قاموا بالأعمال الصالحة، حتى قيل: إنهم كانوا رهبانًا بالليل، إشارة إلى طول عبادتهم وتهجدهم، وفرسانًا بالنهار إشارة إلى جهادهم لأعداء الله عز وجل، ففي الليل يقومون ويتهجدون ويصلون، فإذا

. . . .

أصبحوا اشتغلوا بقتال أعداء الله ورسوله ﷺ ، فلا يشغلهم الجهاد عن العبادة ولا العبادة عن الجهاد والأعمال الأخرى، بل كانوا يجمعون بين الحسنيين.

كذلك سبقهم بالنفقات، حيث أنفقوا في سبيل الله كل ما يملكونه أو أغلبه، ولم يُبقوا لأنفسهم إلا ما لابد منه، وذلك مشهور في قصصهم رضي الله عنهم، فكانوا إذا طلبت منهم الصدقة والنفقة أتوا بما عندهم أو أغلبه، ولم يمسكوا بخلاً وشحًا.

كذلك اجتهادهم في الأعمال الخيرية، والأعمال الصالحة مشهور؛ مثل: عتق الرقاب، والصدقة في سبيل الله، ونصرة المظلوم، والسعي في حاجة الناس، وتفريج الكروب، والأخذ على يد الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بحقوق الله خير قيام، ولذلك فقد فاقوا غيرهم في كل شرف وفضيلة، ولو لم يكن لهم إلا شرف الصحبة والرؤية لكفى بذلك ميزة لهم وفضلاً.

فالذين طعنوا فيهم ما تسلطوا بالطعن إلا على السابقين الأولين؛ فقد وجهوا طعنهم إلى أجلاء الصحابة وأكابرهم كالخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأكابر الصحابة من الأنصار وغيرهم، جعلوهم كلهم أعداء ألداء للإسلام والمسلمين، وطعنوا فيهم، وأخرجوهم من الإسلام، واستباحوا عيبهم وسبهم ولعنهم، كأنهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين، ومن فرعون وجنوده؛ وذلك أن الشيطان زين لهم أن

. . . .

هؤلاء أعداء لأهل البيت، وأنه لا يمكن موالاة أهل البيت إلا بمعاداة هؤلاء الصحابة.

عرفنا بذلك أن الصحابة هم خيرة خلق الله، فلا كان ولا يكون مثلهم، بل هم أفضل من أصحاب الأنبياء السابقين، فما من خير وفضيلة إلا وفاقوا غيرهم فيها. فهم الصابرون في وقت الشدة، وهم الثابتون في ساعة العسرة، وهم الباذلون كل ما يملكون في سبيل نصرة دين الله تعالى وشرعه.

فهؤلاء هم السادة النجباء، والأئمة الفضلاء، والأخيار النبلاء، فأحبهم يا طالب الحق وتمسك بحبهم وولائهم والثناء عليهم، ودع عنك تشغيب الروافض وغيرهم من أهل الجهل والضلال.

وقد مدحهم الله في آيات كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الأنفال: ٧٢] ثم قال في آية أخرى بعدها: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فوصفهم بهذه الصفات: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا** ﴾ وهذه في المهاجرين. ﴿ **وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا** ﴾ هذه في الأنصار، ولا يدركهم في هذه الصفات غيرهم.

وهكذا أيضًا مدحهم بمثل قوله تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**

. . . .

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذه الأوصاف لا تنطبق إلا عليهم؛ لأنهم الذين معه؛ فهم الذين يغزون معه ويسافرون معه، ويُقاتلون معه، ويقيمون معه.

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾أي علامة السجود وعلامة العبادة، وعلامة السعادة وإشراق وجوههم وإضاءتها، ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ... ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

هذه أوصافهم، وقد ذكرهم الله أيضًا بقيام الليل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾ [المزمل: ٢٠] الآية. فهم يقومون كما تقوم، ويتهجدون ويصلون، فهم أهل هذه الأوصاف وهكذا أيضًا مدحهم الله في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الحشر: ٩] فالآية الأولى في المهاجرين، والثانية في الأنصار فهم الذين تبوءوا الدار والإيمان.

والثالثة في المتأخرين الذين جاءوا بعد الفتح وكذلك الذين جاءوا بعد موت الرسول عليه السلام؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

. . . .

وهكذا أيضًا ذكرهم الله بالرضا عنهم: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفتح: ١٨]، فإنزال السكينة عليهم هي ميزة وفضيلة لهم في هذه الآية وفي آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ﴾ [الفتح: ٢٦].

فهذه الآية أيضًا في وصفهم وفي مدحهم؛ أنهم أحق بكلمة التقوى وأنهم أهلها، وأن الله رضي عنهم، وأنهم أيضًا بايعوا النبي ﷺ وبيعته كأنها بيعة لله لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [الفتح: ١٠].

ولهذا تُعتبر هذه الآية من أبرز الآيات الدالة على شرف النبي ﷺ حيث جعل مبايعته مبايعة لله، ولهذا يقول بعض الشعراء:

كيف السبيل إلى تقضّي مدح من ... قال الإله له وحسبك جاهًا!!

إن الذين يبايعونك إنما ... حقًا يقال: يبايعون اللهَ

فمن فضائله ﷺ أن جعل بيعته كأنها بيعة لله تعالى، وفضَّل الصحابة الذين بايعوه؛ وذلك لأنهم كأنهم بايعوا الله، وتلك ميزة وفضيلة وشرف للنبي ﷺ ولصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

فإذا عرفنا هذه الفضائل للصحابة، فكيف يدركهم من بعدهم؟ لا يستطيع أحد من أهل القرون المتأخرة أن يدركهم في الفضيلة والشرف، فإنهم خير

. . . .

قرون هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ، وقد ثبت عنه أنه قال: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»** قال الراوي: فلا أدري ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة قرون[1].

وهذا يدل على أن قرن الصحابة أفضل القرون؛ ولهذا كان أسلم من البدع ومن الخوض فيما لا يعني، فدلَّ على أن الخيرية ـ والتي هي الفضيلة ـ ثابتة للصحابة ولأبنائهم فهم خير قرون هذه الأمة.

أما بالنسبة إلى الأمة، فقد تكاثرت الأحاديث في فضل هذه الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ودلّ على ذلك من القرآن قول الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] فهذا دليل على أن هذه الأمة أفضل الأمم.

ومن فضلهم سبقهم يوم القيامة إلى الجنة، قال النبي ﷺ: **«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»**[2] أي ولو كنا متأخرين في الوجود، فإننا نكون أسبق يوم القيامة إلى الجنة وإلى الثواب والجزاء.

كذلك بينت الأحاديث فضل هذه الأمة وأن ذلك بسبب مضاعفة أعمالها؛

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٢٤) في الأيمان والنذور، باب: «١». ومسلم برقم (٨٥٥) في الجمعة، باب: «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

فالحسنة من أحدهم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، فإن تاب منها صاحبها تاب الله عليه.

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجيراً فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1] .

فهذا وجه في تفضيل هذه الأمة على غيرها. وهناك وجه آخر وهو كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة؛ فإن هذه الأمة هي أكثر الأمم دخولاً الجنة، وقد قيل في قول الله تعالى: ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ** ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] وكذلك قوله: ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ** ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]: إن المراد هذه الأمة؛ ثلة من أولي هذه الأمة وثلة من آخريها، وثلة من أولها وقليل من آخرها. والثلة أي المجموعة.

فعلى كل حال هذا ونحوه مما يدل على فضل الصحابة أولاً، وفضل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٦٩) في الإجارة، باب: «الإجارة إلى صلاة العصر». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

الأمة ثانيًا، وأن الصحابة إذا كانوا أفضل الأمة فهم أفضل من غيرها ما عدا الأنبياء.

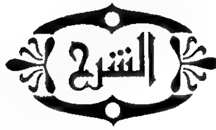
فالأنبياء هم من الأمم السابقة خصهم الله بإنزال الوحي عليهم فهؤلاء يفوقون غيرهم بميزة الوحي والنبوة. وبعد الأنبياء في المنزلة أصحابهم، ولاشك أن أصحاب النبي ﷺ أسبق إلى الفضل من سائر أصحاب الأنبياء، فإذا عرفنا ذلك حَمَلَنَا على أن نحبهم، ونترضى عنهم، ونَحذَر ونُحذِّر من الانخداع والاغترار بأقوال الرافضة الذين يسبونهم، ويتقربون بسبهم ولو كثروا؛ فقد كثرت الرافضة في هذه الأزمنة، ومع كثرتهم فإنهم يُخفون أمرهم، ويُسرون عقيدتهم، ويبوحون بها عند من يثقون به؛ لئلا يستنكروا بين الناس.

فليكن المسلم على حذر منهم فحيث عَرف فضيلة الصحابة وأحقيتهم بالسبق، وعداوة الرافضة لهم، فقد عرف أن كل من يتكلم في الصحابة منتقصًا لهم ومشنعًا عليهم فإنه من جنس أولئك الرافضة، الذين يتسترون بحب آل البيت والدفاع عن حقوقهم، فهم من أخبث الطوائف وأبعدها عن الإسلام الصحيح . والله أعلم.

* * *

الإيمان بكرامات الأولياء

[ومِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّصْدِيقُ بكَرامـاتِ الأوْلِيـاءِ ومَا يُجْرِي اللهُ عَلى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوارِقِ العَادَاتِ في أَنْواعِ العُلومِ والمُكاشَفَـاتِ وأَنْواعِ القُدْرَةِ والتَّأْثيراتِ ، والمأْثُورِ عنْ سَالفِ الأمَمِ في سُورَةِ الكَهْفِ وغَيْرِها ، وعَنْ صَدْرِ هذهِ الأمَّةِ مِن الصَّحـابَةِ والتَّابِعِينَ وسـائِرِ فِرَقِ الأمَّةِ ، وهِيَ مَوْجودَةٌ فيها إِلى يَوْمِ القِيامَةِ] .



■ قوله : (ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات . . .) :

الولي : مُشتق من الولاء الذي هو المُوالاة ، بمعنى القرب أو التقريب والمحبة .

وقد ذكر الله أنه ولي المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] فهو وليهم وهو مولاهم ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

وذكر أن المؤمنين أولياء الله ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ

. . . .

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فأولياء الله هم أهل طاعته، وأهل الإيمان به، وأهل تقواه حق تقاته، وهم الممتثلون لأمره، المبتعدون عن نهيه، المحبون لطاعته.

فالله تعالى وليهم ومولاهم، وهو كذلك عدو من عاداهم؛ قال النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[1] فوليُّ الله هو القريب منه الذي يحبه ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه ويتقيه حق تقاته، هذا هو ولي الله.

وأولياء الله تعالى قد يجري الله على أيديهم خوارق للعادة، ويُسميها العلماء كرامات؛ إما إجابة دعوة في الحال، وإما رزق يرزقه إياه بغير سبب ظاهر، وإما نجاة من هلاك محقق أو غير ذلك مما هو خارج عن قدرة البشر.

وقد ذُكر لذلك أمثلة في القرآن، ومن ذلك ما ذكر الله تعالى عن أهل الكهف، فإنهم ليسوا بأنبياء ولكن وقع لهم كرامات؛ فأهل الكهف الذين ذكر الله أنهم فتية آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى، وربط على قلوبهم، لما دخلوا في الكهف، ضرب الله على آذانهم سنين عدداً ثم أحياهم.

وهذه معجزة وكرامة، فقد لبثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين ثم بعثوا، فلم تتغير أبشارهم بل ظلوا باقين على هيئتهم، ولم تأكلهم الأرض، فمن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢) في الرقاق، باب: «التواضع». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

كـرامــة الله لهم أنه كـان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تأكلهم الأرض، وكـان معهم كلبهم باسطًا ذراعيه بالوصيد، يعني بباب الكهف، وأصابه ما أصابهم من النوم الذي هو موت، ولكنه ليس بموت حقيقي، وبعدما بُعثوا اعتقدوا أنهم ناموا يومًا أو بعض يوم، ثم أرسلوا من يأتيهم بالطعام، فعثر أهل القرية عليهم، ولما عثروا عليهم رجعوا إلى مضاجعهم وماتوا.

فغلا فيهم أهل البلد، وبنوا عليهم بنيانًا، واتخذوا عليهم مسجداً ﴿ **فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ [الكهف: ٢١] وذلك من باب الغلو في الموتى وفي الأولياء.

ومن الكرامات ما ذكره الله عن مريم، وليست نبية وإنما هي صديقة، قال تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ [المائدة: ٧٥] فإذن هي من أولياء الله وقد أجرى الله لها كرامة قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ وذكر أنه وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء وهذا من كرامات الله لها.

وأما في هذه الأمة فقد جرى كثير من الكرامات لكثير من الصحابة وكثير من التابعين، وحدثت لهم عجائب الأمور التي قد يكذب بها ويستغربها من لم يؤمن بقدرة الله وبكرامته لأوليائه.

. . . .

فمن ذلك أن أبا إدريس الخولاني أحد أجلاء الصحابة ألقي في النار، أحرقه أناس باليمن في ولاية العنسي، فصارت النار عليه بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم، أي خمدت النار لما ألقي فيها، وليس هو نبيًا، وإنما هو ولي من أولياء الله، حقق الإيمان فأجاب الله دعوته، وحماه من كيد أعدائه.

ومن ذلك أن ابن العلاء الحضرمي غزا مرة جهة البحرين وحال بينه وبين العدو بحر أو نهر، فأراد أن يدرك العدو، فخاض هو ومن معه على خيولهم، فجعل الله البحر شبْهَ اليَبَس، فصاروا يمشون فوقه ولم يغرقوا، ولم يفقدوا متاعهم، مشوا على البحر كأنه يَبَس مع عمقه، فلما رآهم الأعداء يمشون على البحر قالوا: ما هؤلاء إلا شياطين، فأدركوا العدو وقاتلوهم، ولم يفقدوا من متاعهم ولا من دوابهم شيئًا، وهذه كرامة لأولياء الله تعالى.

وكذلك وقعت كرامات لعمر بن الخطاب ومكاشفات، فاشتهر بأنه قال لرجل ما اسمك؟ قال: جمرة. قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب. قال: من أي القبائل؟ قال: من بني ضرام، فسأله أين يسكن؟ قال: بحَرَّة النار. فقال: ارجع إلى أهلك فإنهم قد احترقوا، فوجد الأمر كذلك، كأنه استنبط ذلك من اسمه واسم أبيه وقبيلته ومسكنه: الجمرة، والشهاب، والضرام، وحرة النار.

كذلك ذكروا أنه رضي الله عنه كان مرة يخطب، وفي أثناء خطبته تكلم بكلام لا يدرون ما سببه، وهو أنه أخذ يقول: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، وكان هناك سرية في الشام، تقاتل عدوها في تلك الساعة وقت

. . . .

الخطبة، وقائدها يقال له: سارية، وهناك جبل أمامهم، فناداهم أن يعتصموا بالجبل ويجعلوه خلف ظهورهم، ويقاتلوا الأعداء من أمامهم، فلما قاله سمعوه وهم بالشام ينادي: يا سارية الجبل، فعند ذلك لجأوا إلى الجبل وقاتلوا الأعداء وانتصروا، وذكر أنهم لما رجعوا منتصرين سألوه عن ذلك فقال: خطر ببالي شيء فنطقت به. فهذه تعتبر من الكرامات.

ومن كرامات الله لعثمان ذي النورين رضي الله عنه أنه لما قتل، وقعت أول قطرة من دمه على قوله تعالى: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٣٧].

ولما قرأ ابن عباس قول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾ [الإسراء: ٣٣]، قال ابن عباس: إن معاوية ومن معه منصورون؛ لأنهم يطالبون بدم عثمان، ولأنهم أولياؤه فإنهم منصورون، فتحقق نصرهم على قتلة عثمان وتحقق قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما إجابة الدعوات فهو أمر مشهور يجل عن الحصر، ومن ذلك ما كان من سعيد بن زيد رضي الله عنه حينما ادعت امرأة أنه أخذ شيئًا من أرضها فقال: اللهم إن كانت كاذبة فاقتلها في أرضها، فاستجاب الله دعاءه، فقد كانت تسير مرة في أرضها فعثرت فوقعت في بئر فكان حتفها.

وباب كرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات

. . . .

باب واسع وقد صنفت في ذلك المؤلفات والأسفار، إلا أن الغلو والشطط والبعد عن أصول وضوابط منهج أهل السنة والجماعة كان السمة الغالبة على أكثرها.

ولكن من أحسن ما كتب في هذا الباب ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وكذلك في كتابه: «النبوات» فقد ذكر ضوابط الكرامات الشرعية، وفرق بينها وبين أفعال السحرة والمشعوذين، وأن أهل الكرامات الشرعية هم من المؤمنين المتقين، أما السحرة وأهل الشعوذة فهم من الأفاكين المجرمين. وذكر أيضًا رحمه الله أمثلة كثيرة عن كرامات كثير من السلف رحمهم الله.

وكذلك ابن رجب الحنبلي رحمه الله في كتابه «جامع العلوم والحكم» يذكر كثيراً من هذه الكرامات التي جرت لأولياء الله من إجابة الدعوات وتفريج الكربات، ونحو ذلك. ذكر ذلك عند شرحه لحديث: **«من عادى لي وليًا فقد بارزته بالحرب»**[1]، وكذلك عند شرح قوله ﷺ في حديث عمر: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**[2]. وغير ذلك من الأحاديث.

وفي غير هذا الكتاب أيضًا كالمحجة في سير الدلجة وغيره.

ولابن القيم رحمه الله أيضًا إشارات لهذا الباب في كتابه «مدارج

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨) في الإيمان، باب: «الإسلام والإيمان والإحسان».

. . . .

السالكين» .

فهذه كرامات الأولياء وإجابة دعواتهم، وقد ألفت فيها مؤلفات للفرق بينها وبين معجزات الأنبياء وبيان ضابط المعجزة وضابط الكرامة، وأن الكرامة تجري على يد إنسان صالحٍ مستقيم، وأن الله تعالى يجريها له في تلك الحال لكرامته ومحبته وإخلاصه في اللجوء إليه عند الشدة وغيرها .

ولكن ذكروا أن الكرامة لا تدل على الرفعة المطلقة، فقد يوجد كثير من التابعين جرى لهم كرامات أكثر من الصحابة، وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الصحابة. قال بعض العلماء: إن الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة ليسوا بحاجة إلي هذه الخوارق لتقوي إيمانهم، بخلاف التابعين؛ فإن الناس في زمنهم كانوا بحاجة إلى ما يقوي إيمانهم، فأجرى الله على أيديهم كرامات كثيرة لتثبيت هؤلاء الناس على دينهم ولزيادة إيمانهم .

وذكر العلماء أيضًا أن الكرامة قد تجري على يد صاحبها وهو لا يشعر بها، فقد تجاب دعوته وهو لا يشعر، وقد يدعو على من لا يستحق الدعاء فيجاب، فقد ذكر ابن رجب أن الحسن البصري كان له ديك يوقظه قبل صلاة الفجر، فلم يَصحْ يومًا، فتأخر الحسن عن الصلاة ثم قال عن الديك: ما له أخرسه الله!! فما صاح بعد ذلك البتة، فقالت له أمه: يا بني لا تدعو على شيء بعد ذلك أبدًا .

. . . .

وكذلك فإنه ليس من شرط الولي أن يكون مجاب الدعوة دائمًا بل قد يمنع ما أراده.

وكذلك ليس كل من جرت على يديه الكرامة استحق أن يكون وليًا، فلا يجوز أن يُرفع فوق حده، ولا يُعلى فوق طوره، كما يفعل الغلاة الذين إذا اشتهر عندهم أحد المتصوفة الذين يسمونهم أولياء ومات غلوا فيه، ورفعوه عن قدره، وعبدوه أو كادوا أن يعبدوه، وعظموه تعظيمًا غير مناسب، ثم أخذوا يكذبون عليه أكاذيب ليس لها أصل، ويزعمون أنه قال وأنه فعل، وتلك إما أن تكون كرامات له، وإما أن تكون أكاذيب.

فمن ذلك ما فعلوا مع عبد القادر الجيلاني، وبلا شك أنه من الصالحين ومن خيار أولياء الله، وله كرامات، ولكن لما غلا فيه المتأخرون، ولَّدوا عليه أكاذيب، وزعموها كرامات، ومن ذلك أنهم زعموا أنه قُرِّب إليه مرة كبش مشوي، فأكل منه هو ومن معه، ولما أكلوا لحمه وبقيت عظامه قال للكبش: قم يا كبش بإذن الله، قالوا: فقام الكبش حيًا ينفض شعره.

ولا شك أن الله قادر على إجابة دعوته وإحياء هذا الكبش ولكن يغلب على هذه الحكاية أنها مكذوبة؛ إذ لا فائدة من طلبه هذا في ذاك المقام إلا ما يكون من فتنة الناس به وغلوهم فيه.

وكذلك الأكذوبة الأخرى التي هي أعظم منها، وهي أنه جاءته امرأة وقالت: إن ابني مات، وليس لي ابن غيره، وإنه وحيدي، فادع الله أن يحييه، وأن يرد إليه روحه، قالوا: ثم إن عبد القادر طار في الهواء، فأدرك

. . . .

ملك الموت وهو بين السماء والأرض، وقد قبض أرواحًا كثيرة وجعلها في زمبيل معه، فقال: يا ملك الموت رُدَّ روح الصبي. فقال: لا أردها . فقال: ردها وإلا أخذتها منك، فأخذ منه الزمبيل، ورجعت الأرواح التي أخذها، فعاش حيًا كل ميت مات في ذلك اليوم. وهذه أكذوبة من أقبح الأكاذيب.

فالحاصل أنه ليس كل ما يلفَّق على من يُقال إنه ولي صحيحًا، ونحن نصدق بقدرة الله تعالى ولكن الذين غلوا زادوا في التلفيق على الأولياء ما ليس له أصل.

وعلى كل حال فالله تعالى يُجري على أيدي أوليائه كرامات، ويأتيهم بمكاشفات، ويكشف لهم شيئًا من أسرار الغيب، ويطلعهم على بعض الأمور المستقبلية، وذلك من باب كرامتهم ورفعة مقامهم، ولا يدل هذا على أنهم وصلوا إلى حالة صاروا فيها أرفع من الأنبياء، كما يدعي ذلك غلاة الصوفية، فإن المتصوفة لما اعتقدوا في الأولياء رفعوهم عن الأنبياء، ورفعوا الأنبياء عن الرسل، فجعلوا أعلى المقامات مقام الولي ثم يليه النبي، ثم أنزلها الرسول.

وفي ذلك ما حكاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أنهم كانوا يقولون في نظمهم:

مقامُ النبوة في برزخٍ فويق الرسولِ ودون الولي

وهذا كذب، فالولي مهما كان ومهما وصل، لا يصل إلى مرتبة الأنبياء فضلاً عن مرتبة الرسل.

. . . .

ثم نُصدق أيضًا بما قد يجري على ألسنة المشعوذين والسحرة وأولياء الشياطين من شعوذة وأحوال شيطانية، إلا أنها لا تدل على أنهم أولياء لله، وإنما ذلك من آثار خدمتهم للشياطين ولمردة الجن، فإنها تلبس على الناس، وتظهر لهم هذا الإنسان في قالب المتصرف في الأشياء.

وهذا ونحوه يُسمى الأحوال الشيطانية؛ ولأجل ذلك يقول سفيان الثوري: إذا رأيت إنسانًا صاحب هوى، يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغتر به حتى تعرض أمره على الكتاب والسنة، فإذا عرفته عاملاً بالشرع ومطبقًا له، فاعلم أن ذلك كرامة، وإلا فهي أحوال شيطانية.



اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع الخلفاء الراشدين

[فَصْلٌ : ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ اتِّباعُ آثارِ رَسولِ اللهِ ﷺ باطِنًا وظاهِرًا، واتِّباعُ سَبِيلِ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنْصارِ، واتِّباعُ وَصِيَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، حيثُ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدي، تَمَسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عَلَيها بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثاتِ الأُمورِ؛ فإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(١).

ويَعْلَمونَ أَنَّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، ويُؤْثِرونَ كَلامَ اللهِ على غَيْرِهِ مِن كَلامِ أَصْنافِ النَّاسِ، ويُقَدِّمونَ هَدْيَ محمَّدٍ ﷺ على هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ].



■ قوله: (فصل: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٧٦) في العلم. وأبو داود برقم (٤٦٠٧) في السنة. وابن ماجه برقم (٤٢) في المقدمة. وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧). والحاكم في المستدرك (١/ ٩٥، ٩٦) وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي.

. . . .

باطنًا وظاهراً . . .) :

هذا الفصل في الاتباع وإدخاله في العقيدة بمناسبة أن الذي يصدق إنسانًا يتبعه؛ فالذين يصدقون الرسول ﷺ يتبعونه، ومن اتبعه في شيء دون شيء دلَّ على ضعف تصديقه، ومن قبل بعضًا دون بعض دلَّ على عدم تطبيقه، وعلى كذبه في شهادته له بالرسالة.

فلما كان أهل السنة صدقوا بأن الله هو ربُّهم وإلههم ومعبودهم، وصدقوا بأنه الذي كلفهم وأمرهم ونهاهم، وصدقوا بأنه الذي تعبدهم بهذه الشريعة التي فيها هذه الواجبات وهذه المحرمات، وصدقوا أيضًا محمداً ﷺ وآمنوا به وبرسالته، واعتقدوا صحة ما جاء به، وبأنه مرسل من ربه، واعتقدوا أن شريعته هي شرع الله، وأنه ما جاء بشيء من نفسه إنما هو مبلغ ومُبين.

فلما اعتقدوا ذلك كله، عملوا به وقبلوه واتبعوه، فاتباعهم للقرآن يعتبر اتباعًا للنبي ﷺ ، واتباعًا لله تعالى.

وقد أمرهم الله باتباع القرآن في آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم** ﴾ [الزمر: ٥٥].

وكذلك أمرهم باتباع النبي ﷺ ورتب على اتباعه الأجر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فجعل اتباعه سببًا للاهتداء.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**

. . . .

ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل في اتباع النبي ﷺ فائدتين: حصولك على محبة الله، وحصولك على مغفرة الذنوب ﴿**يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾.

فمن طريقة أهل السنة ومن عقيدتهم: اتباع ما جاء عن الله تعالى في كتابه الذي أنزله وحيًا على محمد ﷺ، فبعد أن اعتقدوا أنه وحي من الله، وأنه كلام الله الذي وجَّهه إلى عباده وضمنه شريعته، اعتقدوا بعد ذلك إنه يلزمهم السير على نهجه، وأنه يلزمهم اتباعه وتطبيق ما فيه.

كذلك حقيقة الاتباع ليست مجرد انتساب، فكثير من الناس يقال له: ألا تتبع ما جاءك من الله فيقول: بلى أنا أتبعه هل رأيتني قد خالفته؟ فيقال له: ألا تتبع النبي ﷺ وتطبق ما جاء به؟ فيقول: بلى، أليس قد اتبعته، هل رأيتني خالفته؟. نقول: حقيقة الاتباع هي تطبيق كل ما جاء عن النبي ﷺ تطبيقًا دقيقًا، بحيث إن المُتبع لا يترك سنة إلا ويعمل بها، ولا يترك أمرًا إلا ويمتثله، ولا نهيًا إلا ويبتعد عنه وينزجر.

وقد أمر الله تعالى بتقبل ما جاء به النبي ﷺ، والانقياد له، فهو المبلغ عن الله تعالى، ولا بأس أن نذكر أنواعًا من الأدلة التي وردت بذلك:

فمنها: الأمر بالتأسي به؛ قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]، وحقيقة التأسي هو تقليده، وفعل ما يفعله، فإذا

. . . .

عرفنا أن هذا الفعل فعله فإننا نفعله تأسيًا به واستنانًا واتباعًا له واعتقاداً أنه طاعة لله.

ومنها: الأمر بالطاعة، وقد ورد هذا كثيراً في القرآن في نحو أربعين آية فيها الأمر بطاعة النبي ﷺ، فتارة يعطفها على طاعة الله كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وتارة تكون مستقلة كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، ويرتب عليها الفوائد كما في هذه الآية حيث رتب على طاعة النبي الرحمة.

وأنت تعرف أن الطاعة تتمثل في امتثال الأوامر وترك الزواجر، فالذي تأتيه الإرشادات من النبي ﷺ، ولكن يأخذ منها ما يناسب زمانه ويترك منها ما لا يناسب، فإنه ما أطاعه حق الطاعة.

وإذا سئل هذا المفرط عن سبب تفريطه احتج بأن أهل هذا الزمان لا يناسبهم كل ما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الزمان قد تغير والناس قد تطوروا وما أشبه ذلك، ونحن نعيش مع الناس، فينبغي لنا أن نسايرهم حتى لا ينفروا منا- على حدِّ زعمه- فإذا تمسكنا بكل ما جاء به الكتاب والسنة، هجرنا الناس وقلونا وتنقصونا.

فالواجب على هذا وأمثاله أن يطيع الله ورسوله ﷺ في كلِّ ما أمرا به، وأن ينتهي عن كل ما نهياه عنه، وإن حصل له ما حصل من الإبعاد والهجران، وله في نبي الله ﷺ وصحابته أسوة حسنة، فقد فارقوا الأهل

. . . .

والأوطان ، وتركوا أموالهم وديارهم، وجادوا بأنفسهم طاعة لله عز وجل واتبغاء مرضاته .

ومن **الأدلة أيضًا** : التحذير الشديد من المخالفة له وذلك في مثل قوله : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٦٣]. قال الإمام أحمد رحمه الله : أتدري ما الفتنة؟ الفتنة : الشرك، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

يعني إذا ردَّ بعض قول النبي ﷺ ، وقدم عليه عادات الناس وسيرتهم ومألوفاتهم، وقع في قلبه شيء من الزيغ، وهو بغض شيء من السنة، وتمنى أنها لم ترد، فيكون بذلك ماقتًا للنبي ﷺ منتقدًا له، كأنه يتمنى أنه لم يأمر بهذا الأمر، أو لم يحرم هذا المنهي عنه، فيكون هذا سببًا لزيغ قلبه، مما يوجب له الهلاك أو مقاربة الهلاك .

ومنها **أيضًا** : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] وهذا يوجب للإنسان أن يمتثل الإرشادات ويمتنع عن المنهيات، وقد رتب النبي ﷺ الثواب والعقاب على هذه المتابعة؛ فقال عليه الصلاة والسلام : «**كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا : «ومن يأبى يا رسول الله؟» كأنهم استغربوا : هل هناك أحد يُقال له : ادخل الجنة فيأبى!! ولكنه ﷺ بين معنى ذلك بقوله : «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد**

. . . .

أبى»[١] ؛ فجعل طاعته وعصيانه سببًا إما للثواب وإما للعقاب .

فهذه أنواع من الأدلة التي يتبين بها وجوب التحاكم إلى شرع الله سبحانه وتعالى، واتباع ما جاء به نبيه ﷺ والرضى بذلك والتسليم، وعدم وجود شيء من الحرج في النفس لشيء من الأحكام كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] فنفى عنهم الإيمان إلا بهذه الخصال: وهي أن يحكموه ؛أي يجعلوه حكمًا بينهم ، وإذا جاءهم حكمه رضوا به في كل ما شجر بينهم، وكل ما تنازعوا واختلفوا فيه، يرجعون به إلى حكم النبي ﷺ .

ثم إذا كان في ذلك الحكم شيء من مخالفة النفس أو الهوى، أو فيه شيء من مخالفة العادات المألوفة بين الناس فإنهم لا يبغضون ذلك الحكم ولا يردونه، فيقولون مثلاً : يا ليته ما أمرنا بإعفاء اللحى، أو ياليته ما أمرنا بترك الفواحش والزنى، أو يا ليته ما أمرنا بترك الربا، أو ياليته تركنا أحرارًا في أموالنا نتصرف فيها ونتعامل بها كيف نشاء، بل إنهم يتقبلون كل ما جاء به ولا يبغضون شيئًا من سنته .

فإذا قبلوا بعضًا دون بعض، أو قبلوا ما يناسبهم دون ما لا يناسبهم، أو فعلوا شيئا من المخالفات ولو مع اعتقاد التحريم، كأن يشربوا الخمر تهاونًا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٠) في الاعتصام، باب: «الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ» .

. . . .

بعقوبة الله المترتبة عليها مع اعتقادهم أنها محرمة، فإن هذا من التهاون بعقوبة الله والاستهانة بحرماته، فيكون ذلك تنقصًا لدين الله.

فالحاصل أن من عقيدة أهل السنة: اتباع النبي ﷺ، واتباع كتاب الله، واتباع طريقته التي سار عليها أقوالاً وأفعالاً.

ومن عقيدة أهل السنة أيضًا اتباع سيرة الخلفاء الراشدين، عملاً بوصية النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح حيث قال: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة**»[1]، ولا شك أن الخلفاء الراشدين الذين هم الخلفاء الأربعة ما قالوا شيئًا من قبل أنفسهم، إلا ما للاجتهاد فيه مجال، فإنهم يجتهدون إذا لم يعلموا الحكم فيما وقع لهم.

ولما كانوا قد صحبوا النبي ﷺ الصحبة التامة، وعرفوا نهجه وسيرته، وحفظوا عنه سنته، وعرفوا أهداف شريعته ومراميها، وصَّى النبي ﷺ باتباعهم؛ لأنه عرف أنهم لا يميلون، ولا يؤْثرون عليها باطلاً، فهذا هو السبب في كونه وصى باتباعهم، وبالسير على سنتهم، وسماهم خلفاء لأنهم خلفوه أي جاءوا بعده، وقد خلف بعضهم بعضًا أيضًا.

فأبو بكر رضي الله عنه خلف النبي ﷺ في الولاية وإقامة الحدود وجمع الكلمة، وفي تدبير الشئون وفي تقرير العقوبات على مستحقيها وفي إقامة

(١) تقدم تخريجه ص ٢٦٥.

. . . .

الحج والجهاد والجُمع والأعياد وما أشبهها.

ثم جاء عمر رضي الله عنه خليفة لأبي بكر، فسار بسيرته ونهج نهجه، وجهز الجيوش، وفتحت بتدبيره البلاد، وانتشر الإسلام، وكذلك أيضًا بلّغ ما علمه، وحكم بين الناس، وأفتى وعلم وفهم، وأوقف الناس على الأحكام، وعلى الحكم والمصالح.

وهكذا بقية الخلفاء، فلما كانوا كذلك كانت سنتهم وسيرتهم أولى بأن تُتّبع، ذلك لأنهم كانوا على نهج النبي ﷺ، سماهم راشدين اشتقاقًا من الرشد، والرشد ضد الغي، قال تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] فالرشد هو طريق الفلاح والخير والصلاح، وهم راشدون؛ أرشد الله بهم الأمة، وسماهم مهديين؛ لأن الله قذف في قلوبهم الهدى؛ هداهم وهدى بهم وسددهم، فهذه شهادة النبي ﷺ لهم بالخير، فلأجل ذلك قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[1].

والسنة: الطريقة التي يُسار عليها بالأعمال لا بالأقدام، فسنتهم نهجهم وأعمالهم التي عملوها وأقوالهم التي قالواها، فأمر باتباعهم في ذلك لأنهم كانوا على النهج القويم.

وأمر بالتمسك بالسنة فقال: «**تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**»

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٥.

. . . .

والعضُّ معناه قوة الإمساك، وليس هو العض الحقيقي بالأسنان، إنما المراد: قوة العمل بها، كأنه يقول: لابد وأن تنالكم فتن، ولابد وأن تحبسوا، وتُضربوا إذا تمسكتم وصبرتم واتبعتم السنة، فقد يُستهزأ بكم، وقد يأتيكم من يتنقصكم، وقد يمقتكم كثير من الناس، ويرميكم برجعية أو بجمود أو بتزمت وتشدد وتعصب. فلا يزيدكم ذلك إلا تمسكًا، ولا يزيدكم ذلك إلا اتباعًا لهذه السنة وتمسكًا بها، تمثلوا بمن يعض على الشيء بأضراسه؛ فالنواجذ هي أقاصي الأسنان، فقد مثل شدة التمسك بالسنة كالذي يَعَضُّ على الشيء بأسنانه كلها، فإن ذلك أعلى قوته؛ أي تمسكوا بها ولو حبستم، ولو ضربتم وأوذيتم، ولو نالكم ما نالكم، فلا يصدكم ذلك عن السنة وهذه السيرة، واحذروا من المحدثات أو البدع.

فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام أمرنا باتباعه ﷺ واتباع أصحابه والتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، وحذرنا من البدع والمخالفات، وأهل السنة يعرفون أن البدعة هي المحدثة في الدين فيبتعدون عنها، ويعرفون أن السنة هي طريقة الرسول ﷺ وصحابته فيتمسكون بها ويؤثرونها، ويعرفون هدي النبي ﷺ فيسيرون على نهجه، ويتبعون وصيته في خطبته، فقد كان يخطب في كل جمعة بقوله: «**إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»[1] هكذا كان عليه الصلاة والسلام يقول.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٦٧) في الجمعة، باب: «تخفيف الصلاة والخطبة». عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

فالهدي معناه: السمت والدلُّ والعمل، فأحسن وأفضل الهدي والأعمال ما عمله النبي ﷺ، وأصدق الحديث وخير الكلام هو كلام الله الذي بلغه رسوله ﷺ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

فأهل السنة لما أنهم قدموا هديه عليه الصلاة والسلام على كل هدي، وقدموا سيرته ونهجه، وتمسكوا بكتاب ربهم، سموا أهل السنة، أي إنهم أهل سنة النبي ﷺ التي أوصاهم بها، وسموا كذلك أهل الجماعة؛ لأنهم المجتمعون على الحق، ولو قلّوا في بعض الأزمان فلا يضرهم، ولو كثر أعداؤهم ومخالفوهم فلا يضرهم.

فالحق حق ولو قل أهله، والباطل باطل ولو كثر أهله، فليس العبرة بكثرة الأتباع ولا بكثرة الناس الذين على طريقه، بل العبرة بنفس تلك الطريقة؛ صحتها أم عدم صحتها.

فأنت إذا أردت أن تسبُر أحوال الناس، اسبر قبل ذلك أعمالهم، وطبقها على شرع الله المنزل ووحيه المحفوظ، فما وافق هذا الوحي فإنه هو الحق، فاقبله وتقبله ولو قل أهله، وما خالفه فرده على من قاله.



سبب تسميتهم بالجماعة

[ولهذا سُمُّوا أَهْلَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسُمُّوا أَهْلَ الجَماعَةِ؛ لأنَّ الجَماعَةَ هِيَ الإِجماعُ، وضِدُّها الفُرْقَةُ، وإِنْ كَانَ لفظُ الجَماعَةِ قَدْ صارَ اسمًا لنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعينَ.

والإِجْماعُ هُو الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ في العِلْمِ والدِّين.

وهُمْ يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثَّلاثَةِ جَميعَ ما عليهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوالٍ وأَعْمالٍ باطنةٍ أَوْ ظاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تعلُّقٌ بالدِّين.

والإِجماعِ الَّذي يَنْضَبِطُ هُو مَا كانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالحُ؛ إِذْ بَعْدَهُم كَثُرَ الاخْتِلافُ، وانْتَشَر في الأُمَّةِ].



▪ قوله: (ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الإجماع، وضدها الفرقة...):

هذه العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، والمراد بالجماعة: المجتمعون على الخير والحق، ويُسمون أهل الجماعة من الاجتماع، واجتماعهم هذا هو اتفاق كلمتهم، وتطابق معتقدهم.

. . . .

وليس شرطًا أن يجتمعوا في بلد أو في دولة، بل ما دامت تجمعهم العقيدة فهم جماعة ولو كانوا أحادًا، ولو كانوا جماعة صغيرة متفرقين في بلد ما، وجماعة أخرى في بلد ثانٍ، وأخرى في مكان آخر فإنهم هم الجماعة، المجتمعون على الحق وعلى السنة وعلى العقيدة السليمة.

وقد تُطلق الجماعة على الكثرة، ولذلك ورد في بعض الأحاديث الحث على جماعة المسلمين وإمامهم، والتحذير من الفرق الضالة ومن الشذوذ، وكان النبي ﷺ يحث في خطبته على الجماعة وينهى عن الشذوذ؛ فيقول: «**يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار**»[1]. وفي حديث آخر: «**عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**»[2].

فالجماعة هنا هي جماعة المسلمين وإمامهم، لكن قد يقال: إن أهل السنة والمتمسكين حقًا بالعقيدة السليمة أقل من الفرق الأخرى، فقد أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق ثلاثًا وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة[3]،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٧) في الفتن. وصححه الألباني دون قوله: «ومن شذَّ».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٥) في الفتن وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع رقم (٢٥٤٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٣٩٢). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٢) برقم (٦٣). والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠١). والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧). قال الألباني في تحقيقه السنة لابن أبي عاصم: إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات معروفون، غير عبّاد بن يوسف وهو ثقة إن شاء الله. وصحح إسناده أيضًا الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣) وبرقم (١٤٩٢). وفي ظلال الجنة برقم (٦٣).

. . . .

فرقة واحدة من ثلاث وسبعين فرقة سماها النبي الجماعة، فدل على أن تلك الفرق وإن كانت أكثر فليسوا جماعة؛ بل هم أهل فرقة.

وقد أمر الله بالاجتماع ونهى عن التفرق كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالفرقة هي كل طائفة تعتقد عقيدة، وتنتحل نحلة، وتذهب إلى مذهب، وترى رأيًا، فإنهم جميعًا فرق.

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بما كان عليه السلف الصالح، وبما ترك النبي ﷺ عليه أمته، ولهذا لما سُئل ﷺ عن الفرقة الناجية قال: « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** »[1]، ولا شك أن ما كان عليه الصحابة في وقت النبي ﷺ هو التمسك بالوحي، والعمل بالشريعة وتطبيقها، وترك كل ما يضادّها ويخالفها، فمن كان على تلك العقيدة، فهو من أهل السنة ولو لم يكن إلا وحده.

فلو كان وحده في دولة فإنه يعتبر سُنيًا، ويعتبر من الجماعة. وقد ذكر الله أن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا** ﴾ [النحل: ١٢٠] فأطلق عليه أمة، حيث إنه كان في زمن لم يكن فيه مسلم

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١) في الإيمان، والحاكم في المستدرك (١/ ١٨) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٩). والآجري في الشريعة (٥/ ١٦). والمروزي في السنة ص ١٨. وابن وضاح في البدع والنهي عنها ص ١٥ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. وللحديث شواهد ترفعه لمرتبة الحسن. وحسنه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٢٠٣) ورقم (١٤٩٢). وظلال الجنة (٦٣). وصحيح الجامع (٥٣٤٣).

. . . .

غيره.

وكذلك إذا قلَّ أهل السنة في زمان، اعتبروا هم الجماعة ولو كان السواد الأعظم مُخالفًا لهم. ولهذا يقول ابن القيم[1]:

هذا وسادس عشرها إجماع أهـ ـل العلم أعني حجة الأزمان

من كل صاحب سنة شهدت له أهل الحديث وعسكر القرآن

ثم قال:

لا عبرة بمخالفٍ لهمُ ولو كانوا عديد الشاء والبعرانِ

فقد يوجد ممن يخالفهم أعداد كثيرة، ولكن لا عبرة بهم، فأهل السنة حقًا هم أهل السيرة النبوية والهدي النبوي أينما كانوا وكيفما كانوا.

وقد بين المؤلف رحمه الله أنهم سموا بأهل الجماعة؛ لأنهم مجتمعون على الحق، ولأن الجماعة في الأصل: الاجتماع. ثم ذكر أن الجماعة قد تطلق على كل مجتمعين على شيء، ومن ذلك تسمية الصلاة في المساجد صلاة الجماعة حيثُ إنهم يجتمعون على إمام، فتطلق الجماعة على كل مجتمع فتقول: جاءنا جماعة، ذهبنا ونحن جماعة؛ أي عدد.

لكن الشرع أطلق اسم الجماعة على متبعي السنة النبوية ولو كانوا

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١١٩.

. . . .

متفرقين. ثم ذكر أنهم أهل الإجماع، إذا اجتمعوا على شيء فاجتماعهم عليه يكون حجة.

والإجماع هو الدليل الثالث الذي يُستدلُّ به على صحة الحكم، ويستدل به على أن هذا حلال أو حرام أو لازم أو غير لازم، فالإجماع دليل من الأدلة الشرعية، وحجة قاطعة يُستدل بها؛ لأن الله تعالى عصم الأمة المحمدية أن تجتمع على ضلال أو تجتمع على خطأ.

ولهذا يقول بعض السلف: مارآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح. فإذا اجتمع المسلمون أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم على أمر، فإن ذلك دليل على حسنه أو شرعيته، ولكن الأصل أن الإجماع لا يكونٍ إلا مستندًا إلى دليل قوي قاطع، ولهذا تجدهم أجمعوا على الأشياء التي نصوصها قطعية؛ كإجماعهم أن صلاة الظهر أربع ركعات، وكذلك إجماعهم على أن فرض الزوج النصف مع عدم الفرع الوارث وذلك لوجود الأدلة الصريحة الصحيحة.

فالإجماع هو الدليل الثالث الذي يُستدل به على الأحكام الشرعية، وأهل السنة والجماعة يرجعون في أحكامهم إلى هذه المصادر الثلاثة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع فيزنون بها ما عليه الناس، وما يصدر عنهم من أقوال وأفعال.

. . . .

فإذا قال أحد قولاً في المعتقد، فإنهم يطلبون على ذلك الأدلة من كتاب الله أو من سنة نبيه ﷺ أو من إجماع الأمة، وكذلك إذا عمل عملاً طولب بدليل هذا العمل من هذه المصادر الثلاثة.

وهكذا أيضًا يطالبون بالدليل كلَّ من أدلى بشبهة، أو أحدث بدعة ضلالة، فإنهم يطالبونه بآية أو حديث ونحو ذلك. ولهذا فإن الإمام أحمد لما امتحن، جعل يطالب الذين امتحنوه في قضية خلق القرآن بدليل، ويقول: هاتوا لي دليلاً من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة، فلما لم يأتوه بدليل عرفهم أن ما هم عليه باطل وليس حقًا؛ إذ كيف يحدثون هذا القول الذي لم تدل عليه الأدلة من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ ولا من إجماع الأمة، بل إن الكتاب والسنة يدلان على خلافه، وكذلك أجمعت الأمة على خلافه.

والإجماع المعتبر هو إجماع السلف الصالح الذين هم صحابة رسول الله ﷺ والتابعون، فهذا هو الإجماع الذي يكون دليلاً، أما القرون التي بعدهم فقد تفرقت الكلمة، وتشتتت الأمة وكثر الخلاف، وكلٌّ ادعى أنه مجتهد وكلٌّ انتحل نحلةً، وكلٌّ ذهب بمذهب، فكثرة هذا الاختلاف سبَّبت صعوبة معرفة الإجماع في تلك العصور.

أما في عهد الصحابة والتابعين فقد كان الإجماع منضبطًا معلومًا لأنهم خير القرون وسادة هذه الأمة، وقد كانوا مجتمعين ومتقاربين ولم يكن بينهم

. . . .

اختلاف، ولم تحدث فيهم البدع التي حدثت بعدهم، وقد كان أهل البدع في زمانهم أذلاء محتقرين غير معترف بهم، ولكن لما تفرقت الأمة واختلفت فيما بينها، وتحزبت إلى فرق شتى وأحزاب متباينة، أصبح معرفة الإجماع أمراً عسيراً.

ولهذا روي أن الإمام أحمد قال: «من ادعى الإجماع فهو كاذب»؛ وذلك بسبب المشقة في معرفة أماكن العلماء، ومعرفة أقوالهم، ومعرفة خلاف من خالف.

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يستدلون بالإجماع ويعتبرونه حجة شرعية، كما يستدلون بالكتاب والسنة ومقياسهم في ذلك إنما هو إجماع الصحابة وتابعيهم بإحسان، وهذه الأصول الثلاثة هي أصول الأدلة، فلا ينبغي الخروج عنها.



خاتمة هذه العقيدة
في
مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال

[فَصْلٌ: ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذه الأصولِ يَأْمُرونَ بالمَعْروفِ، ويَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ على مَا توجِبُهُ الشَّريعَةُ.

ويَرَوْنَ إقامَةَ الحَجِّ والجِهَادِ والجُمَعِ والأعْيادِ مع الأمَراءِ أبْرارًا كانُوا أَو فُجَّارًا، ويُحافِظونَ علَى الجَماعاتِ.

ويَدينُونَ بالنَّصيحَةِ للأمَّةِ، ويَعْتَقدونَ معنى قَوْلِه ﷺ: «المُؤْمِنُ للمُؤمِنِ كَالبُنْيانِ المَرْصوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وشَبَّكَ بينَ أَصابعه[1]، وقوْله ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ: إذا اشْتَكَى منهُ عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ»[2]].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٦) في الأدب، باب: «تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا». ومسلم برقم (٢٥٨٥) في البر والصلة، باب: «تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم» عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠١١) في الأدب، باب: «رحمة الناس بالبهائم». ومسلم برقم (٢٥٨٦) في البر والصلة، باب: «تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم». عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

. . . .



▪ قوله: (**فصل: ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة...**):

هذه الأمور التي ذكرها المؤلف رحمه الله من خصال الخير ومن محاسن الأخلاق؛ فإنها لو لم تأت بها الشريعة فإن العقل يدرك حسنها ويحبذ الأمر بها، فمن ذلك:

١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف: اسم لكل ما تعرفه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، اسم لكل خير محبوب في النفس، تطمئن إليه النفس وتأنس به، وقد أصبح أيضًا اسمًا لما أمر به الله ورسوله، فإن ذلك يسمى معروفًا، فالأمر بالعبادة والأمر بالإخلاص أمر بالمعروف، والأمر بالصلوات والجماعة أمر بالمعروف، والأمر بذكر الله وتلاوة كتابه أمر بالمعروف، والأمر بالصدقات وأفعال الخير، والأمر بإخراج الزكوات والكفارات والوفاء بالنذور، ونحو ذلك، أمر بالمعروف.

وكذلك الأمر بالصوم المفروض أوالنفل، والأمر بحب أهل الخير والقرب منهم، والأمر بحضور مجالس الخير ومجالس العلم، وتعلم العلم النافع والأعمال الصالحة أمر بالمعروف، وهكذا كل أفعال الخير التي أمر الله بها وأحبها.

وأما المنكر: فهو اسم لكل ما تنكره النفوس وتنفر منه الطباع، وتستبشعه

. . . .

النفوس الأبية السليمة وتنفر منه، وهذا سبب كونه منكراً. ولو وجدت نفوس دنيئة تستحسنه، فإنه لا عبرة بها. فالمنكر أولاً: منكرٌ طبعا، وثانيًا: أنكره الشرع وحرمه، فأصبح المنكر اسمًا لكل ما حرمه الله ونهى عنه، أو نهى عنه الرسول ﷺ وحذر منه.

فمثلاً أذى العباد والتعدي عليهم منكر، والسب والهجو والشتم واللعن ونحو ذلك منكر. وهكذا البخل بالواجبات، وشح النفس، والحرص الشديد على ما لافائدة فيه، أو الحرص الذي يوقع في المحرم فهذا منكر تنكره النفوس، وهكذا الغش في المعاملات، والتعامل بالمعاملات الربوية، والغرر والخداع ونحو ذلك منكر، وهكذا أذى الجار وأذى الصديق ونحو ذلك منكر. وهكذا التهاجر والتقاطع منكر.

وقد تكون بعض المنكرات مألوفة عند بعض النفوس الدنيئة، ولا يكون إلفها دليلاً على استحسانها، فالذين يألفون الخمور ويستحسنونها، لا يدل هذا على أنها معروف بل هي منكر. والذين يألفون شرب الدخان ونحوه، لا يدل على أنه معروف بل إنه منكر في الحقيقة، وهكذا الذين يتعاطون المخدرات ونحوها، يلتذون بها ويرون أنها حسنة ومناسبة لنفوسهم الدنيئة، ولا يخرجها ذلك عن كونها منكراً.

فمن صفات أهل الخير أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ومعنى توجبه الشريعة أي أنها جعلته من واجبات الإسلام،

. . . .

وقد كان عمر رضي الله عنه يقول : من أراد وعد الله فليحقق شرط الله.

وعد الله في أن تكون من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، لا يتحقق إلا بالشرط الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، انظر كيف قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، وذلك دليل على أنه من واجبات الإسلام.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ [التوبة: ٧١]، انظر كيف قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فالتقديم يدل على الأهمية ، ويدل أيضًا على أنهما من واجبات الإسلام، وهذا معنى قوله: على ما توجبه الشريعة.

كذلك قوله ﷺ : «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٣] ، فهذا يحدد درجات تغيير المنكر، فلا يحق لأحد أن يتعدى هذه المراتب فمن كان يستطيع التغيير بيده، ولا يوجب ذلك منكرًا أكبر أو مفسدة أكبر، كان فرضه أن يغير بيده، فإذا قدر مثلاً على إراقة الخمور وكسر دنانها وإتلاف علب الدخان وما أشبه ذلك من المنكرات فإنه يفعل ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٩) في الإيمان، باب: «بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

كذلك إذا قدر أن يعاقب العصاة والمبتدعين على الملاهي والأغاني بيده أو بعصاه ولم يترتب على ذلك مفسدة فإنه يفعل، فإذا لم يستطع انتقل إلى التغيير بلسانه، وذلك ببيان بشاعة هذه الأفعال وشناعتها وقبحها، وبيان دناءة نفوس أهلها وقبح ما بهم، وعكوفهم على هذه الأشياء التي تنكرها الشرعةُ والفطرة.

فإذا لم يستطع ذلك وخاف أن يترتب عليه مفسدة اقتصر على الإنكار بالقلب، ويتحقق الإنكار بالقلب ببغض تلك المنكرات والأفعال القبيحة ومقت من يفعلها والبعد عنها وعدم مجالسة أصحابها، والتحذير من مجالستهم أو مؤاكلتهم أو مخالطتهم، والتصريح ببغضهم والإنكار لما هم عليه، فإذا فعل ذلك صدق في أنه منكر بقلبه.

٢ ـ إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء:

فقوله: «**ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا**»، هذه أيضًا من خصال أهل السنة والجماعة، وذلك لأن الخروج على الأئمة والأمراء ونحوهم يحصل منه مفسدة عظمى وفتنة عمياء؛ لما ينتج عن ذلك من قتل وسفك دماء وفتن ونحو ذلك.

فلأجل ذلك أهل السنة يقولون: نسمع ونطيع كما أمرنا الله وكما أمرنا رسوله ﷺ، وقد أمر الله بطاعة الأمراء ولو كانوا فجاراً؛ لأن المفسدة التي تحصل من العصيان لهم، فيها مضرة، إلا إذا كانوا قد أمروا بمنكر، فلا طاعة

. . . .

لمخلوق في معصية الخالق.

فمن طاعتهم: إقامة الحج معهم، فقد كانوا في الزمن القديم يحتاجون إلى أمير يقيم لهم شعائر الحج؛ لأنهم إذا حجوافُرادى اقتطعوا؛ لأن هناك قطاع الطرق في تلك الفيافي وتلك المفازات والصحاري التي يسكنها الرعاع والبوادي، فإذا مر بهم الحاج أو المسافر، اقتطعوه وأخذوا ما معه، فاحتاج المسلمون إلى أن يؤمروا أميراً يحج بهم ويحجون معه، ولو كان عاصيًا، ولو كان عنده فجور، ولو كان يشرب الخمر أو يحلق لحيته أو يقصر في أمر الله أو ما أشبه ذلك، فإن تقصيره على نفسه، وللمسلمين مصلحة في الاجتماع عليه.

فبالحج معه مثلاً يحصل الاجتماع والاطمئنان، وتحصل إقامة الشعائر، وذلك لأنهم يوافقونه في الرحيل، ويوافقونه في النزول، فإذا غربت الشمس صاح بهم: هلموا فانصرفوا من عرفة، فينصرفون، فإذا طلع الفجر نادى فيهم أميرهم أن صلوا فيصلون جميعًا، ثم يسيرون بعد صلاة الفجر والإسفار إلى منى، ثم إذا أذن الظهر نودي أن دخل وقت الرمي فارموا، فيذهبون إلى الرمي وهكذا، فهو الذي يقيم مناسك الحج وشعائره فيحجون على بصيرة.

وهكذا **الجهاد** يذهب هذا الأمير بالجيش إلى البلاد الأخرى ويجاهد، فلذلك يرى أهل السنة موافقته والغزو معه، ولو كان هو في نفسه يعكف على الأغاني والملاهي ولو كان متهمًا بشيء من التقصير في عبادته أو ما أشبه ذلك، فإن معصيته على نفسه ونفعه للمسلمين فيحجون معه، ويصلون معه،

. . . .

ويغزون معه، مهما كانت حالته؛ لحصول المصلحة في ذلك.

وأما الجمع والأعياد: فالعادة أن الذي يتولاها في المدن ويصلي بهم هو الأمير الذي ينوب على تلك البلاد، أو الملك والخليفة الذي في تلك المدينة، فهو الذي يتولى الخطبة بهم في الجمع والأعياد، فيصلون خلفه على ما كان منه من تقصير، ولو كان يشرب خمرًا أو يعكف على الغناء فلا يجوز الخروج عليه أو خلع الأيدي من طاعته مادام مصلحًا لا يأمر بالمنكر ولا ينهى عن المعروف، وهم مع ذلك يتخولونه بالنصيحة والموعظة، ويبينون له خطر المعاصي والذنوب، فإذا استقام فقد تم المراد، وإن أبى كانت معصيته على نفسه، فيجتمع المسلمون عليه في الخير ويشاركونه في الغزو والحج وإقامة الجمع والأعياد وغير ذلك.

٣ ـ المحافظة على الجماعة:

فمن خصال أهل السنة: المحافظة على الجماعة، والمراد بها جماعة المسلمين ولو كانوا قليلاً، والجماعة هم أهل السنة المتمسكون بها، فإذا جاء حديث يحث على الجماعة، كقوله ﷺ **«عليكم بالجماعة»**(١) فالمراد بها جماعة المسلمين.

ومنها اجتماعهم على الصلوات في المساجد وهذا دليل على محافظتهم

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٥) في الفتن، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٦).

. . . .

على الجماعة وتمسكهم بها.

ولو تفرق هؤلاء في بلد كانوا هم الجماعة؛ لأن الجماعة ما وافق الحق وإن كانوا قليلاً، فأهل السنة والجماعة قليل جداً بالنسبة للفرق الأخرى، وكذلك فإنهم مضطهدون ومحاربون ومشتتون، ومع ذلك فإنهم هم الجماعة الذين وردت النصوص بالحث على التمسك بهديهم وطريقتهم، ولو خالفهم الجمُّ الغفير والعدد الكثير، فإنه لا عبرة بمخالفة هؤلاء لهم.

فالحاصل: أن أهل السنة يرون المحافظة على الجماعة.

٤ ـ النصيحة:

فقوله: **«يدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا» وشبَّك بين أصابعه[١]، وقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢]».**

هذا من خصال أهل السنة والجماعة أنهم يرون أن المسلم عليه أن ينصح للمسلمين، وأن يكون مخلصًا لهم وناصحًا. والنصح هو صفاء المودة، ومن آثاره: الدلالة على الخير الذي يعلمه خيراً، واتقاء الشر الذي يعلمه شراً، والبعد عن الغش؛ وذلك بأن تحب للمسلمين ما تحبه لنفسك، وتدلهم على ما

(١) تقدم تخريجه ص ٢٨٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٨٢.

. . . .

تحب أن تفعله؛ فإذا كان هناك مصلحة دنيوية فلا تستبد بها وتحرم إخوتك المسلمين، وإذا رأيت مسلمًا قد أقبل على هلكة، فإياك أن تتركه بل حذره من أسباب هذا الهلاك ونحو ذلك، وهكذا الدلالة على كل خير، سواء كان خيرًا دنيويًا لا ضرر فيه، أو خيرًا دينيًا، فهذا هو محض المحبة؛ لأن المسلم ما دام محبًا لإخوته المسلمين، فإنه يدلهم على الخير ويساعدهم عليه، ولهذا شبههم النبي ﷺ بالبنيان أي الطين الذي يُجعل على طين فييبس ويتصلب ويشدُّ بعضه بعضًا.

هكذا المؤمن يشدُّ عضد أخيه ويساعده، ويعينه على ما وقع فيه من المشاكل ونحو ذلك، فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد يعني أنه إذا تألم واحد من أطراف المسلمين حزن له إخوته المسلمون، وحرصوا على إزالة الألم الذي وقع به. وإذا وقع به ظلم، تألم له كل مسلم في شرق الأرض وغربها، وحرص على أن ينجيه من هذه المظلمة التي وقع فيها؛ إذا سجن ظلمًا، أو أخذ ماله ظلمًا، أو اعتدي عليه أو نحو ذلك، فإن حقًا على المسلمين أن ينصروه كما قال النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[1]. والحاصل أن هذه الأمور من خصال أهل الخير التي إذا تأملها المسلم عرف أن الإسلام جاء بمحاسن الأعمال ومعالي الآداب.



(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٥٢) في الإكراه، باب: «يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل». من حديث أنس. وهو عند مسلم بنحوه برقم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

الصبر والشكر والرضا:

[وَيَأْمُرون بالصَّبْرِ عِنْدَ البَلاءِ، والشُّكْرِ عنْدَ النَّعْمَاءِ، والرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ].



▪ قوله: (ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند النعماء، والرضا بمر القضاء):

هذه الأمور ليست من العقائد، ولكنها من مكارم الأخلاق، ومن محاسن الدين الإسلامي، وإذا تأملها المسلم عرف أن دين الإسلام جاء بكل خلق جميل، ونهى عن كل خلق رذيل؛ لأن هذه الأمور يستحسنها العقل، وتألفها الفطر السليمة، وإنما يخالف فيها من انتكست فطرته، أو من انحرف عن جادة السبيل، وإلا فأهل الجاهلية كانوا يفتخرون بتحقيق هذه الأمور.

وهكذا الكفرة في كل مكان، يفتخرون أيضًا بالاتصاف بها، ويعدون من اتصف بها من أشرفهم وأرفعهم مقامًا، وليس الذي يدعوهم إليها هو طلب الجزاء في الآخرة، فإنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعترفون بالجزاء فيها، وإنما يتحلون بها لأنها شيم ومكارم يُمدح بها ويُرضى عن أربابها.

وهذه الأمور تسمى الآداب الدينية والخلقية التي جاء بها الإسلام موافقًا لما في العقول الذكية من الميل إليها والاستحسان لها.

والتوسع في شرح هذه الأمور طويل، وقد ألفت المؤلفات في مكارم

. . . .

الأخلاق ونحوها، فكتاب «رياض الصالحين» مثلاً وضع لبيان جملة من هذه الأخلاق والآداب، وجعل مؤلفه لكل مسألة من هذه المسائل بابًا، وأورد فيه أحاديث، ومثله كتاب: «الترغيب والترهيب»، فإنه استوفى الأدلة في هذه الأشياء.

كذلك هناك كتب مقصورة على الآداب ككتاب: «الآداب» للبيهقي وكتاب: «الآداب الشرعية» لابن مفلح في ثلاثة مجلدات ضخمة تكلم فيه عن كل مكارم الأخلاق.

وهناك أيضًا كتاب: «أدب الدنيا والدين» للماوردي فيه ذكر لبعض الآداب، وكذلك تناولها أبو حامد الغزالي في كثير من كتبه أشهرها «إحياء علوم الدين» حيث بسط المقال فيها بكلام مرتب إلا أنه يستدل كثيراً بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ولا ينبه عليها.

فالحاصل أن هذه الأخلاق الشرعية لا خصوصية لها بالعقيدة من حيث البحث، إلا أنه ـ كما هو معلوم ـ يزيد الإيمان بالتخلق بها وينقص بالتخلي عنها. ولذلك كان أهل السنة يتخلقون بها.

أولاً: الصبر عند البلاء:

والصبر في اللغة: هو الحبس والكف، **وفي الاصطلاح**: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، ذكر ذلك ابن القيم.

والصبر واجب وأدلته كثيرة من القرآن والسنة وقد ذكرها غير واحد من

. . . .

العلماء، منهم النووي رحمه الله في كتابه: «رياض الصالحين»، وابن القيم رحمه الله في: «مدارج السالكين» وفي: «عدة الصابرين» وغيرهما.

قال الإمام أحمد رحمه الله: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا.

قال ابن القيم: وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. ومعنى الصبر على البلاء هو ألا يجزع الإنسان ولا يتسخط على أقدار الله إذا حلت به البلوى، بل يقابل ذلك بالتسليم والانقياد كما قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

فهذا جزاء صبرهم أن جعل الله عليهم صلوات ورحمة ووفقهم للهداية.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد يسلط البلاء على الإنسان ليختبره، فمنهم من يصبر ومنهم من يجزع، يقول النبي ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد به شرًا أمسك عنه بذنبه**»(١).

وقال ﷺ في حديث آخر بنفس الإسناد: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) في الزهد. وقال: حديث حسن غريب. وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٨) وقال: صحيح.

. . . .

السخط»[(١)] .

فهذه أدلة على أن الابتلاء يكون لاختبار الإنسان أيصبر أم يجزع ، فقد يبتلى بها الإنسان ويكون ضعيف الإيمان ، فلا يتحمل فيجزع ويسخط وربما ارتد وخرج عن الإسلام .

فإذا ابتلي بحبس ، أو بضرب ، أو بمرض ، أبو بموت أحد من أقاربه ، جعل ذلك سببًا للاعتراض على أقدار الله والتسخط عليها ، فينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** ﴾ [العنكبوت : ١٠] ؛ إذا أوذي أو حبس أو ضرب سوى فتنة الناس بعذاب الله ، وخاف من الناس كما يخاف من الله .

فمثل هذا ليس من المؤمنين حقاً ، وليس من الذين يعبدون الله حق عبادته ؛ ولذلك فإنه ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** ﴾ يعني على طرف ﴿ **فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ** ﴾ [الحج : ١١] .

فالله تعالى يبتلي العباد بالمصائب وبالعاهات ونحوها ليتبين الصادق في دعوى الإيمان من الكاذب ؛ لأنه كما قيل :

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) مكرر ، وابن ماجه برقم (٤٠٣١) في الفتن ، وقال الترمذي : حسن غريب . وهو في صحيح الجامع رقم (٢١١٠) ، وقال : حسن .

. . . .

فكل الناس يدعي الإيمان والتقوى والعبودية، فتأتي هذه الابتلاءات لتكشف زيف أولئك المدعين.

أما أقسام الصبر فهي ثلاثة: **الأول**: صبر على طاعة الله. **والثاني**: صبر عن معاصي الله. **والثالث**: صبر على أقدار الله المؤلمة.

ثانيًا: الشكر عند النعماء:

أي عند النعمة، وحقيقته هو الاعتراف بالنعمة لمسديها ومموليها والاستعانة بها على مراضيه، واستعمال كل نعمة فيما يقرب إلى الله.

وقد يكون الاعتراف هو الأساس والأصل، روي أن موسى ﷺ قال لربه: ياربّ كيف أطيق شكرك وما بي من نعمة فمنك؟ قال: «**الآن قد شكرتني**»؛ وذلك لأنه اعترف بعجزه عن الشكر، وذلك لأن كل طاعة تستحق شكرًا، ثم الطاعة الثانية التي هي شكرٌ تستحق شكرًا، وهكذا.

يقول بعضهم:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة — عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله — وإن طالت الأيامُ واتصل العمرُ

إذا مسَّ بالسراء عم سرورُها — وإن مس بالضراء يعقبها الأجرُ

إذا أعطيت نعمة فقلت: الحمد لله، فتوفيقك لقول: الحمد لله، نعمة

. . . .

يستحق الشكر عليها، فإذا شكرته على ذلك فإن هذا أيضًا يحتاج إلى شكر وهكذا فإن العبد لا يستطيع أن يقوم بحق الشكر حق القيام، إلا أن المطلوب منه هو الاعتراف بنعم الله تعالى عليه، وأن يحمده على تلك النعم، وأن يستعملها في طاعته ومراضيه، فيستعمل السمع والبصر والعقل واللسان واليدين والرجلين والمال والولد وكل ما أعطي من جوارح في كل ما هو محبوب لله.

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله على هذين الأمرين: الصبر والشكر، في كتابه المشهور: «عِدَةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين» وبين حقيقة الشكر والصبر وصفة الشاكرين وصفة الصابرين والفرق بينهما، وأيهما أفضل.

والحمد أيضًا شكر؛ لأنهم يعرفونه بأنه: «ذكر محاسن المحمود، مع حبه وتعظيمه وإجلاله» هذا تعريف لبعضهم، ويعرفه آخرون بأنه: «فعل ينبئ عن تعظيم المنعم، بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره». ولكن يقولون: إن الرب تعالى يُحمد على صفاته، ويحمد على شرعه، ويحمد على قضائه وقدره، ويُحمد على النعم والخيرات، ويحمد أيضًا على البلاء والامتحان، فلا يحمد على الضراء غيره. هذا هو الحمد، ويكون الحمد باللسان هذا هو الأصل فيه، فيحمد الإنسان ربه بلسانه ويعمل بمقتضى ذلك الحمد.

أما الشكر فإنه أعم متعلقًا وأخص سببًا، فالشكر خاصٌّ بالشكر على النعم، فسبب الشكر هو النعم، فتشكر الله على عطائه وعلى هدايته، وعلى

. . . .

إغنائك وعلى إعزازك، وعلى الخير الذي أسداه إليك، فالشكر إنما يكون بسبب واحد وهو الخير الذي وصل إليك.

أما الحمد فإن أسبابه كثيرة، فتحمد الله على الخير وتحمده على البلاء، وتحمده على صفاته، وعلى أوامره وآياته. فيحمد الله على أسباب كثيرة.

هذا من حيث السبب، أما من حيث المتعلق، فإن الشكر يكون باللسان، ويكون بالجنان، ويكون بالأركان، فالشاكر يشكر الله بلسانه، ويشكره بجوارحه، ويشكره بقلبه.

أما الحمد فإنه يكون غالبًا باللسان لقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المَحَجَّبا

يعني أن نعماءكم التي وصلت إليَّ أوجبت علي أن أعترف وأشكركم بيدي وبلساني وبقلبي، فالضمير المحجَّب هو القلب، فصار الشكر أخص سببًا وأعم متعلقًا، والحمد بعكسه؛ أعم سببًا وأخص متعلقًا.

والكلام على الحمد والشكر كثير لا يتسع له هذا المقام، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب: «عدة الصابرين» لابن القيم، فإن فيه فوائد قد لا يجدها في غيره.

ثالثًا: الرضا بمر القضاء:

فالقضاء هو ما يقدره الله على الإنسان من المصائب والعاهات ونحو

. . . .

ذلك، وقد اختلفوا هل يجب علينا الرضا بالمصائب والفقر وما أشبه ذلك، أو لا يجب؟

ومن المعلوم أن الإنسان يحزن ويكره هذه المصيبة إذا أصابته، ويكره المرض والفقر ويكره فقد الأقارب، لكن عليه أن يرضى بذلك، حيث إنه من الله فيقول: رضينا بما أتى من الله، واستسلمنا لأمره ولتصرفه، فالرضا من صفات أهل الإيمان.

والرضا إنما يكون بالقضاء لا بالمقضي، والمقضي هو نفس المكروه، كالمرض والفقر والموت وما أشبه ذلك، فنحن نرضى بهذه الأمور من جهة أنها من قضاء الله وقدره، ولكن لا يلزم من ذلك محبتها والتسليم لها من جهة عدم دفعها أو تخفيفها، فلا يجب علينا مثلاً أن نكون مسرورين بموت قريب لنا، أو بفقر أصابنا، أو بمرض ألمَّ بنا.

فإن هذه الأمور اتفقت الطبائع على كراهتها والنفور منها، بل علينا أن نسعى في تخفيف تلك المصائب إذا نزلت بأحد من إخواننا فنصبره، ونحثه على الاحتساب والرضا بقضاء الله، ونحاول أن ندفع عنه ما ألمّ به، فإذا أصابه الفقر تصدقنا عليه وأعطيناه حتى ندفع عنه ما أصابه أو نكون سببًا في تخفيفه.

فالإنسان يفر من قدر الله إلى قدر الله، ويواجه أقدار الله بأقدار الله، ويفر من الشر إلى الخير، فيكون هاربًا من قدر الله إلى قدر الله، فيعدّ لكل ضرر

. . . .

ومكروه ما يدفعه به.

فإذا أصابه الجوع سعى في إزالة هذا الجوع ولو كان من الله، وإذا أصابه البرد سعى فيما يزيل عنه هذا البرد باستخدام الأغطية ونحوها، فإنه ولو كانت هذه مصيبة قدرها الله تعالى، ولكنه يسعى في تخفيفها، وكذلك المرض فمع أنه يعرف أن هذا المرض مكتوب له، إلا أنه يسعى في إزالته أو تخفيفه حسبما يستطيع، وذلك بالذهاب إلى الأطباء، واستخدام الأدوية المشروعة غير الممنوعة.

أما ما قد وقع وانقطع فهذا سبيله الرضا والتسليم، فمثلاً إذا حصلت الوفاة، فليس لك إلا أن ترضى وتقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا تقول: يا ليتني فعلت وفعلت، يا ليتني ذهبت بولدي إلى فلان، أو يا ليتني استخدمت هذا الدواء، فلا يجوز هذا الكلام لأنه من السخط على أقدار الله، ولأنه أيضًا لا يغير من الأمر شيئًا كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] فالشيء الذي فاتكم لا تتأسوا عليه لأنه ليس لكم فيه نصيب، لو كان لكم فيه نصيب لأدركتموه.

وعلى ذلك يحمل قول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**

. . . .

ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل»[1] أي هذا قدر الله لنا وما شاء الله فعله، ولا تقل: لو، لو؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان.

فالحاصل أنه إذا وقع القضاء وحصل ومضى فلا يتأسف عليه ولا يعترض، بل يرضى ويستسلم، أما قبل وقوعه فإنه يجب عليه أن يعدَّ له عدته ويدفع الشر والمكروه بالأسباب الشرعية التي تدفعه.



---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مَكارِمُ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنُ الأَعْمَالِ:

[ويَدعونَ إلى مَكارِمِ الأخْلاقِ، ومَحَاسِنِ الأعْمالِ، ويَعْتَقِدونَ مَعْنى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤمِنينَ إيْمانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا»(١) .

وَيَنْدُبُونَ إلى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

ويَأْمُرونَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وصِلَةِ الأَرْحامِ، وحُسْنِ الجِوارِ، والإحسانِ إلى اليَتَامى والمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ، والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ.

ويَنْهَوْنَ عَنِ الفَخْرِ، والخُيَلاءِ، والبَغْيِ، والاستِطالَةِ عَلى الخَلْقِ بحَقٍّ أَو بغيرِ حَقٍّ. ويَأْمُرونَ بِمَعالي الأخْلاقِ، ويَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسافِها] .



■ قوله: (ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا...»):

مكارم الأخلاق: هي الخصال التي تحبها النفوس ويمتدح بفعلها، وتسمى

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٢) في الإيمان. من حديث عائشة. وأبو داود برقم (٤٦٨٢) كتاب السنة. وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٠) من حديث أبي هريرة. والحديث صححه الترمذي وهو في صحيح الجامع برقم (١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢). وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧٣٩٦): إسناده صحيح.

. . . .

معالي الأمور؛ لأنه لا يفعلها إلا أهل الكرم وأصحاب الهمم العالية.
وضدها: مساوئ الأخلاق.

وقد عقد ابن حجر في آخر «بلوغ المرام» بعض الأبواب التي فيها ذكر الأخلاق مثل: «باب البر والصلة» و «باب الزهد والورع» و«باب الترهيب من مساوئ الأخلاق» و «باب الترغيب في مكارم الأخلاق».

وذكر في تلك الأبواب الأحاديث الدالة على محاسن الأخلاق مثل صدق الحديث، والوفاء بالوعد، والكرم، والشجاعة، وحسن المعاملة، والنصح للمسلمين، وكذلك محبة الخير لكل مسلم، وذكر أضدادها من مساوئ الأخلاق؛ كالكذب، والغش، والمخادعة، والخيانة، وخلف الوعد وما أشبه ذلك، كخصال المنافق التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»**[1].

ومن محاسن الأخلاق: طلاقة الوجه والتبسم عند اللقاء كما قال أحدهم:

بنيَّ إن البر شيءٌ هين ... وجه طليق ولسان لين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣) في الإيمان، باب: «علامة المنافق» ومسلم برقم (٥٩) في الإيمان، باب: «بيان خصال المنافق». عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرج البخاري برقم (٣٤). ومسلم برقم (٥٨). عن عبد الله بن عمرو بلفظ: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا. . .»** الحديث.

. . . .

وكذلك نفع المسلمين والسعي في حاجات الإخوان، وتفريج الكروب كما قال النبي ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**»[١].

وكذلك قال النبي ﷺ: «**والكلمة الطيبة صدقة**»[٢]، وذكر أيضًا من الصدقات: أن تعين أخاك على متاعه، فترفع متاعه على راحلته، أو أن تفرغ من دلوك في دلو أخيك.

ومن مكارم الأخلاق: الإيثار الذي ذكره الله عن الصحابة في قوله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩] فهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم، فإذا نزل بهم ضيف قروه وأكرموه، حتى إن بعضهم نزل به ضيف مرة وليس عنده إلا عشاءه وعشاء أهله وأطفاله، فقدم هذا العشاء للضيف، وبات هو وأهله طاويين؛ إيثارًا للضيف على أنفسهم، فهذا

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٢٩٨٩) في الجهاد. ومسلم برقم (١٠٠٩) في الزكاة. وهو حديث عظيم، ويا ليت الناس يتدبرون ما فيه ويعملون به. وتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن محمد رسول الله ﷺ أنه قال: «**كلُّ سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلُّ خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**». فأين نحن من هذا؟ إلى الله المشتكى!!

. . . .

أيضًا أشرف مكارم الأخلاق.

فالحاصل أن محاسن الأخلاق هي الأخلاق الرفيعة النفيسة التي يُمدح المتخلق بها.

مسألة:

يدعي كثير من السفهاء أن محاسن الأخلاق توجد في الكفار أكثر منها في المسلمين، لكن هذا ليس بصحيح، وما يفلعه الكفار من تلك الأخلاق إنما هو لأهداف أخرى وللحصول على مكاسب مادية ومعنوية، ولذلك فإنهم يتخلون عن تلك الصفات إذا لم تكن هناك مكاسب لهم، فمذهبهم هو المذهب النفعي، حتى الأخلاق عندهم يجب أن تؤدي إلى منافع مادية.

فإذا كانوا يتقنون بعض الصناعات؛ فإن ذلك بهدف الترويج لهذه الصناعات، وإذا كانوا يصدقون في التعامل وفي البيع والشراء؛ فإن ذلك بهدف جذب الناس إليهم.

أما المؤمن فإنه يفعل ذلك طاعة لله أولاً ومراقبة له وخوفًا من عذابه، فالذي يحمله على ذلك هو مراقبة ربه تعالى وإيثار الآخرة على الدنيا.

أما غير المؤمن فإن الذي يحمله على مكارم الأخلاق والآداب أشياء كثيرة، منها: حبُّ المدح والثناء من الناس فهذا يجعله يتقن عمله ويصدق أحيانًا في بيعه وشرائه؛ لأنه يعرف أن ذلك دعاية له وشهرة، فإذا بنى بناءً مثلاً ورآه الناس قالوا: هذا بناء مخلص، هذا بناء عارف، أو هذا مهندس عارف،

. . . .

فيحصل بذلك أن يتسابق الناس إليه فتحصل له مصلحة.

إذًا الإسلام حثَّ على هذه الأعمال؛ لأن المؤمن يعرف أن الذي يراقبه فيها هو الله تعالى، فيقوم بواجبه فيها، والعقل حث عليها أيضًا؛ لأن فيها مصلحة دنيوية.

ومن محاسن الأخلاق: الصلة والعطاء والعفو:

أما قول المؤلف: «**ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**» هذه أيضًا من محاسن الإسلام، وقد ورد حديث بهذا المعنى[1].

ومعنى «**تصل من قطعك**»: القطع هو الهجران والحرمان، فإذا قطعك أي هجرك وحرمك زيارته، أوحرمك بره وعطاءه ونفعه، أو أساء إليك، فتسبب في حرمانك من هذه المصلحة أو هذا العمل؛ بغضًا لك وانتقامًا منك وما أشبه ذلك، فإن من محاسن الإسلام ألا تقابل إساءته بإساءة، بل من الإسلام أن تعفو عنه حتى تجتلب مودته.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن قال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**﴾ [المؤمنون: ٩٦] يعني ادفع السيئة بالتي هي أحسن ﴿**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ**

---

(١) وهو حديث عقبة بن عامر، أخرجه أحمد في المسند (٤/١٤٨، ١٥٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٢) وهو حديث حسن؛ في إسناد أحمد: علي بن يزيد الألهاني ضعيف. ولكن تابعه عبيد الله بن زحر فقوي الحديث بهذه المتابعة.

. . . .

كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فإنك متى أحسنت إليه رجع يلوم نفسه ويقول: يفعل معي هذا ويعاملني بالإحسان في مقابل أذيتي له!! فقد كنت أوذيه وهو يحسن إلي، كنت أحرمه وهو يطعمني ويعطيني، أنا الذي قد أخطأت، فيرجع ويلوم نفسه، وتعود إليك مودته وإخاؤه، ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

فقد أحسنت إليه بدلاً من الإساءة إليه؛ فأنت تمدحه وقد هجاك، وتدعو له بدلاً من أن تدعو عليه، وتثني عليه في غيبته بدلاً من أن تغتابه وتذمه، فهذا بلا شك سيكون سببًا في عودة محبته وإخائه لك، وسيعود على نفسه بالملامة وسيندم على ما كان منه تجاهك.

فهذا يبين فضيلة العفو عمن ظلمك، وكذلك تعطي من حرمك وتصل من قطعك، هذه الخصال كلها من مكارم الأخلاق فهي تبين منهج الإسلام في التعامل مع الناس، ولكن مع ذلك يجوز للإنسان أن ينتقم ويقتص من ظالمه بقدر حقه بدون زيادة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وهذا إنما هو لمن يريد العدل، فإذا ضربك بعصا مرة فلا تضربه مرتين، ولا تضربه بحديدة، ولا تضربه بعصا أغلظ من عصاه، ولكن

. . . .

لك أن تقتص منه بقدر مظلمتك.

وإذا شتمك مرة فلا تشتمه مرتين، إنما تقتص منه وتأخذ منه الحق، ولكن العفو خير، كما قال تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [الشورى: ٤٣].

وذكر الله أن من خصال المؤمنين العفو. كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤]؛ فالكاظم هو الذي لم يظهر غيظه، ويقابل السيئة بالعفو ويقول: قد عفوت عنك، فهذه من خصال أهل الإيمان؛ أنهم يعطون من حرمهم، ويصلون من قطعهم، ويعفون عمن ظلمهم.

أما الكافر فإنه لا يستحق أن يُعفا عنه، إلا إذا كان ذلك العفو سببًا لاهتدائه وإيمانه وترغيبه في الإسلام ودعوته إليه، أما إذا عرف منه الإصرار على الكفر والمعصية، فلا يعفا عنه؛ لأن العفو عنه يكون من باب التعاون على الإثم والعدوان، فهذا ينبغي أن يؤخذ بذنبه وأن يعاقب على جرمه، ولا يعامل معاملة المسلمين؛ لأنه لا يستحق العفو والرحمة.

وكذلك المسلم إذا كان شريرًا فاسقًا مؤذيًا لعباد الله منتهكًا لمحارم الله، فإن الأخذ على يديه وإيقاع العقوبة به أولى من العفو عنه، ليكون عبرة لغيره

. . . .

ولينكف شره عن عباد الله، وقد تكون العقوبة زاجرًا له عن طريق الشر الذي يسير فيه، فيعتبر ويعود إلى رشده وصوابه.

أما إذا كان العفو عن الكافر سببًا لتأمله، وتعقله محاسن الشريعة الإسلامية، فيمكن العفو عنه لهذا الغرض، وقد كان النبي ﷺ يعفو عن كثير من المشركين الذين يؤذونه، ولكن عفوه كان سببًا لاهتدائهم وإسلامهم.

والحاصل أنه قد يكون قوله: «**تصل من قطعك**» في غير الرحم؛ لأنه معلوم أن على الإنسان أن يصل رحمه، يعني أقاربه الذين له بهم صلة قرابة من جهة الأبوين، أو الأجداد ونحوهم، فإن هؤلاء لهم حق الرحم، فقد يكون بعضهم قاطعًا فمن حقه أن تصله، فإذا قطعك فصله؛ لتكون صلتك له سببًا في رجوعه عن تلك القطيعة، وقد أمر الله بصلة الأرحام ولو كانوا كفارًا، ولكن لا يجوز للمسلم محبة الكفار ولا موالاتهم أيًا كانوا، فالصلة شيء، والمحبة والموالاة شيء آخر.

ومن مكارم الأخلاق: حسن الجوار:

وقد كثرت الأحاديث في الحث على حق الجار، حتى قال النبي ﷺ: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[1] أي يجعله وارثًا. وقد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٤، ٦٠١٥) في الأدب، باب: «الوصاءة بالجار». ومسلم برقم (٢٦٢٤) في البر والصلة، باب: «الوصية بالجار والإحسان إليه». عن عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه البخاري برقم (٦٠١٥). ومسلم برقم (٢٦٢٥). عن ابن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

ثبت قـوله ﷺ : «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قـالوا: من يا رسـول الله؟ قـال: **الذي لا يأمن جـاره بوائقـه**»(١)؛ بوائقـه يعني غـوائله وشروره، يعني لاينفعه الإيمان إذا خاف جاره أن يغتاله أو يسرقه أو يخونه في أهله وولده ونحو ذلك، فليس هذا بمؤمن.

ولما كان الجار هو الإنسان الذي يلاصق الإنسان أو يقرب منه، فإن عليك له حقًا بمصافاته ومصادقته، والإحسان إليه وإطعامه مما تطعم إذا كان محتاجًا، وعدم إيصال أي ضرر إليه، فلا تؤذه بدخان قدرك، حتى قال النبي ﷺ : «**إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»(٢) .

وهذا دليل على عظم حق الجار، وقد ذكره الله من جملة أهل الحقوق وجعل الجار قسمين بقوله تعالى: ﴿**الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ [النساء: ٣٦] ، الجار ذو القربى الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، والجار الجنب هو الأجنبي، وله حق الجوار، ولهما أيضًا حقٌ آخر وهو حق الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٦) في الأدب، باب: «إثم من لا يأمن جاره بوائقه». من حديث أبي شريح . ومسلم بنحوه برقم (٤٦) في الإيمان، باب: «تحريم إيذاء الجار». من حديث أبي هريرة واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٥) [١٤٢] في البر والصلة، باب: «الوصية بالجار والإحسان إليه». عن أبي ذر رضي الله عنه.

. . . .

ومن مكارم الأخلاق: الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك:

هذه أيضًا من خصال الإسلام؛ وذلك لأن هؤلاء من ضعاف خلق الله، والمسلم يكون إلى جانب الضعيف، **فاليتيم**: هو الذي فقد أباه في الصغر، وحقه كبير.

وقد نهى الله تعالى عن الاعتداء على حقوقهم، وجعل أكل مالهم بالباطل ذنبًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء: ١٠] وقال: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وأما المساكين فالمراد بهم: ضعاف خلق الله؛ فهو المسلم الضعيف المسكين الذي لا يستطع أن يخلص حقه، ويدخل في هذا أيضًا الفقراء والمعوزون فهؤلاء حقهم على المسلمين أن يحسنوا إليهم وأن يتصدقوا عليهم، وأن يساعدوهم على أمورهم التي قد يعجزون عنها، وأن يواسوهم بقدر ما يستطيعون، ولهم حق في أموال المسلمين، وهو الحق المعلوم، كالزكاة والكفارات ونحوها.

وابن السبيل: هو المسافر المنقطع به، الذي جاء من بلاد بعيدة ليقصد بلدًا، ولكنه نفد زاده وانقطع، وإن كان في بلده ذا ثروة ومالٍ، ولكنه لا

. . . .

يستطيع الوصول إليه، فقد أصبح غريبًا في هذه البلدة وأصبح ابن سبيل، سُمي ابن سبيل؛ لأنه على طريق، والسبيل هي الطريق، وابنها أي ملازم لها، وقد جعل الله له حقًا على المسلمين.

وكذلك قوله: «**الرفق بالمملوك**»، ويدخل أيضًا فيه الرفق بالمستخدم ونحوه؛ وذلك لأن المملوك والمستخدم ذليل بين يدي المخدوم، فمن حقه أن يُرفق به ولا يُكلف بما فيه مشقة عليه.

ومن مكارم الأخلاق: بعدهم عن الفخر والخيلاء والبغي وغير ذلك:

وأما قوله: «**وينهون عن الفخر والخيلاء والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق**» فهذه داخلة في مساوئ الأخلاق.

والفخر معناه الاعتزاز بفعل الآباء والأجداد والافتخار بالأسلاف ونحوهم، وهذه من خصال الجاهليةالتي حذر الرسول ﷺ بقوله: «**أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1].

فالفخر بالأحساب هوتعداد مآثر ومحاسن الآباء والأسلاف، كقول بعضهم: أنا ابن الذين فعلوا كذا وكذا، آبائي خير من آبائك، آبائي هم الذين

---

(١) أخرجه مسلم برقم(٩٣٤) في الجنائز، باب: «التشديد في النياحة». عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

فتحوا، وهم الذين انتصروا، وهم الشجعان، وهم الكرماء، وهم وهم. فأنت ماذا ينفعك من فعل هؤلاء؟ لا ينفعك إلا عملك.

إذا افتخرت بأقوام لهم سلف   قلنا: صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فأنت لست مثلهم، وما نفعك شرفهم ولا فضلهم، وما قلدتهم في أفعالهم، بل إنك تقلد المتخنثين من الكفار والمشركين حتى أصبحت خلفًا سيئًا.

ومن المعروف أن شرف الآباء يستدعي من الأبناء أن يحرصوا عليه، والشرف الذي يستحق أن يفتخر به ويمدح عليه هو الشرف بالعلم والدين، فإذا كان آباؤك أهل علم وديانة، فإن لهم شرفًا، ولكن ينبغي أن يحملك هذا على أن تسير على ضوئهم، وأن تفعل مثل أفعالهم، وتكون ممتثلاً طريقتهم في الدين والأخلاق، ولا تتبدل بذلك أفعالاً سيئة.

فالحاصل: أن الفخر بالأحساب والأنساب والقبائل وغير ذلك من الأمور التي تزرع البغضاء في القلوب والقبائل، وقد نهى الإسلام عن ذلك أشد النهي فقال النبي ﷺ: **«لا يفخر أحد على أحد»**[1].

وأما الخيلاء فهو الإعجاب بالنفس، من التخايل الذي هو الترائي أمام الناس بصفةٍ جاذبة للأعين، كتمايلٍ في مشية على وجه التكبر، ولبس لباس

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥) [٦٤] في الجنة، باب: «الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار». عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

. . . .

يلفت الأنظار، أو المغالاة في اللباس والافتخار به على وجه الكبر، أو جر الثياب على وجه الخيلاء، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **«لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»**(١) .

فهو بتخايله أمام الناس كأنه يظهر نفسه أعلى من غيره وأعظم شأنًا من الآخرين حتى يعظموه ويمدحوه ويعجبوا به، ولا شك أن الإنسان عليه أن يتواضع وأن يحتقر أعماله، ولا يفتخر، ولا يتخايل، ولايتكبر، فالخيلاء من الكبر الذي قد ذمه النبي ﷺ في قوله: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»** ثم فسر الكبر بأنه: **«بطر الحق وغمط الناس»**(٢) يعني احتقار الناس وصدّ الحق ورده وعدم تقبله.

والاستطالة: معناها الجرأة على الناس والتسلط عليهم، كتسلط القوي على المستضعفين، والتجبر وإظهار الجبروت، فإذا كنت ذا منصب ومركز، أو لك رئاسة أو إمارة أو ولاية عامة أو خاصة، فلا تسلط قوتك على المستضعفين؛ تذلهم وتؤخرهم وتقدم غيرهم مثلاً.

وكذلك أيضًا لا تسلط قوتك على الذين تبغضهم بغضًا دنيويًا. ؛ فلا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٨٣) في اللباس، باب: «قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾». ومسلم برقم (٢٠٨٥) في اللباس والزينة، باب: «بيان تحريم جر الثوب خيلاء». عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١) في الإيمان، باب: «تحريم الكبر وبيانه». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

تقل: هذا الشخص كنت أكرهه سابقًا، والآن صار في ولايتي وتحت تصرفي، فتسلبه ماله دون حق، وتأمر بجلده على أتفه الأسباب، أو تودعه السجون وتتناساه، فتأخذ بالشبهات وتتهم بالباطل، وتحبس بالظن، فتكون بذلك قد استعملت سلطتك في غير موضعها، وظلمت الناس وأخذتهم بغير حق.

فالاستطالة منهي عنها حتى ولو كانت بحق؛ لأن الاستطالة تعني التعدي والعسف في معاملة الخلق والتكبر عليهم، فلو كانت لك ولاية وسلطة وسيطرة فلا تجعلها على شخص دون شخص وتنتصر لنفسك، بل اجعل الناس عندك سواسية في الحق، وكن لهم كالأب الرحيم والأخ الشفوق، لا فرق بين كبير وصغير وقريب وبعيد.

فالذي له ولاية، عليه أن يسوي بين ولده الذي من صلبه وبين أبعد الناس عنه، فإذا كان هناك حق على ولده أخذه منه بالقوة والقهر، فلو استحق ولده قتلاً قُتل، وإذا استحق حبسًا حبس، هذا هو الوالي العامل الذي يخشى الله ويتقيه ويخاف مقامه، فأما إذا جعل ولايته وسيلة إلى الظلم، وإلى الانتصار للنفس، فإنه والحالة هذه لايكون عادلاً بل يكون جائرًا وظالمًا.

والحاصل: أن من خصال أهل السنة: التواضع وترك التكبر، ومن خصالهم: البعد عن الخيلاء والافتخار والاعتزاز بالنفس، والبعد عن الاستطالة على الناس وظلمهم وتسليط القوة عليهم بحق وبغير حق .

. . . .

ومن خصال أهل السنة: أنهم يأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها:

معالي الأخلاق: هي الشيم الرفيعة؛ وذلك أن الإسلام جاء بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وجاء بما فيه رفع للنفس، ونهي عن إذلالها، ففي الحديث: «**لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه**»[1]؛ وذلك بأن يدخل مداخل السوء، ومداخل الظن السيء، بل يعمل بكل ما أمر الله به وأمر به الشرع، ويبتعد عن كل ما نهى الله عنه.

ومعلوم أن هناك أخلاقًا شريفة يعرف الإنسان، شرفها بعقله، وأخلاقًا دنيئة يعرف دناءتها بعقله، تسقط الهيبة وتسلط على الإنسان سفهاء الخلق وأراذلهم، فالمسلم يبتعد عن السفه، وعن مجالسة السفهاء، وعن كل ما يجر إلى السفه.

فمن ذلك كثرة المزاح وكثرة القهقهة والضحك في الأسواق ونحو ذلك، فإنها مما يجرئ السفهاء على الإنسان، وهكذا ظهور الإنسان بالمظاهر المزرية؛ كأن يمشي في الأسواق حاسر الرأس ولم يكن هذا من عادة أهل البلد، أو كأن يمشي وهو مكشوف العورة أو بعضها، أو يمشي وهويقلب نظره في متابعة

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٥٤) في الفتن. وابن ماجه برقم (٤٠١٦) في الفتن. وأحمد في المسند (٥/ ٤٠٥) وحسنه الترمذي. وصححه الألباني، وهو في صحيح الجامع رقم (٧٧٩٧).

. . . .

النساء، أو يتكلم بكلام قبيح أو ما أشبه ذلك.

فكل هذا من صفات الدناءة التي يقبح بالإنسان أن يكون متصفًا بها، وذلك لأنها تسقط هيبته.

وقد ذكر العلماء خصالاً أسقطوا شهادة من اتصف بها، ومن ذلك: الأكل في الأسواق؛ فالإنسان الذي له هيبة وله منزلة وشرف، يترفع أن يأكل في السوق والناس ينظرون إليه إلا شيئًا يسيرًا لا يظهر، ولا يكون ذلك عادة له، فإذا اتخذ ذلك عادة له، بحيث يأكل في السوق أو الطريق دائمًا، أو يتكلم بالفسق والفواحش فلا تقبل شهادة من هذا حاله.

فالحاصل أن مساوئ الأخلاق وسَفْسافها وأراذلها إنما يفعلها ضعاف العقول وسفهاء الناس، أما أهل العقول الزكية فإنهم يبتعدون عنها، فلا يكثرون من المزاح والضحك، ولا يظهرون بأي مظهر يجلب عليهم السخرية والازدراء، ولا يتعاملون مع الخلق بالعنف والشدة، بل يتعاملون معهم بالرفق واللين والبر ومكارم الأخلاق.

فكل هذا مما حث عليه الإسلام، ودعا إليه، فالإسلام جاء بمعالي الأخلاق وترك سفسافها، وأمر بالصفات الشريفة التي يحبذها العقل ويحث على التخلق بها، ونهى عن أضدادها مما لا يفعله إلا السفهاء وأراذل الخلق.



خاتمة هذه العقيدة

[وكلُّ ما يَقُولونَهُ وَيفعلونَهُ مِن هذا وغيرِه، فإنَّما هم فيه مُتَّبِعُونَ للكتابِ والسُّنةِ، وطريقَتُهُم هِيَ دينُ الإسلامِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ محمَّدًا ﷺ.

لكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ ستَفْتَرِقُ على ثَلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً، كُلُّها في النَّارِ؛ إلا واحدةٌ، وهيَ الجَماعَةُ[١]. وفي حَديثٍ عنهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ على مِثْلِ مَا أَنا عليهِ اليَوْمَ وأَصْحابي»[٢]؛ صارَ المتمسِّكونَ بالإِسلامِ المَحْضِ الخالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ.

وفيهِمُ الصِّدِّيقونَ، والشُّهَداءُ، والصَّالِحونَ، ومنهُمْ أَعلامُ الهُدَى، ومَصابيحُ الدُّجَى، أُولو المَناقِبِ المَأْثُورَةِ، والفَضائِلِ المَذْكورَةِ، وفيهِمُ الأَبْدالُ، وفيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذينَ أَجْمَعَ المُسْلِمونَ على هِدايَتِهِمْ ودرايَتِهِم، وهُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصورَةُ الَّذينَ قالَ فيهِمُ النَّبيُّ ﷺ: «لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي عَلى الحَقِّ مَنْصورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ، ولا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقومَ السَّاعَةُ»[٣].

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٦.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٧.

(٣) ورد هذا الحديث بألفاظ متعددة عن جماعة من الصحابة منهم: سلمة بن نفيل الكندي، وثوبان، ومعاوية بن أبي سفيان، وقرة بن إياس، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله، =

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ وأَلا يُزيغَ قُلوبَنَا بعدَ إِذْ هَدَانا، وأَنْ يَهَبَ لَنا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. واللهُ أَعْلَمُ.

وصلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا].

الشرح

■ **قوله: (وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة...):**

هذا الفصل في الكلام على خاتمة هذه العقيدة، وفيه يبين الشيخ رحمه الله أن تلك العقائد والآداب التي ذكرها والتي تُشكِّلُ مذهب أهل السنة والجماعة، مبنية على الأدلة الشرعية، فلم يستحسن أهل السنة هذه العقائد والآداب من قبل أنفسهم وإنما اتباعًا للأدلة الصحيحة الصريحة، وذلك لأن العقول تستحسن هذه العقائد والآداب.

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الأدلة على ما قرره من عقيدة أهل السنة والجماعة، وبالأخص فيما يتعلق بالصفات، فإنه ذكر أدلة كثيرة من الآيات

= وعقبة بن عامر، فهو حديث متواتر. وانظر ألفاظ هذا الحديث الجليل في جامع الأصول لابن الأثير أرقام: (١٠٤٨، ٦٧٧٦، ٦٧٧٧، ٦٧٧٨، ٦٧٧٩، ٧٤٩٦، ٧٨٣٢، ٧٩١٧، ٨٨٧٩) وقد اتفق البخاري ومسلم على بعض تلك الألفاظ وانفرد كلٌّ منهما ببعضها، وروى أصحاب السنن بعضها.

. . . .

والأحاديث، وذكر أيضًا أدلة فيما يتعلق بالقرآن، وفيما يتعلق بالرؤية، وفيما يتعلق بالإيمان والصحابة والقدر، وفيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر وما بعده، ذكر أدلة ذلك كله، ولكن على وجه الاختصار؛ لأن الأدلة واسعة في هذا الباب ويصعب حصرها في هذه العقيدة المختصرة.

فكأن المؤلف اختصرها في عقيدة تحتاج إلى بسط وشرح وتوسع في الأدلة، وإلا فقد كتب هناك عقائد مدعمة بالأدلة، وألفت في هذا الباب مؤلفات كثيرة، قد أشار إلى بعضها الشيخ رحمه الله في مؤلفه الذي سماه «الحموية الكبرى»، فإنه أشار إلى جملة كبيرة من كتب المتقدمين التي ألفوها في العقيدة وفي الأسماء والصفات ونحوها ونقل منها نقولات كثيرة، فدلَّ على أن أهل السنة لم يهملوا هذا الباب، بل اعتنوا به، ويدل أيضًا على أن السلف الصالح متمسكون بالأدلة غاية التمسك.

فالحاصل أنه يقول: إن كل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم متبعون فيه للكتاب والسنة. والكتاب والسنة هما الدليل الكافي، فمن اتبعهما لم يلحقه عتاب ولا لوم، وقد أمر الله بردّ التنازع إليهما: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] يعني إلى الكتاب والسنة، وكذلك قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

وكذلك الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله في عدة آيات، ثم ذكر المؤلف بعد ذلك أن طريقة أهل السنة القائمين بهذه العقيدة والمتبعين لها، هي طريقة أهل

. . . .

الحق الطريقة السوية، وهي اتباع سبل الهدى؛ واتباع النبي ﷺ واتباع صحابته، واتباع من سار على نهجه، هذه هي الطريقة التي يجب أن تتبع.

وقد وضحت هذه الطريقة، فأدلتها ناصعة من الكتاب والسنة، ولكن خفيت مع وضوحها على كثير من الأدعياء، فهناك خلق كثير يدعون أنهم مسلمون، وأنهم على الحق، ولكن خفيت عليهم هذه الطريقة، فانحرفوا وتمسكوا بطرق ضالة، وزين لهم الشيطان أنهم على الهدى، فلا جرم أن كان أهل الحق وأهل السنة قلة قليلة بالنسبة إلى أولئك المنحرفين.

ولكن على الحق نور، فالذي يطلب الحق بإنصاف يجده، ولو أن أهل البدع والمحدثات طلبوا الحق برغبة وإنصاف لهدوا إليه ولما توقفوا في قبوله والانقياد له، ولكن سول لهم الشيطان أنهم على الحق وأن ما هم عليه من البدع والضلال هو الصواب، وحال بينهم وبين تأمل الأدلة والتعقل في دلالتها، وزين لهم أنهم أولى بالصواب من غيرهم.

وصدق كلام النبي ﷺ في إخباره أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأخبر أن الفرقة الناجية هم أهل الجماعة[1]، وفي رواية: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[2] فأهل السنة فرقة واحدة من تلك الفرق أما الفرق الأخرى المنحرفة فقد قيل: إنهم فرق أمة الدعوة، وقيل:

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٦.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٧.

. . . .

إنهم فرق أمة الإجابة.

فعلى القول الأول: يدخل فيهم اليهود، والنصارى، والمشركون، والمنافقون، والصابئة، والوثنيون، والدروز، والهندوس، وما أشبههم.

وعلى القول الثاني: لا يدخل فيهم إلا من يدعي الإسلام، ويدعي اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ويدخل فيهم الفلاسفة الإلهيون، ويدخل فيهم الباطنية، والقرامطية، ويدخل فيهم الأشاعرة، والمعتزلة، والقدرية، والشيعة الذين هم الرافضة، وإن كانت هذه الفرق بعضها أضل من بعض. فإن الخوارج مثلاً غلب عليهم التشدد، لذلك لما سئل عنهم علي رضي الله عنه فقيل له: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً.

فالخوارج تشددوا تشدداً كبيراً حتى أخرجوا المسلمين من الإيمان بالذنوب صغيرها وكبيرها، وحتى كفروا سادات الأمة واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وعلى عكس الخوارج كانت المرجئة؛ فقد تساهلوا تساهلاً شديداً وقالوا: إن الإيمان مجرد الكلمة، وإن الأعمال لا تؤثر في الإيمان، فسوّوا بين إيمان أفجر رجل في الأمة وبين إيمان الصديق رضي الله عنه، وفتحوا باب الرجاء حتى جرءوا الناس على المعاصي والمخالفات.

فالحاصل أن هناك ثلاثًا وسبعين فرقة، منها فرقة واحدة ناجية والباقون

. . . .

في النار. فإذا قلنا إن هذه الفرق من أمة الإجابة كان هذا الحديث من أحاديث الوعيد، فإذا أدخلنا فيهم القدرية، مع كونهم يزعمون أنهم أهل العدل، وأدخلنا فيهم الوعيدية، وأدخلنا فيهم الجهمية والكرَّامية والكُلاَّبية وكثيراً من فرق المعتزلة، كان في ذلك تسرع؛ فإن كثيراً منهم لا يؤخذ عليه إلا بدعة خاصة، ولهذا فإن بعض العلماء جعل الفرق التي في النار هي الغلاة، وأما المقاربون لأهل السنة فإنهم لا يخرجون بذلك عن كونهم أهل السنة.

فالحاصل أنه لما أخبر النبي ﷺ بكثرة الاختلاف والتفرق، كان ولابد أن يكون أهل السنة طائفة من تلك الطوائف، وكان لابد من معرفة ما هم عليه، حتى يُتمسك بطريقتهم، وكان لابد أيضًا من حدوث هذه الفُرقة وكثرة الفرق الضالة.

ووصفهم النبي ﷺ بقوله: «**هم الجماعة**» وبقوله: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**» فدل ذلك على أن الطائفة الناجية هم المتمسكون بالسنة، سواء كثروا أم قلوا، فقد تكثر هذه الطائفة في بعض الأزمنة وتقل في بعض حتى يكونوا أفرادًا، وحتى يصبحوا غرباء بين الناس كما في قول النبي ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»[1] قيل: ومن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٥) في الإيمان، باب: «بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم من الفتن**»[١]، وفي رواية: «**الذين يصلحون عند فساد الناس**»[٢]، وفي رواية: «**الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتي**»[٣]، وفي رواية: «**هم النزاع من القبائل**»[٤]، أي يكون أفراد القبيلة كلهم منحرفين وعصاة إلا واحد أو اثنين في كل قبيلة.

وقد ألف ابن رجب رسالة في وصفهم سماها «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» يعني الغرباء الذين دعا لهم النبي ﷺ: «**فطوبى للغرباء**»،

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ص (١٨٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥) وفي الإسناد: سفيان بن وكيع قال ابن حجر في التقريب: صدوق إلا أنه ابتلي بورَّاقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه فسقط حديثه.

(٢) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: الطبراني في الكبير (٦/ ١٦٤) وفي الصغير (١/ ١٠٤) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٨). والقضاعي في مسند الشهاب برقم (١٠٥٥) والدولابي في الأسماء والكنى (١/ ١٩٢، ١٩٣). وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٦٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وفي أسانيدهم بكر بن سليم الصواف. قال ابن عدي: وهو من جملة الضعفاء والحديث يرتقي إلى مرتبة الحسن بالطرق والروايات الأخرى.

(٣) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: الترمذي برقم (٢٦٣٠) في الإيمان وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٠). وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠ ـ ٩٨)، وأورده البغوي في شرح السنة (١/ ١٢٠، ١٢١) وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: فيه كثير بن عبد الله ضعيف جداً، لكن الحديث صح من طرق أخرى وأصله في مسلم.

(٤) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: ابن ماجه برقم (٣٩٨٨) في الفتن. وأحمد في المسند (١/ ٣٩٨) وصححه البغوي في شرح السنة (١/ ١١٨). وقال أحمد شاكر (٣٧٨٤): إسناده صحيح.

. . . .

ونقل رحمه الله في ذلك آثارًا كعادته.

وتكلم عليهم كذلك ابن القيم في منزلة الغربة في كتابه «مدارج السالكين».

ولشيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا كلام جيد عنهم تجده في مجموع الفتاوى (جـ١٨/ ٢٩١ـ٣٠٥).

فالحاصل أن أهل السنة هي الفرقة الناجية، وهي خير الفرق وأفضلها وأقربها إلى الصواب وأقواها حجة، وأصحها دليلاً.

ومع ذلك فإننا نقول: ليس كل من انتمى إلى فرقة من الاثنتين والسبعين فرقة يكون هالكًا، فإن فيهم الجاهل والمقلد، والتابع لعلماء بلده، والباحث عن الحق المجتهد في طلبه ولم يوفق إليه، فهؤلاء لا يدخلون في الحكم، ولكن على كل حال فهم ملومون حيث إن على كل إنسان أن يفهم الحق ويحكم به ويتتبع الأدلة، ولا يكون مقلداً مخافة أن يخطئ في تقليده.

فأهل السنة يقابلون أهل البدعة، ولاشك أن الرافضة مبتدعون، والجهمية مبتدعون، والمعتزلة مبتدعون، والجبرية الذين هم مقابل المعتزلة مبتدعون أيضًا، فكل منهم ليس على السنة، وأهل السنة هم الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وهم أهل الجماعة.

والكتب التي ألفت في الفرق كثيرة، منها كتاب «الفرق بين الفرق»، وكتاب الأشعري «مقالات الإسلاميين»، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء

. . . .

والنحل» لابن حزم، وكتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، كلهم تكلموا عن هذه الفرق، وقد تصل هذه الفرق إلى الألف، وقصرها على ثلاث وسبعين فيه صعوبة.

وقرأت في أول كتاب ابن الجوزي الذي سماه «تلبيس إبليس» شرحًا لهذا الحديث، ثم قسم الفرق إلى ست فرق، وجعل كل فرقة اثنتي عشرة. قال: انقسمت الرافضة إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الجبرية إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت المعتزلة إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الخوارج إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الجهمية إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت القدرية إلى اثنتي عشرة فرقة أو كما قال.

ولاشك أن هذا الحصر فيه تحكّم؛ لأن بعض الفرق قد تكون أقل من ذلك فإذا أراد أن يوصلها إلى ذلك العدد قد يأتي بفرق غير مشهورة وبأسماء غير معروفة، وبعضها أكثر من هذا العدد فيترك بعض الفرق ليصل العدد إلى ما أراده.

▪ قوله: (**ومنهم الصديقون والشهداء والصالحون...**):

ثم واصل الشيخ رحمه الله في ذكر بعض فضائل ومزايا أهل السنة فقال: «**وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة**».

فأهل السنة منهم الصديقون والشهداء والصالحون الذين ذكرهم الله في

. . . .

قــوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الحديد: ١٩] **فالصديقون**: هم المبالغون في التصديق، ورئيسهم أبو بكر رضي الله عنه، وكل الصحابة غالبًا من أهل التصديق البالغ، كذلك **الشهداء**: ينطبق أيضًا عليهم أنهم من الشهداء الذين يستشهدهم الله تعالى ويشهدهم على خلقه كما في قوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والصالحون: هم الذين أصلحوا أحوالهم وأعمالهم، بحيث استقاموا على الأعمال الصالحة، فصلحت أعمالهم وصلحت أحوالهم ونياتهم فوصفوا بأنهم صالحون .

وأما قوله: «**أعلام الهدى ومصابيح الدجى**» فالمراد بهم علماء الأمة الذين هم بمنزلة الأعلام، والأعلام في الأصل: الجبال كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ [الشورى: ٣٢] يعني كالجبال، فجعل الله هؤلاء العلماء يقتدى بهم في المسائل وفي السنة.

فوصف المؤلف رحمه الله علماء الأمة الذين هم علماء السنة في كل زمان بهذه الأوصاف: بأنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجي، فالأعلام: هي الجبال الشامخة التي يُقتدى بها، ويوصف المشهور أيضًا بهذا كما في قول الخنساء في

. . . .

أخيها:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وكذلك «**مصابيح الدجى**» فالدجى: الظلمات، والذي يسير في الظلمات يتخبط في سيره ويتيه ما لم يكن معه مصابيح تنير له الطريق، فهؤلاء العلماء الذين حملوا العلم الصحيح بمنزلة السُرج المضيئة في تلك الدياجير المظلمة.

وأما قوله: «**وفيهم الأبدال**»، فكلمة الأبدال كلمة ابتدعتها الصوفية، وهذا المصطلح ليس له دليل على اصطلاح الصوفية؛ لأنهم يزعمون أن في الأرض أبدال متى مات واحد استخلف واحداً يكون سبباً في إصلاح الأمة وفي دفع العذاب عنها.

فعندهم: الأوتاد والأقطاب، والأبدال، أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، لكن كلمة الأبدال معناها صحيح، والمراد أن أهل الخير وأهل العلم يخلف بعضهم بعضاً، فإذا مات بعضهم أخرج الله بدلهم فيقومون مقامهم، وإذا مات علماء أهل الزمان، جعل الله بدلهم من يخلف مكانهم، ويكونون أبدالاً يعني بدلاً عمن سبقهم، هذا معى كونهم أبدالاً، وإن لم يكن لها أصل في الشرع، لكن معناها صحيح مطابق من ناحية اللغة.

وذكرها على حسن النية لا بأس به، ولكن على اصطلاح الصوفية ليس لها أصل، وكذلك الأقطاب والأوتاد على اصطلاح الصوفية ليس لها أصل.

فالأقطاب: يقولون: إن القطب بمنزلة القطب الذي في السماء،

. . . .

والأوتاد: يقولون: إنهم سبب ثبوت الأرض، كالجبال التي أرسى الله بها الأرض وقد كانت تميل فأرساها بتلك الجبال.

والصوفية يقولون: إن هؤلاء هم سبب ثبات الأرض وكونها لا تميل ولا تضطرب ولا تتحرك.

أما إذا استعملنا كلمة أبدال بمعنى: أن أهل العلم والدين والخير والصلاح يخلف بعضهم بعضًا، فلا بأس بذلك.

وكذلك وصفهم بأنهم الأئمة «**أئمة الدين**» يعني الذين يُقتدى بهم فالإمام بمعنى القدوة، وبلا شك أن علماء أهل السنة أئمة وأهل قدوة يُقتدى بهم في أعمالهم وفي سيرهم وسلوكهم، فلهم فضل على هذه الأمة.

ومن أشهرهم: أئمة المذاهب الأربعة، فإنهم كلهم على عقيدة واحدة، فلم يتفرقوا في العقيدة، عقيدتهم واحدة في أسماء الإيمان والدين، عقيدتهم واحدة في التصديق بالآخرة وما بعدها، عقيدتهم واحدة في الصحابة وما يقال فيهم، عقيدتهم واحدة في القضاء والقدر، عقيدتهم واحدة في القرآن، عقيدة الأئمة الأربعة واحدة.

وهكذا أهل زمنهم من الأئمة الآخرين؛ كالليث ابن سعد، وشعبة بن الحجاج، والأوزاعي، وحماد بن زيد، وابن سلمة، وسفيان الثوري، وكذلك تلامذتهم كيحيى بن معين، وعلي بن المديني، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ونحوهم، الذين حفظت أقوالهم

. . . .

وعقائدهم، ودونت أتم تدوين، منها ما كتبوه هم، ومنها ما كتبه تلامذتهم.

وهذا دليل على أن أهل البدع ما فشت بدعهم وتمكنت، إلا بعد أن مضى عهد أولئك السلف الصالحين، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(١) يعني القرن الأول الذين هم الصحابة رضوان الله عليهم، والقرن الثاني وهم التابعون، والقرن الثالث وهم تابعو التابعين الذين رأوا التابعين، فهؤلاء هم أهل العلم والعمل، وبعدهم كثر الافتراق وتفرقت الأمة، وتشعبت إلى شعب كثيرة، فإذاً أهل السنة حقًا هم الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وصحابته، وساروا على نهجهم.

الفرقة الناجية:

وهم الفرقة الناجية المنصورة الباقية إلى قيام الساعة فقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٢) هذه الفرقة هي أهل السنة وأهل الجماعة، هي الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، جعلهم فرقة لكثرة من خالفهم، ويعتبرون فرقة وجماعة واحدة، ولو كانوا متباعدين، قد يكون بعضهم في هذه البلاد، وبعضهم في بلاد أخرى بعيدة، لكن لما كان معتقدهم واحدًا، أصبحوا طائفة واحدة، ولا يلزم

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٠) في الإمارة، باب: قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ....." عن ثوبان رضي الله عنه.

. . . .

أن تكون الطائفة مجتمعة في بقعة أو مكان، بل هم طائفة ولو تفرقوا.

النبي ﷺ أخبر بأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة، أي منصورة بالحجة ومنصورة بالقوة، فحجتهم وأدلتهم قوية ينتصرون بها على من خالفهم، وكذلك يمدهم الله بقوة ينتصرون بها على عدوهم، ولو كان عدوهم أكثر عدداً، وأكثر عُدداً.

فأهل السنة والجماعة هم الذين أخبر بأنهم منصورون، وبأنهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، والخذلان معناه التخذيل، أي لا يضرهم من حقرهم، ولا يضرهم من فتَّ في أعضادهم وقال لهم: أنتم قلة، والناس كلهم ضدكم، ألا تسيرون كما يسير الناس؟ سيروا مع غيركم، افعلوا كغيركم، الناس قد تطوروا وتحضروا، وأنتم لا تزالون على عقيدة حدثنا وأخبرنا!! أنتم لا تزالون علي عقيدة الأولين وتتمسكون بها!!، الناس فكروا!! والناس نظروا!! وأنتم لا تزالون تقرءون في هذه الكتب الصفراء البالية!!

لاشك أن هذه تخذيلات، ولكنها لا تروج على هؤلاء الذين منحهم الله العقول الذكية فعرفوا الحق وآمنوا به وعملوا به.

وقد اختلف في هذه الطائفة التي أخبر النبي ﷺ بأنها باقية إلى قيام الساعة، فمن العلماء من قال: هذه الطائفة هم العُباد، أهل العبادة وأهل التقشف، ومنهم من قال: بل هم الصوفية الزهاد الذين زهدوا في الدنيا، وجعلوا أعمالهم للآخرة، ولكن لاشك أن من يسمون صوفية عندهم بدع

. . . .

ومحدثات لايليق بهم أنهم أهل السنة.

كذلك أيضًا منهم من يقول: إنهم أهل الحديث، وهذا هو الأقرب، روي أن الإمام أحمد رحمه الله سُئل: من هم هذه الطائفة الذين أخبر النبي ﷺ أنهم على الحق؟ فقال: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم. ومراده بأهل الحديث أي الذين اشتغلوا بعلم الحديث، والذين اشتغلوا بالعمل به، فمن رزق العلم بالحديث، رزق أيضًا التمسك به وتطبيقه، والعمل بإرشاداته وتعاليمه؛ لأن الحديث فيه بيان للقرآن، فالذين يحفظون الحديث ويعملون به هم أيضًا يحفظون القرآن ويعملون به، فلا يتركون شيئًا من أدلة الوحي إلا قبلوها وعملوا بها بعد التأكد من صحتها، فهؤلاء بلا شك أقرب أن يكونوا من الفرقة الناجية.

ومنهم من قال: إن الفرقة الناجية هم علماء السنة، أي العلماء الذين علموا السنة وحفظوها على الأمة، ويتبعهم كل من عمل بإرشادهم، بخلاف علماء البدعة ومن انحرف عن طريقهم بسبب دعايتهم فإنهم ليسوا من الفرقة الناجية.

وأنت تعرف أنه قد وقع في الأمة بدع كثيرة، وكل أهلها يدعون أنهم أهل حق وعلى طريق سوي، وأن الصواب في جانبهم، ولكن لاشك أن الحق أحق أن يُتبع، فالحق هو ما وافقه الدليل، فإذا كان الدليل مع طائفة من الطوائف فإن العارف يتبعه ولو لم يكن في طائفته، ولو خالف مذهبه وطريقة

. . . .

إمامه وأهل زمانه.

بلا شك أن هناك من يكون عالمًا بالسنة، عالمًا بالأدلة، ولكن لا ينفعه علمه، يعلم ولا يعمل، فيكون علمه وبالاً عليه وحجة عليه، ومثل هذا لا يتبع ولا يكون قدوة، حتى إنه يستنكر عليه العوام الذين لا يعرفون تفاصيل الأدلة.

فعرف بذلك أن الفرقة الناجية: أهل السنة والجماعة الذين هم منصورون إلى قيام الساعة، هم المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ، وقد ذكرهم شيخ الإسلام في أول هذه العقيدة وفي آخرها، بمعنى أن اعتقادهم هو اعتقاد واحد. قال في أول الرسالة: «أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله . . .» إلخ.

وقال في آخرها: «وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة» يعني الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. ثم دعا الله تعالى بهذا الدعاء حيث رغب إلى الله تعالى أن يجعله ـ هو ومن عمل برسالته وسائر الكتب التي تدعو إلى السنة ـ من أهل السنة والجماعة، وهي دعوة شريفة على المسلم أن يدعو الله تعالى بها في كل حالاته، وهي أن يحشر مع أهل السنة؛ لأن الحشر معهم سبيل إلى النجاة وذلك يستدعي محبتهم، ولا شك أن محبتهم تستدعي تقليدهم والسير على نهجهم، فمن كان كذلك فإنه

. . . .

سيحشر معهم لقوله ﷺ : «المرء مع من أحبَّ»(١) .

والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا .



---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٧٠) في الأدب، باب : «علامة حب الله عز وجل» . ومسلم برقم (٢٦٤٠) في البر والصلة، باب : «المرء مع من أحب» . عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

الفهارس

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة



توزيع :
مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان
الرياض ١١٤٣١ ـ ✉ ١٤٠٥
☎ ٤٠٢٢٥٦٤ ـ فاكس : ٤٠٢٣٠٧٦